

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٩

الجزء التاسع عشر

مَكْتَابُ

الْمِيزَانُ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لِوَلَّاهُ

الْأَسْتَاذِ الْعَلَّامَةِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَسَنِ الطَّبَّاطَبَايَا

شبكة كتب الشيعة

مَنْعَمُ الطَّبْعِ وَنَشْرُ

الْبَيْتِ مُحَمَّدِ الْخُونَيْرِيِّ

تَبْيِينُ

دَارُ الْكِتَابِ الْأَسْلَمِيَّةِ

طَهْرَانَ - سَوْرَةُ السَّلَاطِينِ

ق ١٣٩١ هـ

مطبعة الحيدري - تهران

shiaabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة الطور مكية و هي تسع و أربعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ - الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة إنذار أهل التكذيب والعناد من الكفار بالعذاب الذي أعد لهم يوم القيامة فتبدء بالإنباء عن وقوع العذاب الذي أُنذروا به ونحققه يوم القيامة بأقسام مؤكدة و أيمان مغلظة ، و أنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم ولا مناص .
ثم تذكر نبذة من صفة هذا العذاب والويل الذي يعمهم ولا يفارقهم ثم تقابل ذلك بشمسة من نعيم أهل النعيم يومئذ و هم المستقون الذين كانوا في الدنيا مشفقين في أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له .
ثم تأخذ في توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبي ﷺ و ما أنزل عليه من القرآن و ما أتى به من الدين الحق .
ونختم الكلام بتكرار التهديد والوعيد وأمر النبي ﷺ بتسبيح ربه . والسورة

مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها .

قوله تعالى : « والطور » قيل : الطور مطلق الجبل وقد غلب استعماله في الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والأنسب أن يكون المراد به في الآية جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه و بارك فيه كما أقسم به في قوله : « و طور سينين » التين : ٢ وقال : « و نادينه من جانب الطور الأيمن » مريم : ٥٢ ، وقال في خطابه لموسى عليه السلام « فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، طه : ١٢ ، وقال : « نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ .

وقيل : المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى : « وجعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها » حم السجدة : ١٠ .

قوله تعالى : « و كتاب مسطور في رق منشور » قيل : الرق مطلق ما يكتب فيه وقيل : هو الورق ، وقيل : الورق المأخوذ من الجلد ، والنشر هو البسط ، والتفريق . والمراد بهذا الكتاب قيل : هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون وما هو كائن تقرأه ملائكة السماء ، وقيل : المراد صحائف الأعمال تقرأه حفظة الأعمال من الملائكة ، وقيل : هو القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وقيل : هو التوراة وكانت تكتب في الرق و تنشر للقراءة .

والأنسب بالنظر إلى الآية السابقة هو القول الأخير .

قوله تعالى : « والبيت المعمور » قيل : المراد به الكعبة المشرفة فإنها أول بيت وضع للناس ولم يزل معمورا منذ وضع إلى يومنا هذا قال تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » آل عمران : ٩٦ .

وفي الروايات المأثورة أن البيت المعمور بيت في السماء بجذاء الكعبة تزوره الملائكة .

و تنكير « كتاب » للإيماء إلى استغنائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف ويستلزمه .

قوله تعالى : « والسقف المرفوع » هو السماء .

قوله تعالى : «والبحر المسجور» قال الراغب : السجرت هييج النار ، وفي المجمع : المسجور المملوء يقال : سجرت التَّنُور أي ملأته ناراً ، وقد فسرت الآية بكل من المعنيين و يؤيد المعنى الأول قوله : « وإذا البحار سجرت » التكوير : ع أي سعتت وقد ورد في الحديث أن البحار تسعّر نارا يوم القيامة ، وقيل : المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيها .

قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع » جواب القسم السابق والمراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذي أوعده الله به الكفار المكذبين كما تشير إليه الآية التالية ، وفي قوله : « ما له من دافع » دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذي لا محيص عن وقوعه قال تعالى : « وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » الحج : ٧ .

وفي قوله : « عذاب ربك » بنسبة العذاب إلى الرب المضاف إلى ضمير الخطاب دون أن يقال : عذاب الله تأييد للنبي ﷺ على مكذبي دعوته وتطيب لنفسه أن ربه لا يخزيه يومئذ كما قال : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » التحريم : ٨ .
قوله تعالى : « يوم تمور السماء موراً و تسير الجبال سيراً » ظرف لقوله : « إن عذاب ربك لواقع » .

والمور - على ما في المجمع - ترد الشيء بالذهاب والمجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل ، و يقرب منه قول الراغب : أنه الجريان السريع .
وعلى أي حال فيه إشارة إلى انطواء العالم السماوي كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » الانفطار : ٢ ، وقوله « يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب » الأنبياء : ١٠٣ وقوله : « والسموات مطويات بيمينه » الزمر : ٦٧ .

كما أن قوله : « و تسير الجبال سيرا » إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « إذا رجفت الأرض رجاً و بسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » الواقعة : ٥ وقوله : « وسيّرت الجبال فكانت سراباً » النبأ : ٢٠ .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « والطور و كتاب مسطور » قال : الطور جبل بطور سيناء .

و في المجمع « والبيت المعمور » و هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة يعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة . عن ابن عباس و مجاهد ، و روي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : و يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه أبداً . أقول : كون البيت المعمور بيتاً في السماء يطوف عليه الملائكة واقع في عدة أحاديث من طرق الفريقين غير أنّها مختلفة في محلّه ففي أكثرها أنّه في السماء الرابعة و في بعضها أنّه في السماء الأولى ، و في بعضها السابعة .

و فيه « والسقف المرفوع » و هو السماء عن عليّ عليه السلام .

و في تفسير القميّ « والسقف المرفوع » قال : السماء « والبحر المسجور » قال : تسجر يوم القيامة .

و في المجمع « والبحر المسجور » أي المملوء . عن قتادة ، و قيل : هو الموقف المحمى بمنزلة التنوير . عن مجاهد والضحاك والأخفش وابن زيد . ثم قيل : إنّهُ تحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً ثم تفجر بعضها في بعض ثم تفجر إلى النار . ورد به الحديث .





قَوِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)
 يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
 تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا
 أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ
 فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَيْهِمْ رَبُّهُمْ وَوَقِيَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ
 الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَكئينَ
 عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ
 مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمَدَدْنَا لَهُمُ بِفَاكِهَةٍ وَنَحْمٍ
 مِّمَّا يَشْتَهِونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)
 وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)
 فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَيْنَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ
 إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) .

﴿بيانات﴾

تذكر الآيات من يقع عليهم هذا العذاب الكذى لا ريب في تحققه ووقوعه ، و تصف حالهم إذ ذاك ، وهذا هو الغرض الأصيل في السورة كما تقدمت الإشارة إليه وأما ما وقع في الآيات من وصف حال المتقين يومئذ فهو من باب التطفل لتأكيد الانذار المقصود .

قوله تعالى : « فويل يومئذ للمكذبين » تفريع على ما دلت عليه الآيات السابقة من تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أي إذا كان الأمر كما ذكر ولم يكن محيص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه وهم المكذبون لامحالة فالجملة تدل على كون المكذبين هم المكذبين بالاستلزام وعلى تعلق الويل بهم بالمطابقة .

أو التقدير إذا كان العذاب واقعاً لا محالة ولا محالة لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم ، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين هو قوله : « عذاب ربك » لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه و كذب دعوته .

قوله تعالى : « الذين هم في خوض يلعبون » الخوض هو الدخول في باطل القول قال الراغب : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، و يستعار في الأمور و أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى ، و تنوين التنكير في « خوض » يدل على صفة محذوفة أي في خوض عجيب .

ولما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقة إلا نتيجة خيالية ينسبها الوهم للنخاض سماء لعبا - واللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالي - .

والمعنى الذين هم مستمرّون في خوض عجيب يلعبون بالمجادلة في آيات الله وإنكارها والاستهزاء بها .

قوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » الدّع هو الدفع الشديد ،

والظاهر أن «يوم» ، بيان لقوله : «يومئذ» .

قوله تعالى : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أي يقال لهم : هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، والمراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهم السلام بوحى من الله من وجود هذه النار و أنه سيعذب بها المجرمون و محصل المعنى : هذه مصداقما أخبر به الأنبياء فكذبتم به .

قوله تعالى: « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون » تفریع علی قوله : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون » والاستفهام للإنكار تفریعاً لهم أي إذا كانت هذه هي تلك النار التي كنتم تكذبون بها فليس هذا سحراً كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر وليس هذا أمراً موهوماً خرافياً كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاین لكم فلا ية في معنی قوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » الأحقاف: ٣٤ .
و بما مر من المعنى يظهر أن " أم " في قوله : « أم أنتم لا تبصرون » متصلة وقيل : منقطعة ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنتما تجزون ما كنتم تعملون » الصلي بالفتح فالسكون مقاساة حرارة النار فمعنى اصلوها قاسوا حرارة نار جهنم .

و قوله : « فاصبرو أو لاتصبروا » تفريع على الأمر بالمقاساة ، والترديد بين الأمر والنهي كناية عن مساواة الفعل والترك ، ولذا أتبعه بقوله : « سواء عليكم » أي هذه المقاساة لازمة لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه ولا الجزع و ترك الصبر ينفع لكم شيأ .

و قوله: «سواء عليكم» خبر مبتدأ محذوف أي هما سواء وإفراد «سواء» لكونه مصدراً في الأصل.

و قوله : « إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » في مقام التعليل لما ذكر من ملازمة العذاب و مساواة الصبر والجزع .

والمعنى إنما يلزمكم هذا الجزاء السيء ولا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم

التي كنتم تعملونها ولا تسلب نسبة العمل عن عامله فالعذاب يلزامكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون و جزائه .

قوله تعالى : « إن المتقين في جنّات و نعيم » الجنّة البستان تجنّته الأشجار و تستره ، والنعيم النعمة الكثيرة أي إن المتّصّفين بتقوى الله يومئذ في جنّات يسكنون فيها و نعمة كثيرة تحيط بهم .

قوله تعالى : « فاكهين بما آتاهم ربّهم ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم » الفاكهة مطلق الثمرة ، و قيل : هي الثمرة غير العنب والرمان ، و يقال : تفكّه و فكّه إذا تعاطى الفاكهة ، و تفكّه و فكّه إذا تناول الفاكهة ، وقد فسّرت الآية بكلّ من المعنيين فقيل : المعنى يتحدّثون بما آتاهم ربّهم من النعيم ، و قيل : المعنى يتناولون الفواكه و الثمار التي آتاهم ربّهم ، و قيل : المعنى يتلذّذون بإحسان ربّهم و مرجعه إلى المعنى الأوّل و قيل : معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربّهم ، و لعلّ مرجعه إلى المعنى الثاني .

و تكرر « ربّهم » في قوله : « ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم » لإفادة مزيد العناية بهم .

قوله تعالى : « كلوا و اشربوا هنياً بما كنتم تعملون » أي يقال لهم : كلوا و اشربوا أكلاً و شرباً هنيئاً أو طعاماً و شراباً هنيئاً ، فهنيئاً وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به .

و قوله : « بما كنتم تعملون » متعلّق بقوله : « كلوا و اشربوا » أو بقوله : « هنيئاً » .

قوله تعالى : « متّكئين على سرر مصفوفة و زوّجناهم بحور عين » الاتّكاء الاعتماد على الوسادة و نحوها ، و السرر جمع سرير ، و مصفوفة من الصف أي مصطفة موصولة بعضها ببعض ، و المعنى متّكئين على الوسائد و النمازق قاعدين على سرر مصطفة .

و قوله : « و زوّجناهم بحور عين » المراد بالتزويج القرن أي قرّناهم بهنّ دون النكاح بالعقد ، و الدليل عليه تعدّيه بالباء فإنّ التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدّ بنفسها قال تعالى : « زوّجناكها » الأحزاب : ٣٧ كذا قيل .

قوله تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيتهم و ما ألتناهم من عملهم من شيء » الخ قيل : الفرق بين الاتّباع واللاحق مع اعتبار التقدّم والتأخّر فيهما جميعاً أنّه يعتبر في الاتّباع اشتراك بين التابع والمتبوع في مورد الاتّباع بخلاف اللّحاق فاللاحق لا يشارك الملحق في ما لحق به فيه .

ولات وألات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئاً من عملهم بالإلحاق . و ظاهر الآية أنّها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتنّ على الذين آمنوا أنّه سيلحق بهم ذرّيتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقرّر بذلك أعينهم ، وهذا هو القرينة على أنّ التنوين في « إيمان » للتشكيك دون التعظيم .

والمعنى اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن قصر عن درجة إيمان آبائهم إذ لا امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساوياً له .

و إطلاق الاتّباع في الإيمان منصرف إلى اتّباع من يصحّ منه في نفسه الإيمان ببلوغه حدّاً يكلف به فالمراد بالذرّية الأولاد الكبار المسكّلون بالإيمان فالآية لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ ، ولا ينافي ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعاً .

اللهم ! إلّا أن يستفاد العموم من تشكيك الإيمان ويكون المعنى واتبعتهم ذرّيتهم بإيمان ما سواء كان إيماناً في نفسه أو إيماناً بحسب حكم الشرع .

وكذا الامتنان قرينة على أنّ الضمير في قوله : « و ما ألتناهم من عملهم من شيء » للذين آمنوا كالضميرين في قوله : « واتبعتهم ذرّيتهم » إذ قوله : « و ما ألتناهم من عملهم من شيء » مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق وهو ينافي الامتنان ومن المعلوم أنّ الذي ينافي الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرّية .

فتحصّل أنّ قوله : « والذين آمنوا » الخ استئناف يمتنّ تعالى فيه على الذين آمنوا بأنّه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان وإن كان قاصراً عن درجة إيمانهم لتقرّر به أعينهم ، ولا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء

بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو ينحو لا تراحم فيه على ما هو أعلم به .

و في معنى الآية أقوال آخر لا تخلو من سخافة كقول بعضهم إن قوله : «والذين آمنوا» معطوف على «حور عين» والمعنى وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح والذين آمنوا بالرفقة والصحة ، و قول بعضهم : إن المراد بالذرية صغار الأولاد فقط ، و قول بعضهم : إن الضميرين في «وما ألتناهم من عملهم من شيء» للذرية والمعنى وما نقصنا الذرية من عملهم شيئاً بسبب إلحاقهم بآبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بآبائهم .

و قوله : «كل امرئ بما كسب رهين» تعليل لقوله : «وما ألتناهم من عملهم من شيء» على ما يفيد السياق ، والرهن والرهن والمرهون ما يوضع وثيقة للدين على ما ذكره الراغب قال : و لما كان الرهن يتصور منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان . انتهى .

و لعل هذا المعنى الاستعاري هو المراد في الآية والمرء رهن مقبوض محفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئاً من عمله ولم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل و امتلك بعضه الآخر غيره كذرت منه الملحقين به .

و أما قوله تعالى : «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين» المدثر : ٣٩ فالمراد كونها رهينة العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله : «في جنات يتساءلون عن المجرمين» المدثر : ٤١ .

و قيل : المراد كون المرء رهين عمله رهين عمله السيئ كما تدل عليه آية سورة المدثر المذكورة آنفاً بشهادة استثناء أصحاب اليمين ، والآية أعني قوله : «كل امرئ بما كسب رهين» جملة معترضة من صفات أهل النار اعترضت في صفات أهل الجنة .

و حمل صاحب الكشف الآية على نوع من الاستعارة فرفع به التناهي بين الآيتين قال : كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه فإن عمل صالحاً فكفها و خلصها وإلا أوبقها . انتهى .

و أنت خير بأن مجرّدا ما ذكره لا يوجّه اتصال الجملة أعني قوله : « كل امرئ بما كسب رهين » بما قبلها .

قوله تعالى : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » بيان لبعض متنعّماتهم و تمتّعاتهم في الجنّة المذكورة إجمالاً في قوله السابق : « كلوا و اشربوا هنيئاً الخ . والإمداد الإتيان بالشيء وقتاً بعد وقت و يستعمل في الخير كما أن المدّ يستعمل في الشرّ قال تعالى : « و نمدّ له من العذاب مدّاً » مريم : ٧٩ . والمعنى أنا نرزقهم بالفاكهة و ما يشتهونه من اللحم رزقاً بعد رزق و وقتاً بعد وقت من غير انقطاع .

قوله تعالى : « يتنازعون فيها كسا لا لغو فيها ولا تأثيم » التنازع في الكأس تعاطيها والاجتماع على تناولها ، والكأس القدح و لا يطلق الكأس إلا فيما كان فيها الشراب .

والمراد باللغو لغو القول الذي يصدر من شاربي الخمر في الدنيا ، والتأثيم جعل الشخص ذا إثم و هو أيضاً من آثار الخمر في الدنيا ، و نفى اللغو والتأثيم هو القرينة على أن المراد بالكأس التي يتنازعون فيها كأس الخمر .

قوله تعالى : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » المراد به طوافهم عليهم للخدمة قال بعضهم : قيل : « غلمان لهم » بالتنكير ولم يقل : غلمانهم لثلاثتهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فهم كالحوار من مخلوقات الجنّة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون في الحسن والصباحة والصفاء .

قوله تعالى : « و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » أي يسأل كل منهم غيره عن حاله في الدنيا و ما الذي ساقه إلى الجنّة والنعيم ؟

قوله تعالى : « قالوا إنا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » قال الراغب : والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى : « و هم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال تعالى : « إنا كنّا قبل في أهلنا مشفقين » ، انتهى .

فالمعنى إننا كنّا في الدنيا ذوي إشفاق في أهلنا نعتني بسعادتهم و نجاتهم من مهلكة الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشرة و نسير فيهم بيث النصيحة والدعوة إلى الحق .

قوله تعالى : « فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم » المن على ما ذكره الراغب الأ نعام بالنعمة الثقيلة و يكون بالفعل و هو حسن ، و بالقول و هو قبيح من غير تعالى قال تعالى : « يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » الحجرات : ١٧ .

و منه تعالى على أهل الجنة إيساعده إيتاهم لدخولها بالرحمة و تمامه بوقايتهم عذاب السموم .

والسموم - على ما ذكره الطبرسي - الحرّ الذي يدخل في مسامّ البدن يتألم به و منه ريح السموم .

قوله تعالى : « إنّا كنّا من قبل ندعوه إنّه هو البرّ الرحيم » تعليل لقوله : « فمن الله علينا » الخ كما أن قوله : « إنّه هو البرّ الرحيم » تعليل له .

و تفيد هذه الآية مع الآيتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة والتسليم لأمره و كانوا مشفقين في أهلهم يقرّونهم من الحقّ و يجنبونهم الباطل فكان ذلك سبباً لمنّ الله عليهم بالجنة و وقايتهم من عذاب السموم ، و إنّما كان ذلك سبباً لذلك لأنّه تعالى برّ رحيم فيحسن لمنّ دعاه و يرحمه .

فالآيات الثلاث في معنى قوله : « إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات و تواصلوا بالحقّ و تواصلوا بالصبر » العصر : ٣ .

والبرّ من أسماء الله تعالى الحسنى و هو من البرّ بمعنى الإحسان و فسّره بعضهم باللطيف .



﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي بكر عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم» قال: فقال: قصرت الأبناء عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم.

أقول: ورواه أيضاً في التوحيد بإسناده إلى أبي بكر الحضرمي عنه عليه السلام. وفي تفسير القمي حديث أبي عن سليمان الديلمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن أطفال شيعتنا من المؤمنين تربيتهم فاطمة عليها السلام، وقوله: «ألحقنا بهم ذريتهم» قال يهدون إلى آباءهم يوم القيامة.

أقول: وروى في المجمع ذيل الحديث عنه عليه السلام مرسلًا.

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا مات الطفل من أطفال المؤمنين نادى مناد في ملكوت السماوات والأرض ألا إن فلان بن فلان قد مات فان كان مات والداه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين دفع إليه يغذوه، وإلا دفع إلى فاطمة تغذوه حتى يقدم أبواه أو أحدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فيدفعه إليه».

وفي الفقيه: وفي رواية الحسن بن محبوب عن علي بن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى كفّل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين يغذوانهم بشجرة في الجنة لها أخلاف كأخلاف البقر في قصر من درة فاذا كان يوم القيامة ألبسوا وطبّوا وأهدوا إلى آباءهم فهم ملوك في الجنة مع آباءهم، وهذا قول الله تعالى: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم».

وفي المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ثم قرء هذه الآية.

وفي الدر المنثور أخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي

صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل ثم قرء » والذين آمنوا واتبعتهم ذرية يأتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرية يأتهم و ما ألتناهم من عملهم من شيء » قال : و ما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرء ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعتهم ذرية يأتهم بإيمان » الآية .

اقول : والآية لا تشمل الآباء المذكورين في الحديث ، والأنسب للدلالة عليه ما ذكره تعالى في دعاء الملائكة « ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرية يأتهم » الآية المؤمن : ٨ .

وفي تفسير القمي قوله : « لا لغو فيها ولا تأثيم » قال : ليس في الجنة غناء ولا فحش ، و يشرب المؤمن ولا يأثم « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » قال : في الجنة .





فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
 شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)
 أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
 صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
 الْمُصِيطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعَهُمْ بِسُلْطَانٍ
 مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ
 مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ
 يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهٌ غَيْرُ اللَّهِ
 سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
 سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) .

﴿بيان﴾

لما أخبر عن العذاب الواقع يوم القيامة وأنه سيصيب المكذِّبين ، والملتفتون في
 جنَّاتٍ و نعيمٍ قريرة العيون أمر النبي ﷺ أن يمضي في دعوته و تذكرته مشيراً إلى

أنه صالح لإقامة الدعوة الحقّة ، ولا عذر لهؤلاء المكذّبين في تكذيبه و ردّ دعوته .
فنفى جميع الأعداء المتصورّة لهم وهي ستّة عشر أمراً شطراً منها راجع إلى
النبي ﷺ لو تحقّق شيء منه فيه سلب صلاحيته للاتباع و كان مانعاً عن قبول قوله
ككونه كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو متقولاً مقترياً على الله و كسؤاله الأجر على دعوته
و شطراً منها راجع إلى المكذّبين أنفسهم مثل كونهم خلقوا من غير شيء أو كونهم الخالقين
أو أمر عقولهم بالتكذيب إلى غير ذلك ولا تخلو الآيات مع ذلك عن توبيخهم الشديد
على التكذيب .

قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » تفريع على ما مرّ
من الإخبار المؤكّد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة ، وأنه سيغشى المكذّبين
والمتمقّون في وقاية منه مثل ذنوب بنعيم الجنة .

فالآية في معنى أن يقال : إذا كان هذا حقّاً فذكر فما تذكّر و تنذر بالحق
ولست كما يرمونك كاهناً أو مجنوناً .

و تقييد النفي بقوله : « بنعمة ربك » يفيد معنى الامتحان على النبي ﷺ
خاصّة ، وليس هذا الامتحان الخاص من جهة مجرّد انتفاء الكهانة و الجنون فأكثر
الناس على هذه الصفة بل من جهة تلبّسه ﷺ بالنعمة الخاصّة به المانع من عروض
هذه الصفات عليه من كهانة أو جنون وغير ذلك .

قوله تعالى : « أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون » أم منقطعة ، والتربص
الانتظار ، و في مجمع البيان : التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها
و المنون المنية والموت ، والريب القلق والاضطراب . فريب المنون قلق الموت .

و محصّل المعنى بل يقولون هو أي النبي ﷺ شاعر نفتظر به الموت حتّى
يموت و يخمد ذكره و ينسى رسمه فنستريح منه .

قوله تعالى : « قل تربصوا فإني معكم من المتربّصين » أمر النبي ﷺ أن
يأمرهم بالتربص كما رضوا لأنفسهم ذلك ، و هو أمر تهديدي أي تربصوا كما ترون
لأنفسكم ذلك فإنّ هناك أمراً من حقّه أن ينتظر وقوعه ، و أنا أنتظره مثلكم لكنّه

عليكم لالكم و هو هلاككم و وقوع العذاب عليكم .

قوله تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » الأحلام جمع حلم و هو العقل ، وأم منقطعة والكلام بتقدير الاستفهام والإشارة بهذا إلى ما يقولونه للنبي صلى الله عليه وآله و يتربصون به .

والمعنى بل أم تأمرهم عقولهم أن يقولوا هذا الذي يقولونه و يتربصوا به الموت ؟ فأى عقل يدفع الحق بمثل هذه الأباطيل ؟

قوله تعالى : « بل هم قوم طاغون » أي أن عقولهم لم تأمرهم بهذا بل هم طاغون حلمهم على هذا طغيانهم .

قوله تعالى : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون » قال في المجمع : التقول تكلف القول ولا يقال ذلك إلا في الكذب ، والمعنى بل يقولون : افتعل القرآن ونسبه إلى الله كذباً و افتراء . لا بل لا يؤمنون فيرمونه بهذه الفرية .

قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » جواب عن قولهم : « تقوله » بأنه لو كان كلاماً للنبي ﷺ كان كلاماً بشرياً مماثلاً لسائر الكلام وبماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في دعواهم التقول بل هو كلام إلهي لائحة عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله ، وقد تقدم الكلام في وجوه إعجاز القرآن في تفسير سورة البقرة الآية ٢٣ تفصيلاً . و يمكن أن تؤخذ الآية ردّاً لجميع ما تقدم من قولهم المحكي أنه كاهن أو معجنون أو شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم .

قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » إتيان « شيء » منكرأ بتقدير صفة تناسب المقام والتقدير من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر .

والمعنى بل أخلق هؤلاء المكذوبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر فصلاح لا رسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى فهو لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه إليهم أمر ولا نهى ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً لكونهم مخلوقين من غير

ما خلق منه غيرهم .

و في معنى الجملة أقوال آخر :

فقيل : المراد أم أحدثوا وقد روا هذا التقدير البديع من غير مقدر و خالق فلا

حاجة لهم إلى خالق يدبر أمرهم ؟

و قيل : المراد أم خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات .

و قيل : المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون .

و قيل : المعنى أم خلقوا باطلا لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون .

وما قدّمناه من المعنى أقرب إلى لفظ الآية و أشمل .

وقوله : « أم هم الخالقون » أي لا أنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يرّبهم

و يدبر أمرهم بالأمر والنهي .

قوله تعالى : « أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون » أي أم أخلقوا العالم

حتى يكونوا أربابا آلهة ويحلّوا من أن يستعبدوا ويكلفوا بتكليف العبوديّة بل هم قوم

لا يوقنون .

قوله تعالى : « أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون » أي بل عندهم

خزائن ربك حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ويمسكوها عمن شاءوا فيمنعوك النبوة والرسالة .

وقوله : أم هم المصيطرون « السيطرة - وربما يقلب سينها صاداً - الغلبة والقهر

والمعنى بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من

النبوة والرسالة .

قوله تعالى : « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسطان مبين ، السلم

المراقبة ذات الدرج التي يتوسل بالصعود فيه إلى الأمكنة العالية ، والاستماع مضمّن

معنى الصعود ، والسلطان الحجّة والبرهان .

والمعنى بل عندهم سلم يصعدون فيه إلى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي

فيأخذون ما يوحى إليهم ويردّون غيره ؟ فليأت مستمعهم أي المدّعي للاستماع منهم

بحجة ظاهرة .

قوله تعالى : « أم له البنات ولكم البنون » قيل: فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا إليه تعالى ما أنفوا منه .

قوله تعالى : « أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » قال الراغب : الغرم - بالضم " فالسكون - ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جنابة منه أو خيانة انتهى والاثقال يقال تحمیل الثقل وهو كناية عن المشقة .

والمعنى بل أسألهم أجراً على تبليغ رسالتك فهم يتحرّجون عن تحميل الغرم الذي ينوبهم بتأدية الأجر ؟

قوله تعالى : « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب والمعنى بل أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه و يخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه .

وقيل : المراد بالغيب علم الغيب ، و بالكتابة الإثبات والمعنى بل أعندهم علم الغيب يشبتون ما علموه شرعاً للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا ، وقيل : يكتبون بمعنى يحكمون .

قوله تعالى : « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب ، و في المجمع : الكيد هو المكر ، وقيل : هو فعل ما يوجب الغيظ في خفية . انتهى .

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي ﷺ بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقول ليعرض عنه الناس و يبتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته و ينطفئ نوره ، و هذا كيد منهم و مكر بأنفسهم حيث يحرّمون لها السعادة الخالدة والركوب على صراط الحق . بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم والطبع على قلوبهم . وقيل : المراد بالكيد الذي يريدونه هو ما كان منهم في حقّه ﷺ في دار الندوة و المراد بالذين كفروا المذكورون من المكذّبين و هم أصحاب دار الندوة ، وقد قلب الله كيدهم إلى أنفسهم فقتلهم يوم بدر ، والكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السورة قبل ذلك بكثير ، و هو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون » فإنهم إذا كان لهم إله غير الله كان هو الخالق لهم والمدير لأمرهم فاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة رسوله و نصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعده به المكذبين و أُنذَرهم به رسوله .
و قوله : « سبحانه الله عما يشركون » تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدعون ، و ما في قوله : « عما يشركون » مصدرية أي سبحانه عن شركهم .

قوله تعالى : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم » الكسف بالكسر فالسكون القطعة ، والمركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض .

والمعنى أن كفرهم و إصرارهم على تكذيب الدعوة الحقّة بلغ إلى حيث لو رأوا قطعة من السماء ساقطاً عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آية العذاب في شيء فهو كقوله « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا » الحجر : ١٥ .





فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٣٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٣٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٣٩) .

﴿بيانات﴾

الآيات تختم السورة وتأمّر النبي ﷺ أن يترك أولئك المكذّبين وشأنهم ولا يتعرض لحالهم ، وأن يصبر لحكم ربه ويسبّح بحمده ، وفي خلالها مع ذلك تكرار إيعادهم بما أوعدهم به في أول السورة من عذاب واقع ليس له من دافع ، و تضيف إليه الإيعاد بعذاب آخر دون ذلك للذين ظلموا .

قوله تعالى : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون » « ذرهم » أمر بمعنى اتركهم وهو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل والأمر ، و « يصعقون » من الإصعاق بمعنى الإماتة وقيل : من الصعق بمعنى الإماتة .

لما أُنذر سبحانه المكذّبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم ردّ جميع ما تعلّل به أو يفرض أن يتعلّل به أولئك المكذّبون ، وذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحقّ أو لوه و ردّوه ، أمر نبيّه ﷺ أن يتركهم وشأنهم ، وهو تهديد كنائي بشمول العذاب لهم وحالهم هذه الحال .

والمراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات

والأرض وهو من أشراط الساعة قال تعالى : « و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الأرض » الزمر : ٦٨ .

و يؤيد هذا المعنى قوله في الآية التالية : « يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » فإن انتفاء إغناء الكيد والنصر من خواص يوم القيامة الذي يسقط فيه عامة الأسباب والأمر يومئذ لله .

و استشكل بأنه لا يصعق يوم النفخ إلا من كان حياً و هؤلاء ليسوا بأحياء يومئذ والجواب أنه يصعق فيه جميع من في الدنيا من الأحياء و من في البرزخ من الأموات و هؤلاء إن لم يكونوا في الدنيا ففي البرزخ .

على أنه يمكن أن يكون ضمير « يصعقون » راجعاً إلى الأحياء يومئذ، والتهديد إنما هو بالعذاب الواقع في هذا اليوم لا بالصعقة التي فيه .

وقيل : المراد به يوم بدر و هو بعيد ، وقيل : المراد به يوم الموت ، وفيه أنه لا يلائم السياق الظاهر في التهديد بما وقع في أول السورة و هو عذاب يوم القيامة لا عذاب يوم الموت .

قوله تعالى : « و إن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون » لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر ، وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصر على كفره و تكذيبه عناداً وقيل : المراد به يوم بدر لكن ذيل الآية لا يلائمه تلك الملازمة .

قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » عطف على قوله : « فذرهم » و ظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى في المكذبين بالإمهال والإيماء والطبع على قلوبهم ، وفي النبي ﷺ أن يدعو إلى الحق بما فيه من الأذى في جنب الله فالمراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك بمرئى منّا نراك بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا تغفل عنك ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر و تشديد للخطاب . وقيل : المراد بقوله : « فإنك بأعيننا » أنك في حفظنا و حراستنا فالعين مجاز عن الحفظ ، و لعل المعنى المتقدم أنسب للسياق .

قوله تعالى : « و سُبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَ مِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ »
 الباء في « بحمد » للمصاحبة أي سُبِّحْ رَبِّكَ وَ نَزَّهْهُ حَالُكَوْنِهِ مَقَارِنَا لِحَمْدِهِ .
 والمراد بقوله : « حِينَ تَقُومُ » قيل هو القيام من النوم ، وقيل : هو القيام من
 القائلة ، فهو صلاة الظهر ، وقيل هو القيام من المجلس ، وقيل : هو كل قيام ، وقيل :
 هو القيام إلى الفريضة وقيل : هو القيام إلى كل صلاة ، وقيل : هو الركعتان قبل فريضة
 الصبح سبعة أقوال كما ذكره الطبرسي .
 وقوله : « وَ مِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أي من الليل فسُبِّحْ رَبِّكَ فِيهِ ، والمراد به صلاة
 الليل ، وقيل : المراد صلاتا المغرب والعشاء الآخرة .
 وقوله : « وَ إِدْبَارَ النُّجُومِ » قيل : المراد به وقت إدبار النجوم وهو اختفاؤها
 بضوء الصبح ، وهو الركعتان قبل فريضة الصبح ، وقيل : المراد فريضة الصبح ، وقيل :
 المراد تسبيحه تعالى صباحاً ومساءً من غير غفلة عن ذكره .

﴿ بَحْثُ رَوَائِي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وَ سُبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » قال : لصلاة
 الليل « فسبِّحه » قال : صلاة الليل .
اقول : و روى هذا المعنى في مجمع البيان عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن
 أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام .
 وفيه بإسناده عن الرضا عليه السلام قال : ادبار السجود أربع ركعات بعد المغرب و
 إدبار النجوم ركعتان قبل صلاة الصبح .
اقول : و روى ذيله في المجمع عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام ، والقمي بإسناده
 عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام .
 وقد ورد من طرق أهل السنة في عدة من الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا
 قام من مجلسه سبِّح الله وحمده ويقول : إنه كفارة المجلس لكتبتها غير ظاهرة في كونها
 تفسيراً للآية .

﴿سورة النجم مكيّة وهى اثنان وستون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ
 مَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
 عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧)
 ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ
 مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)
 وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ
 الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)
 لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) .

﴿بيان﴾

غرض السورة تذكير الأصول الثلاثة وحدانيته تعالى في ربوبيته والمعاد والنبوة
 فتبدء بالنبوة فتصدق الوحي إلى النبي ﷺ و تصفه ثم تتعرض للوحدانية فتنفى
 الأوثان والشركاء أبلغ النفي ثم تصف انتهاء الخلق والتدبير إليه تعالى من إحياء وإماتة
 وإضحاك وإبكاء وإغناء وإفناء وإهلاك وتعذيب ودعوة وإنذار ، و تختتم الكلام
 بالإشارة إلى المعاد والأمر بالسجدة والعبادة .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها ولا يصغى إلى قول بعضهم بكون بعض آياتها
 أو كلها مدنيّة ، وقد قيل : إنها أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها فقرأها على
 المؤمنين والمشركين جميعا .

وما أوردناه من الآيات هي الفصل الأول من فصول السورة الثلاثة وهي الآيات اللاتي تصدق الوحي إلى النبي ﷺ وتصفه لكن هناك روايات مستفيضة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ناصّة على أن المراد بالآيات ليس بيان صفة كل وحي بل بيان وحي المشافهة الذي أوحاه الله سبحانه إلى نبيه ﷺ ليلة المعراج فالآيات متضمنة لقصة المعراج و ظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات وهو المستفاد أيضاً من أقوال بعض الصحابة كابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهم على ما روي عنهم وعلى ذلك جرى كلام المفسرين وإن اشدّ الخلاف بينهم في تفسير مفرداتها وجمليها .

قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » ظاهر الآية أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوي المضيء وقد أقسم الله في كتابه بكثير من خلقه ومنها عدة من الأجرام السماوية كالشمس والقمر وسائر السيارات ، وعلى هذا فالمراد بهوي النجم سقوطه للغروب .
وقيل : المراد بالنجم القرآن لنزوله نجوماً ، وقيل : الثريا ، وقيل : الشعري وقيل : الشهاب الذي يرمى به شياطين الجن لأن العرب تسميه نجماً ، وللهوي ما يناسب لكل من هذه الأقوال من المعنى ، لكن لفظ الآية لا يساعد على شيء من هذه المعاني .

قوله تعالى : « ما ضل صاحبكم وما غوى » الضلال الخروج والانحراف عن الصراط المستقيم ، والغى خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع قال الراغب الغي جهل من اعتقاد فاسد ، وذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً ، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد ، وهذا النحو الثاني يقال له غى قال تعالى : « ما ضل صاحبكم وما غوى » . انتهى ، والمراد بالصاحب هو النبي ﷺ .
والمعنى ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة ولا أخطأ في اعتقاده ورأيه فيها ، ويرجع المعنى إلى أنه لم يخطئ لا في الغاية المطلوبة التي هي السعادة الإنسانية وهو عبوديته تعالى ، ولا في طريقها التي تنتهي إليها .

قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » المراد بالهوى هوى النفس ورأيها ، والنطق وإن كان مطلقاً ورد عليه النفي وكان مقتضاه نفي الهوى عن

مطلق نطقه ﷺ لكنه لما كان خطاباً للمشركين وهم يرمونه في دعوته و ما يتلوه عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقرينة المقام أنه ﷺ ما ينطق فيما يدعوكم إلى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه ورأيه بل ليس ذلك إلا وحياً يوحى إليه من الله سبحانه .

قوله تعالى : « علمه شديد القوى » : ضمير « علمه » للنبي ﷺ أول القرآن بما هو وحي أو لمطلق الوحي والمفعول الآخر لعلمه محذوف على أي حال والتقدير علم النبي ﷺ الوحي أو علم القرآن أو الوحي إياه .

والمراد بشديد القوى - على ما قالوا - جبريل وقد وصفه الله بالقوة في قوله : « ذي قوة عند ذي العرش مكين » التكوير : ٢٠ ، وقيل : المراد به هو الله سبحانه .
قوله تعالى : « ذو مرة فاستوى » المرة بكسر الميم الشدة ، وحصافة العقل والرأي ، وبناء نوع من المرور وقد فسرت المرة في الآية بكل من المعاني الثلاثة مع القول بأن المراد بذى مرة جبريل ، والمعنى هو أي جبريل ذو شدة في جنب الله أوهو ذو حصافة في عقله ورأيه ، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي ﷺ وهو في الهواء .
وقيل : المراد بذومرة النبي ﷺ فهو ذو شدة في جنب الله أوهو ذو حصافة في عقله ورأيه أوهو ذو نوع من المرور عرج فيه إلى السماوات .

و قوله : « فاستوى » بمعنى استقام أو استولى و ضمير الفاعل راجع إلى جبريل والمعنى فاستقام جبريل على صورته الأصلية التي خلق عليها على ما روي أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ في صور مختلفة ، وإنما ظهر له في صورته الأصلية مرتين أو المعنى فاستولى جبريل بقوته على ما جعل له من الأمر .
و إن كان الضمير للنبي ﷺ فالمعنى فاستقام واستقر .

قوله تعالى : « وهو بالأفق الأعلى » الأفق الناحية قيل : المراد بالأفق الأعلى ناحية الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وهو كما ترى والظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقاً شرقياً .

و ضمير هوفي الآية راجع إلى جبريل أو إلى النبي ﷺ ، والجمله حال من ضمير « استوى » .

قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى » الدنو: القرب ، والتدلى: التعلق بالشئ ويكنى به عن شدة القرب ، وقيل : الامتداد إلى جهة السفلى مأخوذ من الدلو .

والمعنى على تقدير رجوع الضميرين لجبريل : ثم قرب جبريل فتعلق بالنبي ﷺ صلى الله عليه وآله ليخرج به إلى السماوات ، وقيل : ثم تدلى جبريل من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ ليخرج به .

والمعنى على تقدير رجوع الضميرين إلى النبي ﷺ : ثم قرب النبي ﷺ من الله سبحانه وزاد في القرب .

قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » قال في المجمع : القاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشئ انتهى ، والقوس معروفة وهي آلة الرمي ، ويقال قوس على الذراع في لغة أهل الحجاز على ما قيل .

والمعنى فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك .

وقيل : القاب ما بين مقبض القوس وسيتها ففي الكلام قلب والمعنى فكان قايي قوس ، واعترض عليه بأن قايي قوس وقاب قوسين واحد فلا موجب للقلب .

قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ضمير أوحى في الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى جبريل ، والمعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله وهو النبي ﷺ ما أوحى ، قيل : ولا ضمير في رجوع الضمير إليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه في غاية الوضوح . أو الضمائر الثلاث لله والمعنى فأوحى الله بتوسط جبريل إلى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل والثاني والثالث لله والمعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله إليه إلى عبد الله .

والضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقة إلى النبي ﷺ والمعنى فأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وهذا المعنى أقرب إلى الذهن من المعنى السابق الذي لا يرضيه الذوق السليم وإن كان صحيحا .

قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » الكذب خلاف الصدق يقال : كذب فلان في حديثه ، ويقال : كذبه الحديث بالتعدي إلى مفعولين أي حدثه كذباً ، والكذب كما يطلق على القول والحديث الذي يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطأ القوة المدركة يقال : كذبه عينه أي أخطأت في رؤيتها .

ونفي الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازماً والتقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعدياً إلى مفعولين ، والتقدير ما كذب الفؤاد - فؤاد النبي - النبي ما رآه أي إن رؤية فؤاده فيما رآه رؤية صادقة .
وعلى هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبي ﷺ ، وضمير الفاعل في « ما رأى » راجع إلى الفؤاد والرؤية رؤيته .

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإن للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بالحواس الظاهرة والتخيل والتفكير بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه مشاهدة العينية إحصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر ، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو شيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدركاتها وليس هذه مشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المطبوع عنها بالفؤاد .

وليس في الآية ما يدل على أن متعلق الرؤية هو الله سبحانه وأنه المرئي له ﷻ بل المرئي هو الأفق الأعلى والدنو والتدلي وأنه أوحى إليه فهذه هي المذكورة في الآيات السابقة وهي آيات له تعالى ، ويؤيد ذلك ما ذكره تعالى في النزلة الأخرى من قوله : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

على أنها لو دلت على تعلق الرؤية به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤية القلب ورؤية القلب غير رؤية البصر الحسية التي تتعلق بالأجسام ويستحيل تعلقها به تعالى وقد قد منا كلاماً في رؤية القلب في تفسير سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

وما قيل : إن ضمير «مارآى» للنبي ﷺ والمعنى ما قال فؤاده ﷺ لما رآه يبصره لم أعرفك ولوقال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه يبصره ، ومحصله أن فؤاده صدق بصره فيما رآه .

وكذا ما قيل : إن المعنى أن فؤاده لم يكذب بصره فيما رآه بل صدقه واعتقد به ، ويؤيده قراءة من قرء « ما كذب » بتشديد الذال .

ففيه أن الذي يعطيه سياق الآيات تأييده تعالى صدق النبي ﷺ فيما يدعيه من الوحي ورؤية آيات الله الكبرى ، ولو كان ضمير «مارآى» للنبي ﷺ كان محصل معنى الآية الاحتجاج على صدق رؤيته باعتقاده ذلك بفؤاده وهو بعيد من دأب القرآن وهذا بخلاف ما لو رجع ضمير «مارآى» إلى الفؤاد فإن محصل معناه تصديقه تعالى لفؤاده فيما رآه ويجري الكلام على السياق السابق الآخذ من قوله : « ماضل صاحبكم وما غوى إن هو إلا وحي يوحى » النح .

فان قلت : إنه تعالى يحتج في الآية التالية « أفتمارونه على ما يرى » برؤيته صلى الله عليه وآله على صدقه فيما يدعيه فليكن مثله الاحتجاج باعتقاد فؤاده بما يراه بعينه .

قلت : ليس قوله : « أفتمارونه على ما يرى » مسوقاً للاحتجاج برؤيته على صدقه بل توبيخ على مماراتهم إياه ﷺ على أمر يراه ويبصره ومجادلتهم إياه فيه ، والممارسة والمجادلة إنما تصح - لوصحت - في الآراء النظرية والاعتقادات الفكرية وأما فيما يرى ويشاهد عياناً فلا معنى للممارسة والمجادلة فيه ، وهو عليه السلام إنما كان يخبرهم بما يشاهده عياناً لا عن فكر وتعقل .

قوله تعالى : « أفتمارونه على ما يرى » الاستفهام للتوبيخ والخطاب للمشركين والضمير للنبي ﷺ ، والممارسة الإصرار على المجادلة ، والمعنى أقصرّون في جدالكم على النبي ﷺ أن يدعن بخلاف ما يدعيه ويخبركم به وهو يشاهد ذلك عياناً .

قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى » النزلة بناء مرة من النزول فمعناه

نزول واحد ، وتدل الآية على أن هذه قصة رؤية في نزول آخر والآيات السابقة نقص نزولا آخر غيره .

وقد قالوا : إن ضمير الفاعل المستكن في قوله « رآه » للنبي ﷺ ، وضمير المفعول لجبريل ، وعلى هذا فالنزلة نزول جبريل عليه ﷺ ليخرج به إلى السماوات وقوله : « عند سدرة المنتهى » ظرف للرؤية لا للنزلة ، والمراد برؤيته رؤيته و هو في صورته الأصلية .

والمعنى أنه نزل عليه ﷺ نزلة أخرى وخرج به إلى السماوات وتراى له صلى الله عليه وآله عليه و آله عند سدرة المنتهى و هو في صورته الأصلية .

وقد ظهر مما تقدم صحة إرجاع ضمير المفعول إليه تعالى والمراد بالرؤية رؤية القلب والمراد بنزلة أخرى نزلة النبي ﷺ عند سدرة المنتهى في عروجه إلى السماوات فالمراد أنه ﷺ نزل نزلة أخرى أثناء معراجة عند سدرة المنتهى فرآه بقلبه كما رآه في النزلة الأولى .

قوله تعالى : « عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى » السدر شجر معروف والتاء للوحدة ، والمنتهى - كأنه - اسم مكان و لعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها والجنة في السماء قال تعالى : وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ .

ولا يوجد في كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجرة ، وكان البناء على الإبهام كما يؤيده قوله بعد : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » وقد فسر في الروايات أيضا بأنها شجرة فوق السماء السابعة إليها تنتهي أعمال بني آدم و ستمر ببعض هذه الروايات .

وقوله : « عندها جنة المأوى » أي الجنة التي يأوى إليها المؤمنون وهي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجلة محدودة بالبعث قال تعالى : « فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون » السجدة ١٩ ، وقوله : « فإذا جاءت الطامة الكبرى - إلى أن قال - فإن الجنة هي المأوى » النازعات : ٤١ وهي في السماء على ما يدل

عليه قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » الذاريات : ٢٢ ، وقيل : المراد بها جنة البرزخ .

وقوله : « إن يغشى السدرة ما يغشى » غشيان الشيء الإحاطة به ، و « ما » « موصولة » والمعنى إن يحيط بالسدرة ما يحيط بها ، وقد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدرة ولم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : « مازاغ البصر وما طغى » الزينج الميل عن الاستقامة ، والطغيان تجاوز الحد في العمل ، وزينج البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه ، و طغيانه إدراكه ما لا حقيقة له ، والمراد بالبصر بصر النبي ﷺ .

والمعنى أنه ﷺ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقية ولا أبصر ما لا حقيقة له بل أبصر غير خاطيء في إبصاره .

والمراد بالإبصار رؤيته ﷺ بقلبه لا بجارحة العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله : « ولقد رآه نزلة أخرى » المشير إلى مماثلة هذه الرؤية لرؤية النزلة الأولى التي يشير إليها بقوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى » فافهم ولا تغفل .

قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » « من » للتبعيض ، والمعنى أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه ، وبذلك تم مشاهدة ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهدة آياته بما هي آياته فإن الآية بما هي آية لا تحكي إلا إذا الآية ولا تحكي عن نفسه شيئاً وإلا لم تكن من تلك الجهة آية .

وأما مشاهدة ذاته المتعالية من غير توسط آية وتخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى : « ولا يحيطون به علماً » طه : ١١٠ .



﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى: « والنجم إذا هوى » قال : النجم رسول الله ﷺ « إذا هوى » لما أسري به إلى السماء وهو في الهوى .

اقول : و روى تسميته ﷺ بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام ، وهو من البطن .

وفي الكافي عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن مسلم قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : قول الله عز وجل : « والليل إذا يغشى » « والنجم إذا هوى » وما أشبه ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به .

اقول : وفي الفقيه عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني مثله .

وفي المجمع و روت العامة عن جعفر الصادق أنه قال : إن محمداً ﷺ نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء إلى النبي ﷺ وطلق ابنته وتفل في وجهه وقال : كفرت بالنجم ورب النجم فدعا صلى الله عليه وآله عليه وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .

فخرج عتبة إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أئيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد فاقتصره من بين الناس .

اقول : ثم أورد الطبرسي " شعر حسان في ذلك ، و روى في الدر المنثور القصة بطرق مختلفة .

وفي الكافي بإسناده إلى هشام و حماد وغيره قالوا : سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ وحديث رسول الله ﷺ قول الله عز وجل .

وفي تفسير القمي^١ بإسناده إلى ابن سنان في حديث : قال أبو عبد الله عليه السلام :
وذلك أنه يعني النبي صلى الله عليه وآله أقرب الخلق إلى الله تعالى و كان بالمكان الذي قال له
جبرئيل لما أُسري به إلى السماء : تقدّم يا محمد فقد وطأت موطئا لم يطأه ملك مقرب
ولا نبي مرسل ، ولو لا أن روحه و نفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه ، وكان
من الله عز وجل كما قال الله عز وجل : « قاب قوسين أو أدنى » أي بل أدنى .

وفي الاحتجاج عن علي بن الحسين عليهما السلام في حديث طويل : أنا ابن من علا
فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى .

اقول : وقد ورد هذا المعنى في كثير من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال :
لما أُسري بالنبي صلى الله عليه وآله اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى . قال : ألم تر إلى
القوس ما أقربها من الوتر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم والطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله :
« ثم دنا فتدلى » قال : هو محمد صلى الله عليه وآله دنا فتدلى إلى ربه عز وجل .

وفي المجمع و روي مرفوعاً عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : « فكان
قاب قوسين أو أدنى » قال : قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين .

وفي تفسير القمي^١ في قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » قال : وحي
مشافهة .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى
رسول الله صلى الله عليه وآله ربه عز وجل ؟ فقال : نعم بقلبه رآه أما سمعت الله عز وجل يقول :
« ما كذب الفؤاد ما رأى » لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن محمد بن
كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله قال : يا رسول الله
هل رأيت ربك ؟ قال : لم أره بعيني و رأيته بفؤادي مرتين ثم تلا « ثم دنا فتدلى » .

اقول : و روى هذا المعنى النسائي عن أبي ذر - على ما في الدر المنثور - و لفظه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه ولم يره ببصره .
و عن صحيح مسلم والترمذي و ابن مردويه عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : نوراني أراه .
اقول : « نوراني » منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسماني في النسبة إلى جسم ، و قرئ « نور إنني أراه » بتموين الراء و كسر الهزمة و تشديد النون ثم ياء المتكلم ، والظاهر أنه تصحيف و إن أُبْدِ برواية أخرى عن مسلم في صحيحه و ابن مردويه عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نورا . و كيف كان فالمراد بالرؤية رؤية القلب فلا الرؤية رؤية حسية ولا النور نور حسي .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قرّة المحدث أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام . إلى قوله : قال أبو قرّة : فإنه يقول : « ولقد رآه نزلة أخرى » فقال أبو الحسن عليه السلام : إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال : « ما كذب الفؤاد ما رأى » يقول : ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، و آيات الله غير الله .

اقول : الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبي قرّة حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسية فالزعم بأن الرؤية إنما تعلقت بالآيات وآيات الله غير الله ولا ينافي ذلك كون رؤيه الآيات بما هي آياته رؤيته و إن كانت آياته غيره ، و هذه الرؤية إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى .

و في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال النبي ﷺ : انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فلمّا غشيها من أمر الله ما غشيها تحوّلت ياقوتاً وزهر دأ و نحو ذلك .

و في تفسير القميّ بإسناده إلى إسماعيل الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل : فلمّا انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله ﷺ : في هذا الموضع نخذلني ؟ فقال : تقدّم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربّي و حال بيني و بينه السبحة .

قلت : و ما السبحة جعلت فداك ؟ فأومى بوجهه إلى الأرض و أومأ بيده إلى السماء و هو يقول : جلال ربّي جلال ربّي ثلاث مرّات .

اقول : السبحة الجلال كما فسّر في الرواية والسبحة ما يدلّ على تنزّهه تعالى من خلقه و مرجعه إلى المعنى الأوّل و محصل ذيل الرواية أنّه ﷺ رأى ربّه برؤية آياته .

و فيد في قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » قال : في السماء السابعة .

و فيه في قوله تعالى : « إن يغشى السدرة ما يغشى » قال : لما رفع الحجاب بينه و بين رسول الله ﷺ غشي نور السدرة .

اقول : و في المعاني السابقة روايات أخرى و قد تقدّم في أوّل تفسير سورة الإسراء روايات جامعة لقصة معراج ﷺ .

و قد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراج ﷺ أنّه كان في المنام أو في اليقظة و على الثاني بجسمه و روحه معاً أو بروحه فحسب ، و نقلنا عن صاحب المناقب أنّ الإماميّة ترى أنّ إسراعه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح و الجسم معاً على ما تدلّ عليه آية الإسراء ، و أما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح و الجسم معاً أيضاً و وافقهم كثير من الشيعة و مال بعضهم إلى كونه بالروح و مال إليه بعض المتأخّرين .

ولا ضير في القول به لو أيّدت القرائن الحافّة بالآيات والروايات غير أنّ من

الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى : « عندها جنة المأوى » على جنة البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، أو توجه الآية بما لا ينافي كون العروج في السماوات روحياً .
وأما كون الإسراء في المنام فقد تقدم في تفسير آية الإسراء أنه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

و أما تطبيق الإسراء إلى السماوات على تسييره ﷺ ليلاً في الكواكب الأخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسية أو في منظومات أخرى غير منظومتنا أو في مجرات أخرى غير مجرتنا فمما لا يلائمه الأخبار الواردة في تفصيل القصة البتة بل ولا محصل مضامين الآيات المتقدمة .





أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) .

﴿بيان﴾

شطر من آيات الفصل الثاني من الفصول الثلاثة في السورة تتعرض لأمر الأوثان و عبادتها بدعوى أنها ستشفع لهم والرد عليهم أبلغ الرد ، وفيها إشارة إلى أمر المعاد و هو مقصد الفصل الثالث .

قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى و مناة الثالثة الأخرى ، لما سجلت في الآيات السابقة صدق النبي ﷺ وأنه وحي يوحى إليه وترتب عليه حقيقة النبوة المبنية على التوحيد و نفي الشركاء ، فرع عليه الكلام في الأوثان : اللات والعزى ومناة وهي عند المشركين تماثيل للملائكة بدعوى أنهم إناث أو بعضها للملائكة وبعضها للإنسان كما قاله بعضهم ونفى ربوبيتها وألوهيتها واستقلال الملائكة الذين هم أرباب الأصنام في الشفاعة و أنوثيتهم وأشار إلى حقائق أخرى تنتج المعاد وجزاء الأعمال . واللات والعزى ومناة أصنام ثلاث كانت معبودة لعرب الجاهلية ، وقد اختلفوا في وصف صورها ، وفي موضعها الذي كانت منصوبة عليه ، وفي من يعبدونها من العرب ، وفي الأسباب التي أوجبت عبادتهم لها ، وهي أقوال متدافعة لا سبيل إلى الاعتماد على شيء منها ، والمتيقن منها ما أوردناه .

والمعنى إذا كان الأمر على ما ذكرناه من حقيقة الدعوة و صدق النبي ﷺ في دعوى الوحي والرسالة من عند الله سبحانه فأخبروني عن اللات والعزى و مناة التي هي نائلة الصنمين وغيرهما - وهي التي تدعون أنها أصنام الملائكة الذين هم بنات الله على زعمكم - .

قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى » استفهام إنكاري مشوب بالاستهزاء ، و قسمة ضيزى أي جائزة غير عادلة .

والمعنى إذا كان كذلك و كانت أرباب هذه الأصنام من الملائكة بنات الله ، وأنتم لا ترضون لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر والله سبحانه الأنثى من الأولاد تلك القسمة إذا قسمة جائزة غير عادلة - استهزاء - .

قوله تعالى : «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان الخ ضمير هي اللات والعزى ومناة أولها بما هي أصنام ، وضمير « سميتموها » للأسماء و تسمية الأسماء جعلها أسماء ، والمراد بالسلطان البرهان .

والمعنى ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم وآباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق و مسميات ما أنزل الله معها برهاناً يستدل به على ربوبيتها وألوهيتها .

و محصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على الألوهية آلهتهم .

و قوله : « إن يتبعون إلا الظن و ما تهوى الأنفس » ، « ما » موصولة والضمير العائد إليها محذوف أي الذي تهواه النفس ، وقيل : مصدرية والتقدير هوى النفس و الهوى الميل الشهواني للنفس و الجملة مسوقة لذمهم في اتباع الباطل و تأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك .

و يؤكد قوله : « و لقد جاءهم من ربهم الهدى » والجملة حالية .

والمعنى إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن و ما يميل إليه أنفسهم شهوة يتبعون ذلك والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى و هي الدعوة الحقّة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق .

والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أخطأ فهماً من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى .

قوله تعالى : «أم للإنسان ما تمنى» «أم» منقطعة والاستفهام إنكاري ، والكلام مسوق لنفي أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أي ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعة الملائكة الذين هم أرباب أصنامهم و بنات لله بزعمهم أو يملكون الألوهية آلهتهم بمجرد التمني .

و في الكلام تلويح إلى أنهم ليس لهم للدلالة على صحة الألوهية آلهتهم أو -

شفاعتهم إلا التمنى ، ولا يملك شيء بالتمنى .

قوله تعالى : « فلكه الآخرة والأولى » تفريعه على سابقه من تفريع العلة للمعول للدلالة على التعلق والارتباط فيه تعليل للجملة السابقة ، والمعنى ليس يملك إلا إنسان ما تمنّاه بمجرد التمنى لأن الآخرة والأولى لله سبحانه ولا شريك له في ملكه .

قوله تعالى : « وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » الفرق بين الإذن والرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن ، والرضا ملازمة نفس الراضى للشيء وعدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشيء مع عدم الرضا ولا يتحقق رضا إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوة .

والآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم إليه عبدة الأصنام فإن الأمر مطلقاً إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى في الشفاعة ورضاه بها .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « لمن يشاء » الملائكة ومعنى الآية وكثير من الملائكة في السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثراً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أي من الملائكة ويرضى بشفاعته .

وقيل : المراد بمن يشاء ويرضى الإنسان والمعنى إلا من بعد أن يأذن الله في شفاعة من يشاء أن يشفع له من الإنسان ويرضى وكيف يأذن ويرضى بشفاعة من كفر به وعبد غيره ؟

والآية تثبت الشفاعة للملائكة في الجملة : وتقيّد شفاعتهم بالإذن والرضا من الله سبحانه .

قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » ردّ لقولهم بأنوثية الملائكة بعد ردّ قولهم بشفاعتهم .

والمراد بتسميتهم الملائكة تسمية الأنثى قولهم : « إن الملائكة بنات الله فالمراد بالأنثى الجنس أعم من الواحد والكثير .

وقيل : « إن الملائكة في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمّون كلّ كل واحد من الملائكة تسمية الأُنثى أي يسمّونه بنتا فالكلام على وزان «كسانا الأمير حلّة» أي كسا كل واحد منّا حلّة .

قال بعضهم : في تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنّها في الشناعة والفضاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً . انتهى .

قوله تعالى : « و ما لهم به من علم إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظنَّ و إن الظنَّ لا يغني من الحقَّ شيئاً » العلم هو التصديق المانع من النقيض ، والظنّ هو التصديق الراجح و يسمّى المرجوح وهما ، و قولهم بأنّ نويّة الملائكة كما لم يكن معلوماً لهم كذلك لم يكن مظنوناً إن لا سبيل إلى ترجيح القول به على خلافه لكنّه لما كان عن هوى أنفسهم أثبتّه الهوى في أنفسهم و زينّه لهم فلم يلتفتوا إلى خلافه ، و كلّما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه و تعلقوا بما يهوونه ، و بهذه العناية سمّي ظنّاً و هو في الحقيقة تصوّر فقط .

و بهذا يظهر استقامة قول من قال : « إن الظنّ في هذه الآية و في قوله السابق : « إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظنَّ » و ما نهى الأُنفس » بمعنى التوهّم دون الاعتقاد الراجح و أيّد بما يظهر من كلام الراغب : « إن الظنّ ربّما يطلق على التوهّم .

وقوله : « إن الظنّ لا يغني من الحقَّ شيئاً » الحقّ ما هو عليه الشيء و ظاهر أنّه لا يدرك إلاّ بالعلم الذي هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير و أمّا غير العلم ممّا فيه احتمال الخلاف فلا يتعيّن فيه المدرك على ما هو عليه في الواقع فلا مجوز لأن يعتمد عليه في الحقائق قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٦ .

و أمّا العمل بالظنّ في الأحكام العمليّة فإنّما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآية ، و تبقى الأمور الاعتقاديّة تحت إطلاق الآية .

قال بعضهم : وضع الظاهر موضع المضمر في قوله : « إن الظنّ لا يغني » ليجري

الكلام مجرى المثل .

قوله تعالى : « فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا » تفريع على اتباعهم الظنّ و هوى الأنفس فقوله : « فأعرض عمن » الخ أمر بالإعراض عنهم وإتّما لم يقل : فأعرض عنهم ، ووضع قوله : « من تولّى عن ذكرنا » الخ موضع الضمير للدلالة على علّة الأمر بالإعراض كأنّه قيل : إنّ هؤلاء يتركون العلم ويتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس وإتّما فعلوا ذلك لأنّهم تولّوا عن الذكر وأرادوا الحياة الدنيا فلا هم لهم إلّا الدنيا فهى مبلغهم من العلم ، وإذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنّهم في ضلال .

والمراد بالذكر إمّا القرآن الذى يهدي متبّعيه إلى الحقّ الصريح ويرشدهم إلى سعادة الدار الآخرة التى وراء الدنيا بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة التى لا تبقى معها وصمة شكّ .

وإمّا ذكر الله بالمعنى المقابل للغفلة فإنّ ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالية من الأسماء والصفات يهدي إلى سائر الحقائق العلمية في المبدء والمعاد هداية علميّة لا ريب معها .

قوله تعالى : « ذلك مبلغهم من العلم إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » الإشارة بذلك إلى أمر الدنيا وهو معلوم من الآية السابقة وكونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعارة كأنّ العلم يسير إلى المعلوم وينتهى إليه . وعلمهم انتهى في مسيره إلى الدنيا وبلغها وقف عندها ولم يتجاوزها ، ولأزم ذلك أن تكون الدنيا متعلّق إرادتهم وطلبهم ، وموطن همّهم ، وغاية آمالهم لا يطمثون إلى غيرها ولا يقبلون إلّا عليها .

وقوله : « إنّ ربّك هو أعلم » الخ تأكيد لمضمون الجملة السابقة وشهادة منه تعالى عليه .

قوله تعالى : « ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » يمكن أن يكون صدر الآية حالا من فاعل

« أعلم ، في الآية السابقة والواو للحال والمعنى إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين والحال أنه يملك ما في السماوات وما في الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم وهو مالكهم .

وعلى هذا فالظاهر تعلق قوله : « ليجزي » النخ بقوله السابق : « فأعرض عمن تولّى » النخ والمعنى أعرض عنهم و كل أمرهم إلى الله ليجزيهم كذا و كذا و يجزيك و يجزي المحسنين كذا و كذا .

ويمكن أن يكون قوله : « والله ما في السماوات » النخ كلاماً مستأنفاً للدلالة على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم وتركهم سدى بل الله سبحانه يجزي كلّاً بعمله إن سيئاً وإن حسناً ، ووضع اسم الجلالة وهو ظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال العظمة .

وقوله : « لله ما في السماوات وما في الأرض » إشارة إلى ملكه تعالى للكل ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناش من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير فالجملة دالة على الخلق والتدبير كأنه قيل : والله الخلق والتدبير .

وبهذا المعنى يتعلق قوله : « ليجزي » النخ واللام للغاية ، والمعنى له الخلق والتدبير وغاية ذلك والغرض منه أن يجزي الذين أساءوا ، النخ والمراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شؤون يوم القيامة ، والمراد بالإساءة والإحسان المعصية والطاعة ، والمراد بما عملوا جزء ما عملوا أنفوس ما عملوا ، وبالحسنى المثوبة الحسنى .

والمعنى ليجزي الله الذين عصموا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم و يجزي الذين أطاعوا بالمثوبة الحسنى ، وقد أوردوا في الآية احتمالات أخرى وما قد مناه هو أظهرها .

قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّم إن ربك واسع المغفرة » النخ الإثم هو الذنب وأصله - كما ذكره الراغب - الفعل المبطيء عن

الثواب والخير ، و كبائر الإثم المعاصي الكبيرة و هو على ما في الرواية ^(١) ما أوعده الله عليه النار ، وقد تقدم البحث عنها في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكفر عنكم سيئاتكم » الآية النساء : ٣١ .

والفواحش الذنوب الشنيعة الفظيعة ، و قد عدّ تعالى في كلامه الزنا و اللواط من الفواحش ولا يبعد أن يستظهر من الآية اتّحادها مع الكبائر .

وأما اللّم فقد اختلفوا في معناه ف قيل : هو الصغيرة من المعاصي ، وعليه فلا استثناء منقطع ، و قيل : هو أن يلمّ بالمعصية و يقصدها ولا يفعل والاستثناء أيضاً منقطع وقيل : هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة أي المعصية على سبيل الاتفاق فيكون أعمّ من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتّقين المحسنين « والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مِنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » آل عمران : ١٣٥ .

و قد فسر في روايات أئمتّه أهل البيت عليهم السلام بثالث المعاني ^(٢) .

والآية تفسّر ما في الآية السابقة من قوله : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا » فهم الَّذِينَ يجتنبون كبائر الإثم والفواحش و من الجائز أن يقع منهم لم .

و في قوله : « إن ربك واسع المغفرة » تطمئعهم في التوبة رجاء المغفرة .

و قوله : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » قال الراغب : النشاء والنشأة إحداث الشيء و تربيته انتهى فأنشأهم من الأرض ما جرى عليهم في بدء خلقهم طوراً بعد طور من أخذهم من المواد العنصريّة إلى أن يتكوّنوا في صورة المني و يردوا الأرحام .

(١) رواها في ثواب الاعمال عن عباد بن كثير النوا عن ابي جعفر عليه السلام .

(٢) ففى اصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام : اللّم الرجل يلم بالذنب

فيستغفر الله منه ، و فيه باسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال : هو الذنب يلم به الرجل فيمكنه ما شاء الله ثم يلم به بعد ، و فيه باسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام قال : اللّم العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته اى من طبعه .

و قوله : « وإذ أنتم أجنته في بطون أمهاتكم ، الأجنة جمع جنين ، والكلام معطوف على « إذ » السابق أي وهو أعلم بكم إذ كنتم أجنته في أرحام أمهاتكم يعلم ما حقيقتكم و ما أنتم عليه من الحال و ما في سرركم و إلى ما يؤل أمركم .
و قوله : « فلا تزكوا أنفسكم » تفريع على العلم أي إذا كان الله أعلم من أول أمر فلا تزكوا أنفسكم بنسبتها إلى الطهارة هو أعلم بمن اتقى .





أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَاعْطَى قَلِيلًا وَاعْتَدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
أَلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَإِنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الْأَوْفَى (٤١) وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَإِنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣)
وَإِنَّهُ هُوَ آمَاتٌ وَاحِدٌ (٤٤) وَإِنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥)
مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَإِنَّ عَلَيْهِ النَّشَاطَةَ الْآخِرَىٰ (٤٧) وَإِنَّهُ هُوَ
أَعْنَىٰ وَاقِنَىٰ (٤٨) وَإِنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ (٤٩) وَإِنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا
الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ
أَظْلَمَ وَاطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّيْهَا مَا غَشَّى (٥٤)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَرَأَيْتَ
الْأَرْزَاقَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

﴿بيان﴾

سياق التسع آيات الواقعة في صدر هذا الفصل يصدق ما ورد في أسباب النزول أن رجلاً من المسلمين كان ينفق من ماله في سبيل الله فلامه بعض الناس على كثرة الإنفاق وحذره و خوفه بنفاد المال والفقر و ضمن حمل خطاياء و ذنوبه فأمسك عن الإنفاق فنزلت الآيات .

أشار سبحانه بالتعرض لهذه القصة ونقل ما نقل من صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام إلى بيان وجه الحق فيها ، وإلى ما هو الحق الصريح فيما تعرض له الفصل السابق من أباطيل المشركين من أنهم إنما يعبدون الأصنام لأنها تماثيل الملائكة الذين هم بنات الله يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه و قد أبطلتها الآيات السابقة أوضح الإبطال .

و قد أوضحت هذه الآيات ما هو وجه الحق في الربوبية والألوهية و هو أن الخلق والتدبير لله سبحانه ، إليه ينتهي كل ذلك ، و أنه خلق ما خلق و دبر ما دبر خلقاً و تدبيراً يستعقب نشأة أخرى فيها جزاء الكافر والمؤمن والمجرم والمتقي و من لوازمه تشريع الدين و توجيه التكليف و قد فعل ، و من شواهد إهلاك من أهلك من الأمم الدارجة الطاغية كقوم نوح و عاد و ثمود والمؤتفة .

ثم عقيب سبحانه هذا الذي نقله عن صحف النبيين الكريمين بالتنبيه على أن هذا النذير من النذر الأولى الخالية و أن الساعة قريبة ، و خاطبهم بالأمر بالسجود لله والعبادة ، و بذلك تختم السورة .

والسورة مكّية بشهادة سياق آياتها ، ومن غرر الآيات فيها قوله : « وإن إلى ربك المنتهى » و قوله : « و أن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

قوله تعالى : « أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى » التولي هو الإعراض والمراد به بقرينة الآية التالية الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله ، والإعطاء الإنفاق والإكداء قطع العطاء ، والتفريع الذي في قوله : « أفرأيت » مبني على ما قدّمنا من

تفرّج مضمون هذه الآيات على ما قبلها .

والمعنى فأخبرني عمن أعرض عن الإنفاق و أعطى قليلاً من المال و أمسك بعد ذلك أشدّ الإمساك .

قوله تعالى : «أعنده علم الغيب فهو يرى » الضمائر لمن تولى والاستفهام للإنكار والمعنى أيعلم الغيب فيقرّب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمّل عنه ذنوبه و يعذب مكانه يوم القيامة لو استحقّ العذاب . كذا فسّروا .

والظاهر أن المراد نفي علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله في الدنيا والمعنى أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق ودام على الإنفاق نفد ماله و ابتلى بالفقر وأما تحمّل الذنوب والعذاب فالمتعرّض له قوله الآتي : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى » .

قوله تعالى : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى و إبراهيم الذي وفّي » صحف موسى التوراة ، و صحف إبراهيم ما نزل عليه من الكتاب و الجمع للإشارة إلى كثرة بكترة أجزائه .

والتوفية تأدية الحقّ بتمامه و كماله ، و توفيته ﷺ تأديته ما عليه من الحقّ في العبوديّة أتمّ التأدية وأبلغها قال تعالى : « وإن ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهنّ » البقرة : ١٢٤ .

و ما نقله الله سبحانه في الآيات التالية من صحف إبراهيم و موسى ﷺ و إن لم يذكر في القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنّه مذكور بعنوان الحكم والمواظ و القصص والعبر فمعنى الآيتين : أم لم ينبأ بهذه الأمور و هي في صحف إبراهيم و موسى .

قوله تعالى : « ألا تزر وازرة وزر أخرى » الوزر الثقل و كثر استعماله في الإثم ، والوازة النفس التي من شأنها أن تحمل الإثم ، والآية بيان ما في صحف إبراهيم و موسى ﷺ ، و كذا سائر الآيات المصدّرة بأن و أن إلى تمام سبع عشرة آية .

والمعنى ما في صحفهما هو أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى أي لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى .

قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » قال الراغب : السعى المشي السريع وهو دون العدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً قال تعالى : « وسعى في خرابها » . انتهى واستعماله في الجد في الفعل استعمال استعاري .

ومعنى اللام في قوله : « للإنسان » الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طاحه من خير أو شر ، وأما ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكل ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان مادام في دار الغرور ويودعه عند ما أراد الانتقال إلى دار الخلود وعالم الآخرة .

فالمعنى وأنه لا يملك الإنسان ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضرر حقيقة إلا ما جد فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شراً .

وأما الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي بهيل حيث دخلوا في حضرة الإيمان بالله وآياته ، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له ، والأعمال الصالحة التي تهدي إليه مشوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة .

وكذا من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن له سعياً في عملهم حيث سن السنة وتوسل بها إلى أعمالهم كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » بس : ١٢ ، وقد تقدم في تفسير قوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية

ضعافاً خافوا عليهم ، النساء : ٩ ، و تفسير قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيب »
الأنفال : ٣٧ كلام نافع في هذا المقام .

قوله تعالى : « وأن سعيه سوف يرى » المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل
و بالرؤية المشاهدة ، و ظرف المشاهدة يوم القيامة بدليل تعقيبه بالجزاء فالآية قريبة
المعنى من قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء »
آل عمران : ٣٠ ، و قوله : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال
ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزال : ٨ .
و إتيان قوله : « سوف يرى » مبنياً للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من
يشاهد العمل غير عامله .

قوله تعالى : « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » الوفاء بمعنى التمام لأن الشيء التام
يفي بجميع ما يطلب من صفاته ، والجزاء الأوفى الجزاء الأتم .
و ضمير « يجزاه » للسعي الذي هو العمل والمعنى ثم يجزى الإنسان عمله أي
بعمله أتم الجزاء .

قوله تعالى : « وأن إلى ربك المنتهى » المنتهى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء
و قد أطلق إطلاقاً فيفيد مطلق الانتهاء ، فما في الوجود من شيء موجود إلا و ينتهي في
وجوده و آثار وجوده إلى الله سبحانه بلا واسطة أو مع الواسطة ، رافيه أمر من التدبير
والنظام الجاري جزئياً أو كلياً إلا و ينتهي إليه سبحانه إذ ليس التدبير الجاري بين
الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها و موجد الأشياء هو الموجد لروابطها
المجري لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه .

قال تعالى : « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السماوات
والأرض » الزمر : ٦٣ ، و قال : « ألاله الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ .
والآية تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بانتهاء كل تدبير و كل التدبير إليه
و تشمل انتهاء الأشياء إليه من حيث البدء وهو الفطر ، و انتهاءها إليه من حيث العود
والرجوع وهو الحشر .

و مما تقدم يظهر ضعف ما قيل في تفسير الآية إن المراد بذلك رجوع الخلق إليه سبحانه يوم القيامة ، وكذا ما قيل : إن المعنى أن إلى ثواب ربك وعقابه آخر الأمر ، وكذا ما قيل : المعنى أن إلى حساب ربك منتهاهم ، وكذا ما قيل : إليه سبحانه ينتهي الأفكار وتقف دونه ، ففي جميع هذه التفسيرات تقييد الآية من غير مقيّد .
قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » الآية وما يتلوها إلى تمام اثنى عشرة آية بيان لموارد من انتهاء الخلق والتدبير إلى الله سبحانه .

والسياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر ، و تفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك ، ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الإنسان في تحقق الضحك والبكاء ، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الإحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الأمم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد .

فمعنى قوله : « وأنه هو أضحك وأبكى » أنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكى لا غيره تعالى .

ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابهما إلى الإنسان وتلبسه بهما لأن نسبة الفعل إلى الإنسان بقيامه به ونسبة الفعل إليه تعالى بالإيجاد وكم بينهما من فرق .

ولا أن تعلق الإرادة الإلهية بضحك الإنسان مثلاً يوجب بطلان إرادة الإنسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الإرادة الإلهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلقت بالضحك الإرادي الاختياري من حيث إنه صادر عن إرادة الإنسان واختياره فأرادة الإنسان سبب لضحكه في طول إرادة الله سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معاً فنضطر إلى القول بأن أفعال الإنسان الاختيارية مخلوقة لله ولا صنع

للإنسان فيها كما يقوله الجبري" أو أنها مخلوقة للإنسان ولا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلي .

و مما تقدم يظهر فساد قول بعضهم : إن معنى الآية أنه خلق قوتى الضحك والبكاء ، وقول آخرين : إن المعنى أنه خلق السرور والحزن ، وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقول آخرين : إن المعنى أنه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار .

قوله تعالى : « وأنه هو أمات وأحيا » الكلام في انتساب الموت والحياة إلى أسباب أخر طبيعية وغير طبيعية كالملائكة كالكلام في انتساب الضحك والبكاء إلى غير تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى ، وكذا الكلام في الأمور المذكورة في الآيات التالية .

قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » النطفة ماء الرجل والمرءة الذي يخلق منه الولد ، وأمنى الرجل أي صب المنى ، وقيل : معناه التقدير ، وقوله : « الذكر والأنثى » بيان للزوجين .

قيل : لم يذكر الضمير في الآية على طرز ما تقدم - أنه هو - لأنه لا يتصور نسبة خلق الزوجين إلى غيره تعالى .

قوله تعالى : « وأن عليه النشأة الأخرى » النشأة الأخرى الخلقة الأخرى الثانية وهي الدار الآخرة التي فيها جزاء ، وكون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم وقد وعد به ووصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد .

قوله تعالى : « وأنه هو أغنى وأقنى » أي أعطى الغنى وأعطى القنية ، والقنية ما يدوم من الأموال ويبقى ببقاء نفسه كالدار والبستان والحيوان ، وعلى هذا فذكر « أقنى » بعد « أغنى » من التعريض للمخاص بعد العام لنفاسته وشرفه .

وقيل : الإغناء التمويل والإقناء الإرضاء بذلك ، وقال بعضهم : معنى الآية أنه هو أغنى وأفقر .

قوله تعالى : « وأنه هو رب الشعري » كأن المراد بالشعري الشعري اليمانية

و هي كوكبة مضيئة من الثوابت شرقي صورة الجبار في السماء .

قيل : كانت الخزاعة و حير تعبد هذه الكوكبة ، و ممن كان يعبد أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من جهة أمه ، و كان المشركون يسمونه ﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة قومه في عبادة الشعري .

قوله تعالى : « و أنه أهلك عاداً الأولى » وهم قوم هود النبي ﷺ و وصفوا بالأولى لأن هناك عاداً ثانية هم بعد عاد الأولى .

قوله تعالى : « و نمود فما أبقي » وهم قوم صالح النبي ﷺ أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم ، و هو المراد من قوله : « فما أبقي » و إلا فهو سبحانه نجى المؤمنين منهم من الهلاك كما قال : « و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتشككون » فصلت : ١٨ .

قوله تعالى : « و قوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم و أظفى » عطف كسابقه على قوله : « عاداً » و الإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم و أظفى ، أي من القومين عاد و نمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوة نوح ﷺ و لم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنة و لم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل .

قوله تعالى : « و المؤتفكة أهوى فغشاهما غشى » قيل : إن المؤتفكة قرى قوم لوط اثنتان بأهلها أي انقلبت و الائتفاك الانقلاب ، و الإهواء الإسقاط .

و المعنى و أسقط القرى المؤتفكة إلى الأرض بقلبها و خسفها فشملمها و أحاط بها من العذاب ما شملها و أحاط بها .

و احتمال أن يكون المراد بالمؤتفكة ما هو أعم من قرى قوم لوط و هي كل قرية نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربة دائرة معالمها خاوية على عروشها .

قوله تعالى : « فبأي آلاء ربك تتماري » الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة ، و التماري التشكك ، و الجملة متفرعة على ما تقدم ذكره مما ينسب إليه تعالى من الأفعال .

و المعنى إذا كان الله سبحانه هو الذي نظم هذا النظام البديع من صنع و تدبير

بالإضحاك والإبكاء والإمامة والإحياء والخلق والإهلاك إلى آخر ما قيل فبأي نعم ربك تشكك وفي أيها تريب .

وعدّ مثل الإبكاء والإمامة وإهلاك الأُمم الطاغية نعماً لله سبحانه لما فيها من الدخول في تكوين النظام الأتم الذي يجري في العالم وتنساق به الأمور في مرحلة استكمال الخلق ورجوع الكل إلى الله سبحانه .

والخطاب في الآية للذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى أو للنبي ﷺ من باب إيمانك أغني واسمعي يا جارة ، والاستفهام للإِنْكار .

قوله تعالى : « هذا نذير من النذر الأولى » قيل : النذير يأتي مصدراً بمعنى الإِنْذار ووصفاً بمعنى المنذر ويجمع على النذر بضمّتين على كلا المعنيين والإشارة بهذا إلى القرآن أو النبي ﷺ .

قوله تعالى : « أزفت الآزفة » أي قربت القيامة والآزفة من أسماء القيامة قال تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة » المؤمن : ٨ .

قوله تعالى : « ليس لها من دون الله كاشفة » أي نفس كاشفة والمراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال ، والمعنى ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد والأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه .

قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون » الإشارة بهذا الحديث إلى ما تقدّم من البيان والسمود اللّهُو ، والآية متفرّعة على ما تقدّم من البيان ، والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى إذا كان الله هو ربكم الذي ينتهي إليه كل أمر وعليه النشأة الأخرى وكانت القيامة قريبة وليس لها من دون الله كاشفة كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله ، و تعرّضتم للشقاء الدائم أفمن هذا البيان الذي يدعوكم إلى النجاة تعجبون إنكاراً وتضحكون استهزاء ولا تبكون ؟

قوله تعالى : « فاسجدوا لله واعبدوا » تفريع آخر على ما تقدّم من البيان

والمعنى إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله و تعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكشف في قوله تعالى : « أفرايت الذي تولّى » الخ روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح و هو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنوبا وخطايا ، و إنني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى و أرجو عفوه فقال عبد الله : أعطني ناقةك برحلتها وأنا أنحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه و أشهد عليه و أمسك عن العطاء فنزلت ، و معنى « تولّى » ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك و أجمل .

اقول : و أورد القصة في مجمع البيان و نسبها إلى ابن عباس والسدي والكلبي و جماعة من المفسرين ، و في انطباق « تولّى » على تركه المركز يوم أحد نظر والآيات مكينة .

و في الدر المنثور أخرج الفاريابي و عبد بن حميد و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : « أفرايت الذي تولّى » قال : الوليد بن المغيرة كان يأتي النبي ﷺ و أبا بكر فسمع ما يقولان و ذلك ما أعطى من نفسه ، أعطى الاستماع « و أكدى » قال : انقطع عطاؤه نزل في ذلك « أعنده علم الغيب » قال : الغيب القرآن أراى فيه باطلاً أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي ﷺ و أبي بكر .

اقول : و أنت خير بأن الآيات بظاهرها لا تنطبق على ما ذكره .

و روي أنها نزلت في العاص بن وائل ، و روي أنها نزلت في رجل لم يذكر اسمه .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و إبراهيم الذي وفى » قال : وفى بما أمره

الله به من الأمر والنهي و ذبح ابنه .

و في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قال : سألت عن الرجل يحج فيجعل حجته و عمرته أو بعض طوافه لبعض أهله و هو عنه غائب في بلد آخر ؟ قال : قلت : فيمنقص ذلك من أجره ؟ قال : هي له و لصاحبه وله أجر سوى ذلك بما وصل . قلت : و هو ميت أيدخل ذلك عليه ؟ قال : نعم حتى يكون مسخوطاً عليه فيغفر له أو يكون مضيقاً عليه فيوسع له . قلت : فيعلم هو في مكانه أنه عمل ذلك لحقه ؟ قال : نعم . قلت : و إن كان ناصباً ينفعه ذلك ؟ قال : نعم يخفف عنه .

أقول : مورد الرواية إهداء ثواب العمل دون العمل نيابة عن الميت .

و فيه بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يقول الله عز وجل للملك الموكل بالمؤمن إذا مرض : اكتب له ما كنت تكتب له في صحته فإني أنا الذي صيرته في حبالي ^(١) .

و في الخصال عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال : صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة صدقة موقوفة لا تورث ، و سنة هدى سنتها و كان يعمل بها و عمل بها من بعده غيره ، و ولد صالح يستغفر له .

أقول : و هذه الروايات الثلاث - و في معناها روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام - توسع معنى السعي في قوله تعالى : « و أن ليس للإنسان إلا ما سعى » و قد تقدمت إشارة إليها .

و في أصول الكافي بإسناده إلى سليمان بن خالد قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله يقول : « و إن إلى ربك المنتهى » فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا .

أقول : و هو من التوسعة في معنى الانتهاء .

وفيه بإسناده إلى أبي عبيدة الحذاء قال : قال أبو جعفر عليه السلام : يا زياد إياك والخصومات فإنها تورث الشك ، وتحبط العمل ، وتردي صاحبها ، وعسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له . إنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وُكِّلوا به ، وطلبوا علم ما كُفِّوه حتى انتهى كلامهم إلى الله فتحسروا حتى كان الرجل يدعى من بين يديه فيجيب من خلفه ، ويدعى من خلفه فيجيب من بين يديه : قال : وفي رواية أخرى : حتى تاهوا في الأرض .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا .

أقول : وفي النهي عن التفكر في الله سبحانه روايات كثيرة أخر مودعة في جوامع الفريقين ، والنهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورد في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضاً للهلاك الدائم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنته هو أضحك وأبكى » قال : السماء بالمطر ، وأضحك الأرض بالنبات .

أقول : هو من التوسعة في معنى الإبكاء والإضحاك .

وفي المعاني بإسناده إلى السكوني عن جعفر بن محمد عن آبائهم عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله عز وجل : « وأنته هو أغنى وأقنى » قال : أغنى كل إنسان بمعيشته ، وأرضاه بكسب يده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وأنته هورب الشعري » قال : النجم في السماء يسمى الشعري كانت قريش وقوم من العرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليل .

أقول : الظاهر أن قوله : « وهو نجم يطلع في آخر الليل » تعريف له بحسب زمان صدور الحديث و كان في الصيف وإلا فهو يستوفي في مجموع السنة جميع ساعات الليل والنهار .

وفيه في قوله تعالى : « أزفت الآزفة » قال : قربت القيامة .
 وفي المجمع في قوله تعالى : « أؤمن هذا الحديث تعجبون » يعني بالحديث
 ما تقدم من الأخبار .
 وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ملّا نزلت هذه الآية
 على النبي ﷺ « أؤمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون » فما رؤي النبي
 بعدها ضاحكاً حتى ذهب من الدنيا .



﴿سورة القمر مكِّيَّة وهي خمس وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَ اِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلَّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حَكَمَةٌ بِالْغَةِ فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

﴿بيان﴾

سورة محمضة في الإنذار والتخويف إلا آيتين من آخرها تبشيران المؤمنين بالجنة والحضور عند ربهم .

تبدء السورة بالإشارة إلى آية شق القمر التي أتى بهار رسول الله ﷺ عن اقتراح من قومه ، و تذكر رميهم له بالسحر و تكذيبهم به و اتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجرة من أنباء يوم القيامة و أنباء الأمم الماضية الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذة من تلك الأنباء إعادة ساخط معاتب فيذكر سيئ حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث و حضورهم للحساب .

ثم تشير إلى قصص قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون وما نزل بهم من ألیم العذاب إثر تكذيبهم بالنذر وليس قوم النبي ﷺ بأعز عند الله منهم وما هم

بمعجزين ، و تختتم السورة ببشرى للمتقين .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها ، ولا يعبأ بما قيل : إنّها نزلت ببدر ، وكذا بما قيل : إنّ بعض آياتها مدنيّة ، و من غرر آياتها ما في آخرها من آيات القدر .
قوله تعالى : « اقتربت الساعة و انشق القمر » الاقتراب زيادة في القرب فقوله :
« اقتربت الساعة » أي قربت جداً ، والساعة هي الظرف الذي تقوم فيه القيامة .

و قوله : « و انشق القمر » أي انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآية إلى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة إثر سؤال المشركين من أهل مكة ، وقد استفاضت الروايات على ذلك ، و اتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل . ولم يخالف فيه منهم إلا الحسن و عطاء و البلخي حيث قالوا : معنى قوله : « انشق القمر » سينشق القمر عند قيام الساعة وإنّما عبّر بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع .

و هو مزيف مدفوع بدلالة الآية التالية « وإن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر » فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله « آية » مطلق شامل لانشق القمر فعند وقوعه إعراضهم و قولهم : سحر مستمر ومن المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق و يلجئون فيه إلى المعرفة ، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنّها سحر مستمر فليس إلا أنّها آية قد وقعت للدلالة على الحق و الصدق و تأتّى لهم أن يرموها عناداً بأنّها سحر .

و مثله في السقوط ما قيل : إنّ الآية إشارة إلى ما ذهب إليه الرياضيون أخيراً أن القمر قطعة من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله : « و انشق القمر » إشارة حقيقة علميّة لم ينكشف يوم النزول بعد .

و ذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله : « و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر » إذ لم ينقل عن أحد أنّه قال للقمر : هو سحر مستمر .
على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق والذى في الآية الكريمة انشقاق ، ولا

يطلق الانشقاق إلا على تقطع الشيء في نفسه قطعتين دون انفصاله من شيء بعد ما كان جزء منه .

ومثله في السقوط ما قيل : إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمة عند طلوعه وكذا ما قيل : إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر ووضوح الحق .

والآية لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعة .

قوله تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » الاستمرار من الشيء مرور منه بعد مرور مرة بعد مرة ، ولذا يطلق على الدوام والاطراد فقولهم : سحر مستمر أي سحر بعد سحر مداوماً .

وقوله : « آية » نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم ، والمعنى وكل آية يشاهدونها يقولون فيها إنها سحر بعد سحر ، وفسر بعضهم المستمر بالمحكّم الموثق ، وبعضهم بالذاهب الزائل ، وبعضهم بالمستبشع المنفور ، وهي معان بعيدة .

قوله تعالى : « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » متعلق بالكذيب بقرينة ذيل الآية هو النبي ﷺ وما أتى به من الآيات أي وكذبوا بالنبي ﷺ وما أتى به من الآيات والحال أن كل أمر مستقر سيسنقر في مستقره فيعلم أنه حق أو باطل وصدق أو كذب فسيعلمون أن النبي ﷺ صادق أو كاذب ، على الحق أولاً فقوله : « وكل أمر مستقر » في معنى قوله : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ص : ٨٨ .

وقيل متعلق بالكذيب انشقاق القمر والمعنى وكذبوا بانشقاق القمر واتبعوا أهواءهم ، وجملة « وكل أمر مستقر » لا تلائم تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » المزدجر مصدر ميمي وهو الانتعاض ، وقوله : « من الأنباء » بيان لما فيه مزدجر ، والمراد بالأنباء أخبار الأمم الدارجة الهالكة أو أخبار يوم القيامة وقد احتمل كل منهما ، والظاهر من تعقيب الآية بأنباء يوم القيامة ثم بأنباء عدة من الأمم الهالكة أن المراد بالأنباء التي فيها مزدجر جميع ذلك .

قوله تعالى : « حكمه بالغلة فما تغن النذر » الحكمة كلمة الحق التي ينتفع

بها ، والبلوغ وصول الشيء إلى ما تنتهي إليه المسافة ويكنى به عن تمام الشيء وكماله
فالحكمة البالغة هي الحكمة التامة الكاملة التي لا نقص فيها من حيث نفسها ومن
حيث أثرها .

وقوله : « فما تغن النذر » الفاء فيه فصيحة تفصح عن جملة مقدرة تترتب عليها
الكلام ، والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار والكل صحيح وإن كان
الأول أقرب إلى الفهم .

والمعنى هذا القرآن أو الذي يدعون إليه حكمة بالغة كذبوا بها واتبعوا
أهواءهم فما تغني المنذرون أو الإنذارات ؟

قوله تعالى : « فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر » التولي الإعراض
والفاء في « فتول » لتفريع الأمر بالتولي على ما تقدمه من وصف حالهم أي إذا كانوا
مكذبين بمتبعين أهواءهم لا يغني فيهم النذر ولا تؤثر فيهم الزواجر فتول عنهم
ولا تلج عليهم بالدعوة .

وقوله : « يوم يدع الداع إلى شيء نكر » قال الراغب : الإنكار ضد العرفان
يقال : أنكرت كذا ونكرت ، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره ، وذلك ضرب
من الجهل قال تعالى : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم » . قال : والنكر الدهاء
والأمر الصعب الذي لا يعرف . انتهى .

وقد تم الكلام في قوله : « فتول عنهم » ببيان حالهم تجاه الحكمة البالغة التي
ألقيت إليهم والزواجر التي ذكروا بها على سبيل الإنذار ، ثم أعاد سبحانه نبذة من
تلك الزواجر التي هي أنباء من حالهم يوم القيامة ومن عاقبة حال الأمم المكذبين من
الماضين في لحن العتاب والتوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه و تقطع منابت
أعذارهم في الإعراض .

فقوله : « يوم يدع الداع » الخ كلام مفصول عما قبله لذكر الزواجر التي أشر
إليها سابقاً في مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه لما قال : « فتول عنهم » سئل فقيل :
« فإلام يؤل أمرهم ؟ فقيل : « يوم يدع » الخ أي هذه حال آخرتهم و تلك عاقبة دنيا

أشياهم و أمثالهم من قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم ، و ليسوا خيراً منهم .
 و على هذا فالظرف في «يوم يدع» متعلق بما سيأتي من قوله: « يخرجون» والمعنى
 يخرجون من الأجداث يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر ، النخ ، و إما متعلق بمحذوف
 والتقدير اذكر يوم يدعو الداعي ، والمحصل اذكر ذاك اليوم و حالهم فيه ، والآية في
 معنى قوله : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة » الزخرف : ٤٤ ، وقوله : « فهل
 ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ .

و لم يسم سبحانه هذا الداعي من هو ؟ و قد نسب الدعوة في موضع من كلامه
 إلى نفسه فقال : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ .
 و إنما أورد من أنباء القيامة نبأ دعوتهم للخروج من الأجداث والحضور لفصل
 القضاء و خروجهم منها خشعاً أبصارهم مطعين إلى الداعي ليحاذي به دعوتهم في الدنيا
 إلى الإيمان بالآيات و إعراضهم و قولهم : سحر مستمر .

و معنى الآية اذكر يوم يدعو الداعي إلى أمر صعب عليهم و هو القضاء والجزاء .
 قوله تعالى : « خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر »
 الخشع جمع خاشع والخشوع نوع من الذلّة و نسب إلى الأبصار لأنّ ظهوره
 فيها أتم .

والأجداث جمع جدث و هو القبر ، والجراد حيوان معروف ، و تشبيههم في
 الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث أنّ الجراد في انتشاره يدخل البعض منه
 في البعض و يختلط البعض ببعض في جهات مختلفة فكذلك هؤلاء في خروجهم من القبور
 قال تعالى : « يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم »
 المعارج : ٤٤ .

قوله تعالى : « مطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » أي حال كونهم
 مسرعين إلى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون : هذا يوم عسر أي
 صعب شديد .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي " اقتربت الساعة " قال : اقتربت القيامة فلا يكون بعد رسول الله ﷺ إلا القيامة وقد انقضت النبوة والرسالة .

وقوله : « وانشق القمر » فإن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يرهم آية فدعا الله فانشق القمر نصفين حتى نظروا إليه ثم التأم فقالوا : هذا سحر مستمر أي صحيح . وفي أمالي الشيخ بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا عن آبائه عن علي بن الحسين قال : انشق القمر بمكة فلقين فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا اشهدوا .

اقول : ورد انشقاق القمر لرسول الله ﷺ في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام كثيراً وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة فرقتين فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر » إلى قوله : « سحر مستمر » أي ذاهب .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبي ﷺ فقال قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن مجداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا : نعم قدرأيذاه فأنزل الله « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وفيه أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد عن ابن عمر في قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فرقتين : فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه فقال النبي ﷺ : اللهم اشهد .

وفيه أخرج أحمد و عبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله : « وانشق القمر » قل : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقال الناس : سحرنا محمد فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وفيه أخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : قد مضى ذلك قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمداين فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : اقتربت الساعة وانشق القمر ألا وإن الساعة قد اقتربت . ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ . ألا وإن الدنيا قد آذنت بغراق . ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق .

اقول : وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي ﷺ بطرق مختلفة كثيرة عن هؤلاء نفر من الصحابة وهم أس ، و عبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، و جبير بن مطعم ، وابن عباس وحذيفة بن اليمان ، و عبد في روح المعاني ممن روي عنه الحديث من الصحابة علياً رضي الله عنه ثم نقل عن السيد الشريف في شرح المواقف وعن ابن السبكي في شرح المختصر أن الحديث متواتر لا يمتري في تواتره . هذه حال الحديث عند أهل السنة وقد عرفت حاله عند الشيعة .



﴿ كلام فيه اجمال القول فى شق القمر ﴾

آية شق القمر بيد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشتركين مما تسلمها المسلمون بلا ارياب منهم .

و يدل عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى : « اقتربت الساعة و انشق القمر و إن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » القمر : ٢ فالآية الثانية تأبى إلا أن يكون مدلول قوله : « و انشق القمر » آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها و قالوا : سحر مستمر .

و يدل عليها من الحديث روايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان و تسلمها المحدثون ، و قد تقدمت نماذج منها في البحث الروائي .

فالكتاب والسنة يدلان عليها و انشقاق كرة من الكرات الجوية بممكن في نفسه لا دليل على استحالة العقلية ، و وقوع الحوادث الخارقة للعادة - و منها الآيات المعجزات - جائز وقد قدمنا في الجزء الأول من الكتاب تفصيل الكلام فيها إمكاناً و وقوعاً و من أوضح الشواهد عليه القرآن الكريم فمن الواجب قبول هذه الآية و إن لم يكن من ضروريات الدين .

و اعترض عليها بأن صدور الآية المعجزة منه ﷺ باقتراح من الناس ينا في قوله تعالى : « و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون و آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها و ما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » أسرى : ٥٩ فإن مفاد الآية إما أننا لا نرسل بالآيات إلى هذه الأمة لأن الأمم السابقة كذبوا بها و هؤلاء يمانئونهم في طباعهم فيكذبون بها ، و لا فائدة في الارسال مع عدم ترتب أثر عليه أو المفاد أننا لا نرسل بها لأننا أرسلنا إلى أوليهم فكذبوا بها فعذبوا و اهلكوا و لو أرسلنا إلى هؤلاء لكذبوا بها و عذبوا عذاب الاستئصال لكننا لا نريد أن نعاملهم بالعذاب ، و على أي حال لا يرسل بالآيات إلى هذه الأمة كما كانت ترسل إلى الأمم الدارجة .

نعم هذا في الآيات المرسلة باقتراح من الناس دون الآيات التي تؤيد بها الرسالة

كالقرآن المؤيد لرسالة النبي ﷺ وكآيتي العصا واليد لموسى عليه السلام و آية إحياء الموتى وغيره العيسى عليه السلام ، وكذا الآيات النازلة لطفاً منه سبحانه كالخوارق الصادرة عن النبي ﷺ لا عن اقتراح منهم .

ومثل الآية السابقة قوله تعالى : « وقالوا ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - إلى أن قال - قل سبحانه ربّي هل كنت إلّا بشراً رسولاً » أسرى: ٩٣ وغير ذلك من الآيات .

والجواب عن هذا الاعتراض يحتاج إلى تقديم مقدّمة هي أن النبي ﷺ بعث رسولاً إلى أهل الدنيا كافة نبوة خاتمة كما يدل عليه قوله تعالى : « قل يا أيّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً » الأعراف : ١٥٨ ، وقوله : « وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩ ، وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيّين » الأحزاب : ٣٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بدء ﷺ وهو بمكة بدعوة قومه من أهل مكة وحواليها فقابلوه بما استطاعوا من الشقاق والابذاء والاستهزاء وهمّوا بإخراجه أو إنباته أو قتله حتّى أمره ربّه بالهجرة غير أنّه آمن به وهو بمكة جمع كثير منهم وإن كانت عامتهم على الكفر والمؤمنون وإن كانوا قليلين بالنسبة إلى المشركين مضطهدين مفتنّين لكنهم كانوا في أنفسهم جمعاً ذاعداً كما يدل عليه قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة » النساء : ٧٧ . فقد استجازوا النبي ﷺ أن يقاتلوا المشركين فلم يأذن الله لهم في ذلك على ما روي في سبب نزول الآية ، وهذا يدل على أنّهم كانوا ذوي عدة و عدة في الجملة ولم يزالوا يزيّدون جمعا .

ثمّ هاجر ﷺ إلى المدينة و بسط هناك الدعوة ونشر الإسلام فيها وفي حواليها وفي القبائل وفي اليمن و سائر أقطار الجزيرة ما عدا مكة و حواليها ثمّ بسط الدعوة على غير الجزيرة فكانت الملوك والعظماء من فارس والروم ومصر سنة ست من الهجرة ثمّ فتح مكة سنة ثمان من الهجرة وقد أسلم ما بين الهجرة و الفتح جمع من أهلها و حواليها .

ثم "ارتحل ﷺ و كان من انتشار الإسلام ما كان ، ولم يزل الإسلام يزيد جمعاً و ينتشر صيتاً إلى يومنا هذا وقد بلغوا خمس أهل الأرض عددا .
 إذا تمهد هذا فنقول : كانت آية انشقاق القمر آية اقتراحية تستعقب العذاب لو كذبوا بها و قد كذبوا و قالوا : سحر مستمر " وما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل إليهم النبي ﷺ و هم أهل الأرض جميعاً لعدم تمام الحجّة عليهم يومئذ و قد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة ، و قد قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة » الأنفال : ٤٢ .

و ما كان الله ليهلك جميع أهل مكّة و حواليا خاصة و بينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى : « و لو لا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » الفتح : ٢٥ .

و ما كان الله سبحانه لينجّي المؤمنين و يهلك كفارهم و قد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة و سنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكّة ثم آمنت عامتهم يوم الفتح و الإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادات .

و لم تكن عامة أهل مكّة و حواليا أهل عناد و جحود و إنما كان أهل الجحود و العناد عظاماً و هم و صناديدهم المستهزئين بالنبي ﷺ المعلنين للمؤمنين ، المقترحين عليه بالآيات و هم الذين يقول تعالى فيهم : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » البقرة : ٦ و قد أوعده الله هؤلاء الجاحدين المقترحين بتحريم الإيمان و الهلاك في مواضع من كلامه فلم يؤمنوا و أهلكتهم الله يوم بدر و تمت كلمة الرب صدقاً و عدلاً .

و أمّا التمسك لنفي إرسال الآيات مطلقاً بقوله تعالى : « و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » فلا آية لا تشمل قطعاً الآيات المؤيدة للرسالة كالقرآن المؤيد لرسالة النبي ﷺ ، و كذا الآيات النازلة لطفاً كالخوارق الصادرة عن النبي ﷺ من الإخبار بالمغيبات و شفاء المرضى بدعائه و غير ذلك .

فلو كانت مطلقة فإنما تشمل الآيات الاقتراحية وتفيد أن الله سبحانه لم يرسل الآيات التي اقترحتها قريش - أولم^(١) يرسل النبي ﷺ بالآيات التي اقترحوها - لأن الأم السابقة كذبوا بها وطباع هؤلاء المقترحين طباعهم يكذبون بها ولازمها نزول العذاب والله لا يريد أن يعذبهم عاجلاً .

وقد أوضح سبحانه سبب عدم معاجلتهم بالعذاب بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » الأنفال : ٣٣ واستبان بذلك أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم كما يفيد أيضاً قوله تعالى : « وإن كادوا ليستفزوا من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً » أسرى : ٧٦ .

ثم قال تعالى : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أوليائه إلا المستقون ولكن أكثرهم لا يعلمون وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » الأنفال : ٣٥ والآيات نزلت عقيب غزوة بدر .

والآيات تبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النبي ﷺ صلى الله عليه وآله بينهم فإذا زال المانع بخروجه من بينهم فليذوقوا العذاب وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع .

وبالعجلة كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ووجود النبي ﷺ بينهم المانع من معاجلة العذاب فإذا وجد مقتضى للعذاب كالصد والمكاء والتصديّة وزال أحد ركني المانع وهو كونه ﷺ فيهم فلا مانع من العذاب ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ليحق عليهم القول فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها وبسبب مقتضيات آخر كالصد ونحوه .

فتحصل أن قوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات » الخ إنما يفيد

(١) أول شقى التردد مبنى على كون الباء في قوله : « نرسل بالآيات » زائدة

والآيات مفعول نرسل ، والثاني مبنى على كونها بمعنى المصاحبة والمفعول محذوفاً .

الإمساك عن إرسال الآيات مادام النبي ﷺ فيهم وأما إرسالها وتأخير العذاب إلى خروجه من بينهم فلا دلالة فيه عليه وقد صرح سبحانه بأن "وقعة بدر كانت آية" وما أصابهم فيها كان عذاباً ، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغواً بسبب كونهم مجبولين على التكذيب فإن إرسالها مع تأخير العذاب والنكال إلى خروج النبي ﷺ من بينهم من الفائدة ليحق الله الحق ويبطل الباطل فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النبي ﷺ صلى الله عليه وآله من بينهم .

وأما قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا » فليس مدلوله نفي تأييد النبي ﷺ بالآيات المعجزة وإنكار نزولها من أصلها كيف ؟ وهو ينفيها عن نفسه بما أنه بشر رسول ، ولو كان المراد ذلك لافاد إنكار معجزات الأنبياء جميعاً لكون كل منهم بشراً رسولا ، وصريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبياء وأخبار عن آياتهم يناقض ذلك ، وأوضح من الجميع في مناقضة ذلك نفس الآية التي هي من القرآن المتحدتي بالاعجاز .

بل مدلوله أن النبي ﷺ بشر رسول غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليه ، وإنما الأمر إلى الله سبحانه إن شاء أنزلها وإن لم يشأ لم يفعل قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أئنها إذا جاءت لا يؤمنون » الأنعام : ١٠٩ ، وقال حاكياً عن قوم نوح : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء » هود : ٣٣ ، وقال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » المؤمن : ٧٨ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن الاعتراض على آية الانشقاق ما قيل : إن القمر لو انشق كما يقال لرآه جميع الناس ، ولضبطه أهل الأرصاد في الشرق والغرب لكونه من أعجب الآيات السماوية ولم يعهد فيما بلغ إلينا من التاريخ والكتب الباحثة عن الأوضاع السماوية له نظير والدواعي متوفرة على استماعه ونقله .

وَأُجِيبَ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ "مَنْ الْمُمْكِنُ أَوْ لَا أَنْ يَغْفَلَ عَنْهُ فَلَا دَلِيلَ عَلَى كَوْنِ كُلِّ حَادِثٍ أَرْضِيٍّ أَوْ سَمَاوِيٍّ" مَعْلُومًا لِلنَّاسِ مَحْفُوظًا عِنْدَهُمْ بِرِثَةِ خَلْفٍ عَنْ سَلَفٍ .

وِثَانِيًا : أَنَّ "الْحِجَازَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا لَمْ يَكُنْ بِهَا مَرَصِدٌ لِلْأَوْضَاعِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَا كَانَ مِنَ الْمَرَاصِدِ بِالْهِنْدِ وَالْمَغْرِبِ مِنَ الرُّومِ وَيُونَانَ وَغَيْرِهِمَا وَلَمْ يَثْبُتْ وَجُودُ مَرَصِدٍ فِي هَذَا الْوَقْتِ - وَهُوَ عَلَى مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَوَّلَ اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ خَمْسٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ - .

عَلَى أَنَّ "بِلَادَ الْغَرْبِ الَّتِي كَانُوا مَعْتَنِينَ بِهَذَا الشَّأْنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَكَّةَ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَفْقِ مَا يَوْجِبُ فَضْلًا زَمَانِيًّا مَعْتَدًا بِهِ وَقَدْ كَانَ الْقَمَرُ - عَلَى مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ - بَدْرًا وَاشْتَقَّ فِي حَوَالِي غُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ طُلُوعِهِ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْإِنْشِقَاقِ إِلَّا زَمَانًا يَسِيرًا ثُمَّ التَّامَ فَيَقَعُ طُلُوعُهُ عَلَى بِلَادِ الْغَرْبِ وَهُوَ مَلْتَمِثٌ ثَانِيًا .

عَلَى أَنَّا نَتَّهَمُ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْكَنِيسَةِ وَالْوَثْنِيَّةِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَهَا مَسَاسٌ نَفَعٌ بِالْإِسْلَامِ .

وَمِنَ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهَا مَا قِيلَ : إِنَّ "الْإِنْشِقَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا بِبُطْلَانِ التَّجَاذِبِ بَيْنَ الشَّقَتَيْنِ وَحِينَئِذٍ يَسْتَحِيلُ الْإِلْتِيَامُ فَلَوْ كَانَ مَنْشَقًّا لَمْ يَلْتَمِثْ أَبَدًا .

وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ "الِاسْتِحَالَةَ الْعَقْلِيَّةَ مَمْنُوعَةً ، وَالِاسْتِحَالَةَ الْعَادِيَّةَ بِمَعْنَى اخْتِرَاقِ الْعَادَةِ لَوْ مَنَعَتْ عَنِ الْإِلْتِيَامِ بَعْدَ الْإِنْشِقَاقِ لَمَنَعَتْ أَوْ لَا عَنْ الْإِنْشِقَاقِ بَعْدَ الْإِلْتِيَامِ وَلَمْ تَمْنَعْ وَأَصْلُ الْكَلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى جَوَازِ خَرْقِ الْعَادَةِ .





كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ (٩)
 فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
 وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ
 عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)
 وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَرِ (١٦)
 وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
 عَذَابِي وَ نَذَرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ
 مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ
 عَذَابِي وَ نَذَرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٢)
 كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى
 ضَلَالٍ وَ سَعَرٍ (٢٤) أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥)
 سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآشِرِّ (٢٦) إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ
 فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (٢٧) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ
 مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
 وَنَذَرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ (٣١)

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
 بِالنَّذْرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤)
 نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا
 فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
 عَذَابِي وَ نَذْرٍ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ فَذُوقُوا
 عَذَابِي وَ نَذْرٍ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٤٠)
 وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ
 عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) .

﴿بيان﴾

إشارة إلى بعض ما فيه مزدجر من أنباء الأمم الدارجة خص بالذكر من بينهم
 قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون فذكرهم بأنبيائهم و أعاد عليهم إجمال ما
 قص عليهم سابقاً من قصصهم و ما آل إليه تكذيبهم بآيات الله و رسله من أليم العذاب
 و هائل العقاب تقريراً لقوله : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » .

و لتوكيد التقرير و تمثيل ما في هذه القصص الزاجرة من الزجر القارع للقلوب
 عقب كل واحدة من القصص بقوله خطاباً لهم : « فكيف كان عذابي و نذر » ثم تنهاه
 بذكر الغرض من الإنذار و التخويف فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من
 مدكر » .

قوله تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ التَّكْذِيبَ الْأَوَّلَ مَنْزِلَ مَنْزِلَةِ الْإِلَازِمِ أَيُّ فَعَلْتَ التَّكْذِيبَ ، وَ قَوْلُهُ : « فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا » الْخ تَفْسِيرُهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ : « وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ ، الْخ هُود : ٣٥ .

وقيل : المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق وهو تكذيبهم بالرسول ، وبالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ، الشُّعْرَاءُ ١٠٥ ، وَالْمَعْنَى كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ فَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ لِنُوحٍ . وَهُوَ وَجْهٌ حَسَنٌ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِتَفْرِيعِ التَّكْذِيبِ عَلَى التَّكْذِيبِ الْإِشَارَةُ إِلَى كَوْنِهِ تَكْذِيباً إِثْرَ تَكْذِيبٍ بِطُولِ زَمَانٍ دَعَاؤُهُ فَكَلَّمَا انْقَرَضَ قَرْنٌ مِنْهُمْ مَكْذُوبٌ جَاءَ بَعْدَهُمْ قَرْنٌ آخَرٌ مَكْذُوبٌ وَهُوَ مَعْنَى بَعِيدٌ .

و مثله قول بعضهم : إن المراد بالتكذيب الأول قصده و بالثاني فعله .

وقوله : « فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا » فِي التَّعْبِيرِ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : « عَبْدَنَا » فِي مِثْلِ الْمَقَامِ تَجْلِيلٌ لِمَقَامِهِ وَ تَعْظِيمٌ لِأَمْرِهِ وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ عَبْدٌ لَا يَمْلِكُ شَيْئاً وَ مَا لَهُ فَهُوَ اللَّهُ .

وقوله : « وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ » الْمُرَادُ بِالْازْدَجَارِ زَجَرَ الْجَنِّ لَهُ إِثْرُ الْجَنُّونِ وَالْمَعْنَى وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى مَجَرَّدِ التَّكْذِيبِ بَلْ نَسَبُوهُ إِلَى الْجَنُّونِ فَقَالُوا هُوَ مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ الْجَنِّ فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ زَجَرٍ وَلَيْسَ كَلَامُهُ مِنَ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ فِي شَيْءٍ .

وقيل : الْفَاعِلُ الْمَحْذُوفُ لِلْازْدَجَارِ هُوَ الْقَوْمُ وَالْمَعْنَى وَازْدَجَرَ الْقَوْمَ عَنِ الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ بِأَنْوَاعِ الْإِيذَاءِ وَالتَّخْوِيفِ ، وَ لَعَلَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَظْهَرَ .

قوله تعالى : « فِدَا رَبِّهِ أَنْتِي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » الْإِنْتِصَارُ الْإِنْتِقَامُ ، وَ قَوْلُهُ : « إِنْتِي مَغْلُوبٌ » أَيُّ بِالْقَهْرِ وَالتَّحَكُّمِ دُونَ الْحِجَّةِ ، وَهَذَا الدَّعَاءُ تَلْخِصٌ لِتَفْصِيلِ دَعَائِهِ ، وَتَفْصِيلُ دَعَائِهِ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ وَتَفْصِيلُ حُجَّتِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ وَغَيْرِهَا .

قوله تعالى : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمَرٍ » قَالَ فِي الْمَجْمَعِ : الْهَمْرُ صَبُّ الدَّمْعِ وَالْمَاءُ بِشِدَّةٍ ، وَالْإِنْهَامَارُ الْإِنْصَابُ انْتَهَى ، وَفَتَحَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَهِيَ الْجَوُّ بِمَاءٍ مُنْصَبٍّ اسْتِعَارَةً تَمَثِيلِيَّةً عَنْ شِدَّةِ أَنْصَابِ الْمَاءِ وَجَرِيَانِ الْمَطَرِ مُتَوَالِيًا كَأَنَّهُ مَدَّ خُرُورًا

باب مسدود يمنع عن انصابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون .

قوله تعالى : « وفَجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر » قال في المجمع : التفجير تشقيق الأرض عن الماء ، والعيون جمع عين الماء وهو ما يفور من الأرض مستديراً كاستدارة عين الحيوان . انتهى .

والمعنى جعلنا الأرض عيوناً منفجرة عن الماء تجري جرياناً متوافقاً متتابعاً .
وقوله : « فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر » أي فالتقى الماء ان ماء السماء وماء الأرض مستقراً على أمرٍ قد رآه الله تعالى أي حسب ما قدر من غير نقيصة ولا زيادة ولا عجل ولا مهل .

فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء وماء الأرض ولذلك لم يثن ، والمراد بأمرٍ قد قدر الصفة التي قدرها الله لهذا الطوفان .

قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » المراد بذات الألواح والدرس السفينة ، والألواح جمع لوح وهو الخشبة التي يركب بعضها على بعض في السفينة والدرس جمع دسار ودسر وهو المسمار الذي تشد بها الألواح في السفينة ، وقيل فيه معانٍ أخر لا تلائم الآية تلك الملاءمة .

قوله تعالى : « تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » أي تجري السفينة على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا وحفظنا وحراستنا ، وقيل : المراد تجري بأعين أوليائنا ومن وگلناه بها من الملائكة .

وقوله : « جزاء لمن كان كفر » أي جريان السفينة كذلك وفيه نجاة من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به وهو نوح عليه السلام كفر به وبدعوته قومه فالآية في معنى قوله : « ونجيناه وأهله من الكرب العظيم - إلى أن قال - إننا كذلك نجزي المحسنين » الصافات : ٨٠ .

قوله تعالى : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » ضمير « تركناها » للسفينة على ما يفيد السياق واللام للقسم ، والمعنى أقسم لقد أبقينا تلك السفينة التي نجينا بها نوحاً والذين معه ، وجعلناها آية يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها واحدانيته

تعالى وأن دعوة أنبيائه حق ، وأن أخذته أليم شديد ، ولازم هذا المعنى بقاء السفينة إلى حين نزول هذه الآيات علامة دالة على واقعة الطوفان مذكّرة لها ، وقد قال بعضهم في تفسير الآية على ما نقل : أبقي الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة^(١) انتهى وقد أوردنا في تفسير سورة هود في آخر الأبحاث حول قصة نوح خبر أنهم عثروا في بعض قلال جبل آراراط وهو الجودي قطعاً أخشاب من سفينة متلاشية وقعت هناك فراجع .

وقيل : ضمير « تركناها » ملأ مرة من القصة بما أنها فعله .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي و نذر » النذر جمع نذير بمعنى الإنذار وقيل : مصدر بمعنى الإنذار . والظاهر أن « كان » ناقصة واسمها « عذابي » ، وخبرها « فكيف » ويمكن أن تكون تامة فاعلها قوله : « عذابي » وقوله : « فكيف » حالاً منه .

وكيف كان فالاستفهام للتحويل يسجل به شدة العذاب وصدق الإنذار .

قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » : لتيسير التسهيل وتيسير القرآن للذكر هو الإقواء على نحو يسهل فهم مقاصده للعامة والخاصة والأفهام البسيطة والمتعمقة كل على مقدار فهمه .

ويمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العالية ومقاصده المرتفعة عن أفق الأفهام العادية إلى مرحلة التكليم العربي تناله عامة الأفهام كما يستفاد من قوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

والمراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله قال في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقننيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً باحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره وتارة

(١) رواه في الدر المنثور عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر

يقال لحضور الشيء القلب أو القول ، ولذلك قيل الذكر ذكران : ذكر بالقلب و ذكر باللسان و كل واحد منهما ضربان : ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ ، و كل قول يقال له ذكر . انتهى .

و معنى الآية و أقسم لقد سهّلنا القرآن لأن يتذكّر به ، فيذكر الله تعالى و شؤونه فهل من متذكّر يتذكّر به فيؤمن بالله و يدين بما يدعو إليه من الدين الحق ؟ فالآية دعوة عامّة إلى التذكّر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار و شدة العذاب الذي أنذر به .

قوله تعالى : « كذب عاد فكيف كان عذابي و نذر » شروع في قصّة أخرى من القصص التي فيها الازدجار و لم يعطف على ما قبلها - ومثلها القصص الآتية - لأن كل واحدة من هذه القصص مستقلة كافية في الزجر والردع والعظة لو اتعظوا بها . و قوله : « فكيف كان عذابي و نذر » مسوق لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى إليهم من كيفة العذاب الهائل بقوله : « إنّنا أرسلنا » النخ و ليس مسوقاً للتحويل وتسجيل شدة العذاب و صدق الإنذار كسابقه و إلا لتكرّر قوله بعد : « فكيف كان » النخ كذا قيل و هو وجه حسن .

قوله تعالى : « إنّنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » بيان لما استفهم عنه في قوله : « فكيف كان عذابي » والصرصر - على ما في المجمع - الريح الشديدة الهبوب ، والنحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم ، و « مستمر » صفة لنحس ، و معنى إرسال الريح في يوم نحس مستمر إرسالها في يوم متلبّس بالنحوسة والشأمة بالنسبة إليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم ولا نجاة .

والمراد باليوم قطعة من الزمان لا اليوم الذي يساوي سبع الأسبوع لقوله تعالى في موضع آخر من كلامه : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة ١٦ و في موضع آخر : « سخّرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوماً » الحاقة : ٧ .

و فسّر بعضهم النحس بالبرد .

قوله تعالى : « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » فاعل « تنزع » ضمير

راجع إلى الريح أي تنزع الريح الناس من الأرض ، وأعجاز النخل أسافله ، والمنقعر المقلوع من أصله ، والمعنى ظاهر ، وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساما .
قوله تعالى : « فكيف كان عذابي - إلى قوله - مدكر » تقدم تفسير الآيتين .

﴿كلام في سعادة الايام ونحوستها والطيرة والفأل﴾

في فصول

١ - في سعادة الايام ونحوستها : نحوسة اليوم أو أي مقدار من الزمان أن لا يعقب الحوادث الواقعة فيه إلا الشر ولا يكون الأعمال أو نوع خاص من الأعمال فيه مباركة لعاملها ، وسعادته خلافه .

ولا سبيل لنا إلى إقامة البرهان على سعادة يوم من الأيام أو زمان من الأزمنة ولا نحوسته وطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الأجزاء والأبعاض ، ولا إحاطة لنا بالعلل والأسباب الفاعلة المؤثرة في حدوث الحوادث و كينونة الأعمال حتى يظهر لنا دوران اليوم أو القطعة من الزمان مع علل وأسباب تقتضي سعادته أو نحوسته ، ولذلك كانت التجربة الكافية غير متأنية لتوقفها على تجرد الموضوع لأنره حتى يعلم أن الأثر أثره وهو غير معلوم في المقام .

ولما مر بعينه لم يكن سبيل إلى إقامة البرهان على نفي السعادة والنحوسة كما لم يكن سبيل إلى الإثبات وإن كان الثبوت بعيداً فالبعد غير الاستحالة . هذا بحسب النظر العقلي .

وأما بحسب النظر الشرعي ففي الكتاب ذكر من النحوسة وما يقابلها قال تعالى « إننا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر » القمر : ١٩ ، وقال : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات » حم السجدة : ١٦ لكن لا يظهر من سياق القصة ودلالة الآيتين أن يكون كون النحوسة والشؤم خاصة بنفس الزمان الذي كانت تهب عليهم فيه الريح عذاباً وهو سبع ليال وثمانية أيام متوالية يستمر عليهم فيها العذاب

من غير أن تدور بدوران الأسابيع وهو ظاهر وإلا كان جميع الزمان نحسا ، ولا بدوران الشهور والسنين .

وقال تعالى : « والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، الدخان : ٣ والمراد بها ليلة القدر التي يصفها الله تعالى بقوله : « ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر : ٤ و ظاهر أن مباركة هذه الليلة و سعادتها إنما هي بمقارنتها نوعاً من المقارنة لأمر عظام من الإفاضات الباطنية الإلهية وأفاعيل معنوية كإبرام القضاء و نزول الملائكة والروح و كونها سلاماً قال تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » الدخان : ٥ ، وقال : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر » القدر : ٥ .

و يؤل معنى مباركتها و سعادتها إلى فضل العبادة والنسك فيها و غزارة ثوابها و قرب العناية الإلهية فيها من المتوجّهين إلى ساحة العزة والكبرياء .
وأما السنة فهناك روايات كثيرة جداً في السعد والنحس من أيام الأسبوع و من أيام الشهور العربية و من أيام شهور الفرس و من أيام الشهور الرومية ، وهي روايات بالغة في الكثرة مودعة في جوامع الحديث ^(١) أكثرها ضاعف من مراسيل و مرفوعات و إن كان فيها ما لا يخلو من اعتبار من حيث أسنادها .

أما الروايات العادة للأيام النحسة كيوم الأربعاء والأربعاء لا تدور ^(١) وسبعة أيام من كل شهر عربي و يومين من كل شهر رومي ونحو ذلك ففي كثير منها وخاصة فيما يتعرض لنحوسة أيام الأسبوع و أيام الشهور العربية تعليل نحوسة اليوم بوقوع حوادث مرتبة غير مطلوبة بحسب المذاق الديني كرحلة النبي ﷺ وشهادة الحسين عليه السلام و إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار و نزول العذاب بأمة كذا و خلق النار و غير ذلك .

و معلوم أن في عدتها نحسة مشومة و تجنب اقتراب الأمور المطلوبة و طلب الحوائج التي يلتذ الإنسان بالحصول عليها فيها تحكيماً للتقوى وتقوية للروح الدينية

(١) أوردت منها في الجزء الرابع عشر من كتاب البحار أحاديث جمة .

(١) اربعاء لا تدور هي آخر اربعاء في الشهر .

و في عدم الاعتناء والاهتمام بها والاسترسال في الاشتغال بالسعى في كل ما تهواه النفس في أي وقت كان إضراباً عن الحق و هتكاً لحرمة الدين و إضراراً لأوليائه ، فتؤل نحوسة هذه الأيام إلى جهات من الشقاء المعنوي منبثقة عن علل و أسباب اعتبارية مرتبطة نوعاً من الارتباط بهذه الأيام تفيد نوعاً من الشقاء الديني على من لا يعتنى بأمرها .

و أيضاً قد ورد في عدة من هذه الروايات الاعتصام بالله بصدقة أو صوم أو دعاء أو قراءة شيء من القرآن أو غير ذلك لدفع نحوسة هذه الأيام كما عن مجالس ابن الشيخ بإسناده عن سهل بن يعقوب الملقب بأبي نواس عن العسكري عليه السلام في حديث قلت : يا سيدي في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد لما ذكر فيها من النجس والمخاوف فتدأني على الاحتراز من المخاوف فيها فإني أتنازعني في الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها ؟ فقال لي : يا سهل إن شيعتنا بولايتنا لعصمة لوسلكوا بها في لجة البحار الفائرة وسباسب^(١) البیداء الفائرة بين سباع و ذئاب و أعادي الجن و الإنس لأمنا من مخاوفهم بولايتهم لنا فثق بالله عز و جل و أخلص في الولاء لأنتمك الطاهرين و توجه حيث شئت و اقصد ما شئت . الحديث .

ثم أمره عليه السلام بشيء من القرآن والدعاء أن يقرأه و يدفع به نحوسة والشامة و يقصد ما شاء .

و في الخصال بإسناده عن محمد بن رباح الفلاح قال : رأيت أبا إبراهيم عليه السلام يحتجم يوم الجمعة فقلت : جعلت فداك تحتجم يوم الجمعة ؟ قال : أقرأ آية الكرسي فإني أهاج بك الدم ليلاً كان أو نهاراً فأقرأ آية الكرسي و احتجم .

و في الخصال أيضاً بإسناده عن محمد بن أحمد الدقاق قال : كتبت إلى أبي الحسن الثاني عليه السلام أسأله عن الخروج يوم الأربعاء لا تدور . فكتب عليه السلام : من خرج يوم الأربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة و قى من كل آفة و عوفي من كل عاهة و قضى الله له حاجته ، و كتب إليه مرة أخرى يسأله عن الحجامة يوم الأربعاء لا تدور .

فكتب ﷺ : من احتجم في يوم الأربعاء لا تدور خلافاً على أهل الطيرة عوفي من كل آفة ، ووقي من كل عاهة ، ولم ^(١) تخضر محاجمه .

و في معناها ما في تحف العقول : قال الحسين بن مسعود : دخلت على أبي الحسن عليّ بن محمد ﷺ و قد نكبت اصبعي و تلقاني راكب و صدم كتفي ، و دخلت في زحمة فخر قوا عليّ بعض ثيابي فقلت : كفاني الله شرك من يوم فما أيشمك . فقال ﷺ لي : يا حسن هذا و أنت تغشانا ترمي بذنبك من لا ذنب له ؟

قال الحسن : فأنا ب إلى عقلي و تبيّنت خطاي فقلت : يا مولاي أستغفر الله . فقال : يا حسن ما ذنب الأيّام حتّى صرتم تتشأمون بها إذا جوزيتم بأعمالكم فيها ؟ قال الحسن : أنا أستغفر الله ابدا ، وهي توبتي يا بن رسول الله .

قال : ما ينفعكم و لكن الله يعاقبكم بذمّها على ما لاذمّ عليها فيه . أما علمت يا حسن أن الله هو المنيب والمعاقب والمجازي بالأعمال عاجلا و آجلا ؟ قلت : بلى يا مولاي . قال : لا تعد ولا تجعل للأيّام صنعا في حكم الله . قال الحسن : بلى يا مولاي . والروايات السابقة - ولها نظائر في معناها - يستفاد منها أن الملاك في نحوسة هذه الأيّام النحسات هو تطيّر عامّة الناس بها و للتطير تأثير نفساني كما سيأتي ، وهذه الروايات تعالج نحوستها التي تأتيها من قبل الطيرة بصرف النفس عن الطيرة إن قوي الإنسان على ذلك ، وبالاتجاء إلى الله سبحانه والاعتصام به بقرآن يتلوه أو دعاء يدعو به إن لم يقو عليه بنفسه .

و حمل بعضهم هذه الروايات المسلمة لنحوسة بعض الأيّام على التقيّة ، وليس بذلك البعيد فإن التشأم والتغال بالأزمنة والأمكنة والأوضاع والأحوال من خصائص العامّة يوجد منه عندهم شيء كثير عند الأمم والطوائف المختلفة على تشتمهم وتفرقهم منذ القديم إلى يومنا و كان بين الناس حتّى خواصهم في الصدر الأوّل في ذلك روايات دائرة يسندونها إلى النبي ﷺ لا يسع لأحد أن يردّها كما في كتاب المسلسلات

(١) هذه الجملة اشارة الى نفى ما في عدة من الروايات ان من احتجم في يوم الاربعاء

أو يوم الاربعاء لا تدور اخضرت محاجمه ، و في بعضها خيف عليه ان تخضر محاجمه .

باِسْناده عن الفضل بن الربيع قال : كنت يوماً مع مولاي المأمون فأردنا الخروج يوم الأربعاء فقال المأمون : يوم مكروه سمعت أبي الرشيد يقول : سمعت المهدي يقول : سمعت المنصور يقول : سمعت أبي محمد بن علي يقول : سمعت أبي علياً يقول : سمعت أبي عبد الله بن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن آخر الأربعاء في الشهر يوم نحس مستمر .

وأما الروايات الدالة على الأيام السعيدة من الأسبوع وغيرها فالوجه فيها نظير ما تقدمت إليه الإشارة في الأخبار الدالة على نحوستها من الوجه الأول فإن في هذه الأخبار تعليل بركة ما عدّه من الأيام السعيدة بوقوع حوادث متبركة عظيمة في نظر الدين كولادة النبي ﷺ وبعثته و كما ورد أنه ﷺ دعا فقال : اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم سبّتها وخميسها ، وما ورد أن الله ﷻ ألان الحديد لداود عليه السلام يوم الثلاثاء ، وأن النبي ﷺ كان يخرج للسفر يوم الجمعة ، وأن الأحد من أسماء الله تعالى .

فتبين مما تقدم على طوله أن الأخبار الواردة في سعادة الأيام ونحوستها لا تدل على أزيد من ابتنائهما على حوادث مرتبطة بالدين توجب حسناً وقبحاً بحسب الذوق الديني أو بحسب تأثير النفوس ، وأما اتصاف اليوم أو أي قطعة من الزمان بصفة الميمنة أو المشأمة واختصاصه بخواص تكوينية عن علل وأسباب طبيعية تكوينية فلا ، وما كان من الأخبار ظاهراً في خلاف ذلك فإما محمول على التقية أو لا اعتماد عليه .

٢ - في سعادة الكواكب ونحوستها وتأثير الأوضاع السماوية في الحوادث الأرضية سعادة ونحوسة . الكلام في ذلك من حيث النظر العقلي كالكلام في سعادة الأيام ونحوستها فلا سبيل إلى إقامة البرهان على شيء من ذلك كسعادة الشمس والمشتري وقران السعدين ونحوسة المريخ وقران النحسين والقمر في العقرب .

نعم كان القدماء من منجمي هند يرون للحوادث الأرضية ارتباطاً بالأوضاع السماوية مطلقاً أعين من أوضاع الثوابت والسيارات ، وغيرهم يرى ذلك بين الحوادث

و بين أوضاع السيارات السبع دون الثوابت و أوردوا لأوضاعها المختلفة خواص و آثاراً تسمى بأحكام النجوم يرون عند تحقق كل وضع أنه يعقب وقوع آثاره .
والقوم بين قائل بأن الأجرام الكوكبية موجودات ذات نفوس حيّة مريدة تفعل أفعالها بالعلية الفاعلية ، و قائل بأنها أجرام غير ذات نفس تؤثر أثرها بالعلية الفاعلية ، أو هي معدّات لفعله تعالى وهو الفاعل للحوادث أو أن الكواكب و أوضاعها علامات للحوادث من غير فاعلية ولا إعداد ، أو أنه لا شيء من هذه الارتباطات بينها و بين الحوادث حتّى على نحو العلامية و إنّما جرت عادة الله على أن يحدث حادثة كذا عند وضع سماوي كذا .

و شيء من هذه الأحكام ليس بدائمي مطّرد بحيث يلزم حكم كذا وضعاً كذا فربما تصدق وربما تكذب لكن الذي بلغنا من عجائب القصص والحكايات في استخراجاتهم يعطى أن بين الأوضاع السماوية والحوادث الأرضية ارتباطاً إلا أنه في الجملة لا بالجملة كما أن بعض الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يصدق ذلك كذلك .
و على هذا لا يمكن الحكم البتّي بكون كوكب كذا أو وضع كذا سعداً أو نحساً و أمّا أصل ارتباط الحوادث والأوضاع السماوية والأرضية بعضها ببعض فليس في وسع الباحث الناقد إنكار ذلك .

و أمّا القول بكون الكواكب أو الأوضاع السماوية ذات تأثير فيما دونها سواء قيل بكونها ذات نفوس ناطقة أو لم يقل فليس ممّا يخالف شيئاً من ضروريات الدين إلا أن يقال بكونها خالقة موجدة لما دونها من غير أن ينتهي ذلك إليه تعالى فيكون شركاً لكنّه لا قائل به حتّى من وثنية الصابئة التي تعبد الكواكب ، أو أن يقال بكونها مدبرة للنظام الكوني مستقلة في التدبير فيكون ربوبية تستعقب المعبودية فيكون شركاً كما عليه الصابئة عبدة الكواكب .

و أمّا الروايات الواردة في تأثير النجوم سعداً و نحساً و تصديقا و تكذيبا فهي كثيرة جداً على أقسام :

منها ما يدل بظاهره على تسليم السعادة والنحوسة فيها كما في الرسالة الذهبية

عن الرضا عليه السلام : اعلم أن جماعهن والقمر في برج الحمل أو الدلو من البروج أفضل وخير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرف القمر .

وفي البحار عن النوادر بإسناده عن حمران عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من سافر أو تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى الخبر ، وفي كتاب النجوم لابن طاووس عن علي عليه السلام : يكره أن يسافر الرجل في محاق الشهر وإذا كان القمر في العقرب .

ويمكن حمل أمثال هذه الروايات على التقيّة على ما قيل ، أو على مقارنة الطيرة العامة كما ربما يشعر به ما في عدة من الروايات من الأمر بالصدقة لدفع النحوسة كما في نوادر الراوندي بإسناده عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده في حديث : إذا أصبحت فتصدّق بصدقة تذهب عنك نحس ذلك اليوم ، وإذا أمسيت فتصدّق بصدقة تذهب عنك نحس تلك الليلة الخبر ، ويمكن أن يكون ذلك لارتباط خاص بين الوضع السماوي والحادثة الأرضية بنحو الاقتضاء .

ومنها ما يدل على تكذيب تأثيرات النجوم في الحوادث والنهي الشديد عن الاعتقاد بها والاشتغال بعلمها كما في نهج البلاغة : المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكاfer والكافر في النار . ويظهر من أخبار آخر تصدّقها وتجوز النظر فيها أن النهي عن الاشتغال بها والبناء عليها إنما هو فيما اعتقد لها استقلال في التأثير لتأديته إلى الشرك كما تقدّم .

ومنها ما يدل على كونه حقاً في نفسه غير أن قليله لا ينفع وكثيره لا يدرك كما في الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن سيابة قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : جعلت فداك إن الناس يقولون : إن النجوم لا يحل النظر فيها وهو يعجبني فإن كانت تضرّ بديني فلاحاجة لي في شيء يضرّ بديني ، وإن كانت لا تضرّ بديني فوالله إنني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها . فقال : ليس كما يقولون لا يضرّ بدئك ثم قال : إنكم تنظرون في شيء منها كثيره لا يدرك وقليله لا ينتفع به . الخبر .

وفي البحار عن كتاب النجوم لابن طاووس عن معاوية بن حكيم عن محمد بن زياد عن محمد بن يحيى الخثعمي قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن النجوم حق هي ؟ قال لي :

نعم . فقلت له : و في الأرض من يعلمها ؟ قال : نعم و في الأرض من يعلمها ، وفي عدة من الروايات : ما يعلمها إلا أهل بيت من الهند و أهل بيت من العرب و في بعضها : من قریش .

و هذه الروايات تؤيد ما قدّمناه من أن بين الأوضاع والأحكام ارتباطاً ما في الجملة .

نعم ورد في بعض هذه الروايات أن الله أنزل المشتري على الأرض في صورة رجل فلقي رجلاً من العجم فعلمه النجوم حتى ظن أنه بلغ ثم قال له : انظر أين المشتري ؟ فقال : ما أراه في الفلك و ما أدري أين هو ؟ فمحمّ وأخذ بيد رجل من الهند فعلمه حتى ظن أنه قد بلغ و قال : انظر إلى المشتري أين هو ؟ فقال : إن حسابي ليدلّ على أنك أنت المشتري قال : فشقق شقّة فمات و ورث علمه أهله فالعلم هناك . الخبر ، و هو أشبه بالموضوع .

٣ - في التّفأل والتّطير وهما الاستدلال بحادث من الحوادث على الخير و ترقيبه و هو التّفأل أو على الشرّ و هو التّطير و كثيراً ما يؤثّران و يقع ما يترقّب منهما من خير أو شرّ و خاصّة في الشرّ و ذلك تأثير نفسانيّ .

و قد فرّق الإسلام بين التّفأل و التّطير فأمر بالتّفأل و نهى عن التّطير ، و في ذلك تصديق لكون ما فيهما من التأثير تأثيراً نفسانياً .

أمّا التّفأل ففيما روي عن النبي ﷺ : تغالوا بالخير تجدوه ، و كان ﷺ كثير التّفأل نقل عنه ذلك في كثير من مواقفه^(١) .

و أمّا التّطير فقد ورد في مواضع من الكتاب نقله عن أمم الأنبياء في دعوتهم لهم حيث كانوا يظهرون لأنبيائهم أنهم أطبّروا بهم فلا يؤمنون ، وأجاب عن ذلك أنبياءهم

(١) كما ورد في قصة الحديدية : جاء سهيل بن عمرو فقال صلى الله عليه و آله : قد

سهل عليكم أمركم . و كما في قصة كتابه الى خسرو پرويز يدعو الى الاسلام فمزق كتابه

و أرسل اليه قبضة من تراب فتعال صلى الله عليه و آله منه أن المؤمنين سيملكون أرضهم .

بما حاصله أن التطيّر لا يقلّب الحقّ باطلا ولا الباطل حقاً ، وأنّ الأمر إلى الله سبحانه لا إلى الطائر الذي لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملك لغيره الخير والشرّ والسعادة والشقاء قال تعالى : « قالوا إنّنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسننكم منّا عذاب أليم قالوا طائركم معكم » يس : ١٩ أي ما يجزّ إليكم الشرّ هو معكم لا معنا ، وقال : « قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله » النمل : ٢٧ أي الذي يأتيكم به الخير أو الشرّ عند الله فهو الذي يقدر فيكم ما يقدر لا أنا و من معي فليس لنا من الأمر شيء .

وقد وردت أخبار كثيرة في النهي عن الطيرة وفي دفع شؤمها بعدم الاعتناء أو بالتوكّل والدعاء ، وهي يؤيد ما قدّمناه من أنّ تأثيرها من التأثيرات النفسانية ففي الكافي بإسناده عن عمرو بن حريث قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : الطيرة على ما تجعلها إن هوّقتها تهوّنت ، وإن شدّتها تشدّت ، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً . ودلالة الحديث على كون تأثيرها من التأثيرات النفسانية ظاهرة ، ومثله الحديث المرويّ من طرق أهل السنّة : ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة والحسد والظنّ . قيل : فما نصنع؟ قال : إذا تطيّر فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق .

وفي معناه ما في الكافي عن القميّ عن أبيه عن النوفليّ عن السكونيّ عن أبي - عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كفارة الطيرة التوكّل . الخبر وذلك أنّ في التوكّل إرجاع أمر التأثير إلى الله تعالى ، فلا يبقى للشيء أثر حتّى يتضرّ به ، وفي معناه ما ورد من طرق أهل السنّة على ما في نهاية ابن الأثير : الطيرة شرك وما منّا إلّا ولكنّ الله يذهب به بالتوكّل .

وفي المعنى السابق ما روي عن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال : الشؤم للمسافر في طريقه سبعة أشياء : الغراب الناقع عن يمينه ، والكلب الناشر لذنبه ، والذئب العادي الذي يعوي في وجه الرجل وهو مقع على ذنبه ثمّ يرتفع ثمّ ينخفض ثلاثاً ، والطبي السانح عن يمين إلى شمال ، والبومة الصارخة ، والمرأة الشمطاء تلقى فرجها ، والأتان العضبان يعني الجذعاء فمن أوجس في نفسه منهنّ شيئاً فليقل : اعتصمت بك يا ربّ

من شرٍّ ما أجد في نفسى فيعصم من ذلك ^(١) .

و يلحق بهذا البحث الكلام في نحوسة سائر الأمور المعدودة عند العامة مشؤمة نحسة كالعطاس مرة واحدة عند العزم على أمر وغير ذلك وقد وردت في النهي عن التطير بها والتوكل عند ذلك روايات في أبواب متفرقة ، وفي النبوي المروي من طرق الفريقين : لا عدوى ^(٢) ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا شؤم ، ولا صفر ، ولا رضاع بعد فصال ولا تعرب بعد هجرة ، ولا صمت يوماً إلى الليل ، ولا طلاق قبل نكاح ، ولا عتق قبل ملك ، ولا يتم بعد إدراك .



قوله تعالى : « كذبت ثمود بالنذر » النذر إما مصدر كما قيل والمعنى كذبت ثمود بإيذار نبيهم صالح عليه السلام ، وإما جمع نذير بمعنى المنذر والمعنى كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحدة لا اختلاف فيها فيكون في معنى قوله : « كذبت ثمود المرسلين » الشعراء : ١٣١ ، وإما جمع نذير بمعنى الإيذار و مرجعه إلى أحد المعنيين السابقين .

قوله تعالى : « فقالوا أبشراً منّا واحداً نتبعه إنّنا إنّما لفي ضلال وسعر » تفرّيع على التكذيب و السعر جمع سعير بمعنى النار المشتعلة ، واحتمل أن يكون بمعنى الجنون وهو أنسب للسياق ، والظاهر أن المراد بالواحد الواحد العددي والمعنى كذبوا به فقالوا : أبشراً من نوعنا وهو شخص واحد لا عدة له ولا جموع معه نتبعه

(١) الخبر على ما في البحار المذكور في الكافي والخصال والمحاسن والفضائل وما في المتن

مطابق لبعض نسخ الفقه .

(٢) العدوى مصدر كالإعداد بمعنى تجاوز مرض المريض منه إلى غيره كما يقال في

الجرب والوباء والجدرى وغيرها والمراد بنفى العدوى كما يفيد مورد الرواية أن يكون العدوى مقتضى المرض من غير انتساب إلى مشية الله تعالى ، والهامة ما كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتل تصير طائراً يأوى إلى قبره و يصبح ويشتمكى العطش حتى يؤخذ بثأره والصفر هو التصغير عند سقاية الحيوان وغيره .

إِنَّا إِذَا مُسْتَقَرُّونَ فِي ضَلَالٍ عَجِيبٍ وَجَنُونَ .

فيكون هذا القول توجيهاً منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العدة والقوة و هم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالمملوك والعظماء وقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى طاعة نفسه ورفض طاعة عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله : « فأتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين » الشعراء : ١٥١ .

و لو أخذ الواحد واحداً نوعياً كان المعنى أبشراً هو واحد منّا أي هو مثلنا ومن نوعنا نتبعه ؟ وكانت الآية التالية مفسرة لها .

قوله تعالى : « عأُلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » الاستفهام كسابقه للإيثار والمعنى أنزل الوحي عليه واختص به من بيننا ولا فضل له علينا ؟ لا يكون ذلك أبداً ، والتعبير بالإلقاء دون الإزالة ونحوه للإشعار بالعجلة كما قيل .

و من المحتمل أن يكون المراد نفى أن يختص بالإلقاء الذكر من بينهم وهو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقاً وجاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع ؟ فتكون الآية في معنى قولهم له كما في سورة الشعراء : « ما أنت إلا بشر مثلنا » الشعراء : ١٥٤ .

و قوله : « بل هو كذاب أشر » أي شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كآيتين بعدها .

والمراد بالغد العاقبة من قولهم : إن مع اليوم غداً ، يشير سبحانه به إلى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم ؟

قوله تعالى : « إِنَّا مَرسلُوا النّاقَةَ فتنّة لّهم فارتقبهم واصطبر » في مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب والمقاديرهم سينزل عليهم العذاب لأننا فاعلون كذا وكذا ، والفتنة الامتحان والابتلاء، والمعنى إِنَّا مَرسلُونَ - على طريق الإعجاز -

الناقة التي يسألونها امتحاناً لهم فاتظرهم و اصبر على أذاهم .

قوله تعالى : « و نبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » ضمير الجمع الأول للقوم والثاني للقوم والناقة على سبيل التغليب ، والقسمة بمعنى المقسوم ، والشرب النصيب من شرب الماء ، والمعنى وخبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم وبين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم والناقة عند شربها قال تعالى : « قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم » الشعراء : ١٥٥ .

قوله تعالى : « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » المراد بصاحبهم عاقر الناقة ، والتعاطى التناول والمعنى فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها وقتلها .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » المحتظر صاحب الحظيرة وهي كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشية ، وهشيم المحتظر الشجر اليابس و نحوه يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد يسرنا » الخ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « كذب قوم لوط بالنذر » تقدم تفسيره في نظيره .

قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجّيناهم بسحر » الحاصب الريح التي تأتي بالحجارة والحصاء ، والمراد بها الريح التي أرسلت فرمتهم بسحجيل منضود .

وقال في مجمع البيان : سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال : رأيت زيداً سحراً من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت : أتيت به بسحر - بالفتح - و أتيت به سحر - من غير تنوين - انتهى والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر » « نعمة » مفعول له من « نجّيناهم » أي نجّيناهم ليكون نعمة من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا و جزاء الشكر لنا النجاة .

قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » ضمير الفاعل في « أنذرهم » للوط عليه السلام ، والبطشة الأخذة الشديدة بالعذاب ، والتماري الإصرار على الجدل

وإلقاء الشك ، و النذر الإِ نذار ، والمعنى واُقسم لقد خوّفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا في إنذاره و تخويفه .

قوله تعالى : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي و نذر » مرادته عن ضيفه طلبهم منه أن يسلم إليهم أضيافه وهم الملائكة ، وطمس أعينهم محوها و قوله : « فذوقوا عذابي و نذر » الثفات إلى خطابهم تشديدا و تقرّيباً ، والنذر مصدر أريد به ما يتعلّق به الإِ نذار و هو العذاب ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر » قال في مجمع البيان : و قوله : « بكرة » ظرف زمان فإنّ كان معرفة بأن تريد بكرة يومك تقول : أتيت بكرة و غدوة لم تصرّ فهما فبكرة هنا - وقد نوّن - نكرة ، والمراد باستقرار العذاب حلوله بهم و عدم تخلّفه عنهم .

قوله تعالى : « فكيف كان عذابي - إلى قوله - من مدّكر تقدّم تفسيره .
قوله تعالى : « و لقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » المراد بالنذر الإِ نذار ، و قوله : كذبوا بآياتنا « مفصول من غير عطف لكونه جواباً لسؤال مقدّر كأنّه لما قيل : « ولقد جاء آل فرعون النذر » قيل : فما فعلوا ؟ فأجيب بقوله : « كذبوا بآياتنا ، و فرّع عليه قوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

﴿ بحث روائي ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى : « و لقد يسّرنا القرآن للذكر » أخرج ابن أبي-حاتم عن ابن عباس : لولا أن الله يسّره على لسان آدميتين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلّم بكلام الله تعالى .

قال : و أخرج الديلمي مرفوعاً عن أنس مثله . ثم قال : و لعلّ خبر أنس إن صحّ ليس تفسيراً للآية .

اقول : وليس من البعيد أن يكون المراد المعنى الثاني الذي قدّمناه في تفسير الآية .

و في تفسير القمي في قوله : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » قال : صب بلا قطر « و فجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء » قال : ماء السماء و ماء الأرض « على أمر قد قدر و حملناه » يعنى نوحاً « على ذات ألواح و دسر » قال : الألواح السفينة و الدسر المسامير .

و فيه في قوله تعالى : « فنادوا صاحبهم » قال : قدار الذي عقر الناقة ، وقوله : « كهشيم » قال : الحشيش والنبات .

و في الكافي بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة قوم لوط قال : فكابروه يعنى لوطاً حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال : يا لوط دعهم فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل « فطمسنا على أعينهم » .





أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ
 نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ (٤٤) سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ
 مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)
 يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ (٤٨) أَنَا كُلَّ
 شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَ مَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةٍ بِالنَّبَرِ (٥٠)
 وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ (٥١) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي
 الزُّبُرِ (٥٢) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
 وَ نَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

﴿بيانات﴾

الآيات في معنى أخذ النتيجة مما أُعيد ذكره من الأنباء التي فيها مزدجروهي
 نبأ الساعة المذكور أولاً ثم أنباء الأمم الهالكة المذكورة ثانياً فهي تنعطف أولاً على
 أنباء الأمم الهالكة فتخاطب قوم النبي ﷺ أن كفاركم ليسوا خيراً من أولئك
 الأمم الطاغية الجبارة وقد أهلكهم الله على أذل وجه وأهونه ولالكم براءة مكتوبة من
 عذاب الله ، ولا أن جمعكم ينفعكم في الذب عن العقاب . ثم تنعطف إلى ما مر من نبأ
 الساعة بأنها موعدهم الصعب إن أجرموا و كذبوا والساعة أدهى وأمر ثم تشير إلى
 موطن المتقين يومئذ و عند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « أكفّاركم خير من أولئكم أم لكم براعة في الزبر ، الظاهر أنه خطاب لقوم النبي ﷺ من مسلم وكافر على ما تشعر به الإضافة في « كفّاركم » والخيرية هي الخيرية في زينة الدنيا وزخارف حياتها كالمال والبنين أو من جهة الأخلاق العامة في مجتمعهم كالسخاء والشجاعة والشفقة على الضعفاء ، والإشارة بأولئكم إلى الأقوام المذكورة أنباؤهم : قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون ، والاستفهام للإيثار .

والمعنى ليس الذين كفروا منكم خيراً من أولئكم الأمم المهلكين المعذبين حتى يشملهم العذاب دونكم .

ويمكن أن يكون خطاب « أكفّاركم » لخصوص الكفار بعناية أنهم قوم النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وفيهم كفّار وهم هم .

وقوله : « أم لكم براعة في الزبر » ظاهره أيضاً عموم الخطاب ، والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، وقد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء والمعنى بل ألكم براعة في الكتب السماوية التي نزلت من عند الله أنتم في أمن من العذاب والمواخذة وإن كفرتم وأجرتم وأفترقتم ما شئتم من الذنوب .

قوله تعالى : « أم يقولون نحن جميع منتصر » الجميع المجموع والمراد به وحدة مجتمعهم من حيث الإرادة والعمل ، والانتصار الانتقام أو التناصر كما في خطابات يوم القيامة : « مالكم لا تناصرون » الصافات : ٢٥ والمعنى بل أيقولون أي الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننقم من أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضاً فلا نهزم .

قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » اللام في « الجمع » للعهد الذكرى وفي « الدبر » الجنس ، وتولي الدبر الإدبار ، والمعنى سيهزم الجمع الذي يتبعون به ويولون الأدبار ويفرون .

وفي الآية إخبار عن مغلوبية وانهازم لجمعهم ، ودلالة على أن هذه المغلوبية انهازم منهم في حرب سيقدمون عليها ، وقد وقع ذلك في غزاة بدر ، وهذا من ملاحم القرآن الكريم .

قوله تعالى : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى و أمر » « أدهى » اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البلية المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل ، و « أمر » اسم تفضيل من المرارة ضدّ الحلاوة ، و في الآية إضراب عن إبعادهم بالإنهزام والعذاب الدنيوي إلى إبعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أُشير إلى نباها في أوّل الأنباء الزاجرة ، والكلام يفيد الترقّي .

والمعنى و ليس الإنهزام والعذاب الدنيوي تمام عقوبتهم بل الساعة التي أشرنا إلى نباها هي موعدهم والساعة أدهى من كلّ داهية و أمر من كلّ مر .

قوله تعالى : « إنّ المجرمين في ضلال وسعر » جمع سعي و هي النار المسعرة و في الآية تعليل لما قبلها من قوله : « والساعة أدهى وأمر » والمعنى إنّما كانت الساعة أدهى و أمر لهم لأنّهم مجرمون والمجرمون في ضلال عن موطن السعادة و هو الجنّة و نيران مسعرة .

قوله تعالى : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » السحب جرّ الإنسان على وجهه ، و « يوم » ظرف لقوله : « في ضلال وسعر » ، و « سقر » من أسماء جهنّم ومسّها هو إصابتها لهم بحرّها و عذابها .

والمعنى كونهم في ضلال وسعر في يوم يجرون في النار وجوههم يقال لهم : ذوقوا ما تصيبكم جهنّم بحرّها و عذابها .

قوله تعالى : « إنّنا كلّ شيء خلقناه بقدر » « كلّ شيء » منصوب بفعل مقدّر يدلّ عليه « خلقناه » والتقدير خلقنا كلّ شيء خلقناه ، و « بقدر » متعلّق بقوله : « خلقناه » والباء للمصاحبة والمعنى إنّنا خلقنا كلّ شيء مصاحباً لقدر .

وقدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه والحدّ والهندسة التي لا يتجاوزها شيء من جانبي الزيادة والنقيصة قال تعالى : « وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ فلكلّ شيء حدّ محدود في خلقه لا يتعداه و صراط ممدود في وجوده يسلكه ولا يتخطاه .

والآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة

كأنه قيل : لما ذا جوزي المجرمون بالضلال والسعر يوم القيامة وأذيقوا مس سقر ؟ فأجيب بقوله : «إنّا كل شيء خلقناه بقدر » ومحصله أن لكل شيء قدرا ومن القدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعا متكاثرا لأفراد بالتناسل اجتماعيا في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا الدائرة لحياته الآخرة الباقية ، وقدّر أن يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة فمن استجاب الدعوة فاز بالسعادة ودخل الجنة وجاور ربّه ، ومن ردّها وأجرم فهو في ضلال وسعر .

ومن الخطأ أن يقال : إنّ الجواب عن السؤال بهذا النحو من المصادرة الممنوعة في الاحتجاج فإنّ السؤال عن مجازاته تعالى إليّهم بالنار لا جراههم في معنى السؤال عن تقديره ذلك فمعنى السؤال لم قدّر الله للمجرمين المجازاة بالنار ؟ ومعنى الجواب أن الله قدّر للمجرمين المجازاة بالنار ، أو معنى السؤال لم يدخلهم الله النار ؟ ومعنى الجواب أن الله يدخلهم النار وذلك مصادرة بيّنة .

وذلك لأنّ بين فعلنا وبين فعله تعالى فرقا فإنا نتبع في أفعالنا القوانين والأصول الكلّية المأخوذة من الكون الخارجي والوجود العيني ، وهي الحاكمة علينا في إرادتنا وأفعالنا فإذا أكلنا لجوع أو شربنا لعطش فإنما نريد بذلك الشبع والرى لما حصلنا من الكون الخارجي أن الأكل يفيد الشبع والشرب يفيد الرى وهو الجواب لو سئلنا عن الفعل .

و بالجملة أفعالنا تابعة للقواعد الكلّية والضوابط العامّة المنتزعة عن الوجود العيني المتفرّعة عليه ، وأمّا فعله تعالى فهو نفس الوجود العيني ، والأصول العقلية الكلّية مأخوذة منه متأخّرة عنه محكومة له فلا تكون حاكمة فيه متقدّمة عليه قال تعالى : « لا يسأل عمنّا يفعل وهم يسألون » الأنبياء : ٢٣ ، وقال : « إنّ الله يفعل ما يشاء » الحج : ١٨ ، وقال : « الحقّ من ربّك » آل عمران : ٦٠ .

فلا سؤال عن فعله تعالى بلم بمعنى السؤال عن السبب الخارجي إن لا سبب دونه يعينه في فعله ، ولا بمعنى السؤال عن الأصل الكلّي العقلي الذي يصحّح فعله إن - الأصول العقلية منتزعة عن فعله متأخّرة عنه .

نعم وقع في كلامه سبحانه تعليل الفعل بأحد ثلاثة أوجه :

أحدها تعليل الفعل بما يترتب عليه من الغايات والفوائد العائدة إلى الخلق لا إليه ، لكنّه تعليل للفعل لا لكونه فعلاً له سبحانه بل لكونه أمراً واقعاً في صفّ الأسباب والمسبّبات كما في قوله تعالى : « ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ، المائدة : ٨٢ وقال : « وضربت عليهم الذلّة والمسكنة - إلى أن قال - ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، البقرة : ٦١ .

الثاني تعليل فعله تعالى بشيء من أسمائه وصفاته المناسبة له كتعليله تعالى مضامين كثير من الآيات في كلامه بمثل قوله : « إنّ الله غفور رحيم » « وهو العزيز الحكيم » « وهو اللطيف الخبير » إلى غير ذلك وهو شائع في القرآن الكريم ، وإذا أُجِدت التأمل في موارد وجدها من تعليل الفعل بماله من صفة خاصّة بصفة عامّة لفعله تعالى فإنّ أسماءه تعالى الفعلية منتزعة عن فعله العام فتعليل فعل خاص بصفة من صفاته واسم من أسمائه تعليل الوجه الخاص في الفعل بالوجه العام فيه كقوله تعالى : « وكأيتن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » العنكبوت : ١٦ يعلّل قضاء حاجة الدواب والانسان إلى الرزق المسؤول بلسان حاجتها بأنّه سميع عليم أي إنّهُ خلق كل شيء والحال أنّ مسائلهم مسموعة له وأحوالهم معلومة عنده وهما صفتا فعله العام ، وقوله : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنّهُ هو التواب الرحيم » البقرة : ٣٧ يعلّل توبته على آدم بأنّه تواب رحيم أي صفة فعله هي التوبة والرحمة .

الثالث تعليل فعله الخاص بفعله العام و مرجعه في الحقيقة إلى الوجه الثاني كقوله : « إنّ المجرمين في ضلال وسعر - إلى أن قال - إنّنا كلّ شيء خلقناه بقدر » فإنّ القدر هو كون الشيء محدوداً لا يتخطى حده في مسير وجوده فعل عام له تعالى لا يخلو عنه شيء من الخلق فتعليل العذاب بالقدر من تعليل فعله الخاص بفعله العام و بيان أنّه مصداق من مصاديق القدر إذ كان من المقدّر في الانسان أن لو أجرم

برد دعوة النبوة عذب ودخل النار يوم القيامة ، وكقوله : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » مريم : ٧١ يعلل الورود بالقضاء وهو فعل له عام والورود خاص بالنسبة إليه .

فتبين أن ما في كلامه من تعليل فعل من أفعاله إنما هو من تعليل الفعل الخاص بصفته العامة والعلة علة للإثبات لا للثبوت ، وليس من المصادر في شيء .

قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » قال في المجمع : اللمح النظر بالعجلة وهو خطف البصر انتهى .

والمراد بالأمر ما يقابل النهي لكنّه الأمر التكويني بإرادة وجود الشيء قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ فهو كلمة كن وعلمه لكونه كلمة اعتبر الخبر مؤثماً ف قيل : « إلا واحدة » .

والذي يفيد السياق أن المراد بكون الأمر واحدة أنه لا يحتاج في مضيته و تحقق متعلقه إلى تعدد وتكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمة كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأن ومهل حتى يحتاج إلى الأمر ثانياً و ثالثاً .

و تشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفادة أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق الملح بالبصر بل لإفادة أنه لا يحتاج في تأثيره إلى مضي زمان ولو كان قصيراً فإن التشبيه باللمح بالبصر في الكلام يكتفى به عن ذلك ، فأمره تعالى وهو إيجاد وإرادة وجوده لا يحتاج في تحققه إلى زمان ولا مكان ولا حركة كيف لا؟ ونفس الزمان والمكان والحركة إنما تحققت بأمره تعالى .

والآية وإن كانت بحسب مؤداهما في نفسها تعطي حقيقة عامة في خلق الأشياء وأن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر وإن كان من حيث إنه وجود شيء كذا تدريجياً حاصل شيئاً فشيئاً .

إلا أنها بحسب وقوعها في سياق إبعاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظرة إلى إتيان الساعة وأن أمراً واحداً منه تعالى يكفي في قيام الساعة وتجديد الخلق بالبعث والنشور فتكون متممة لما أقيم من الحجّة بقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

فيكون مفاد الآية الأولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة ولا محيص عنه بحسب الإرادة الإلهية لأنه من القدر ، و مفاد هذه الآية أن تحقق الساعة التي يعتدّون فيها بمضي هذه الإرادة وتحقيق متعلقها لا مؤنة فيه عليه سبحانه لأنه يكفي فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر .

قوله تعالى : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر » ، الأشياع جمع شيعة والمراد - كما قيل - الأشباه والأمثال في الكفر وتكذيب الأنبياء من الأمم الماضية . والمراد بالآية والآيتين بعدها تأكيد الحجّة السابقة التي أقيمت على شمول العذاب لهم لا محالة .

ومحصل المعنى أن ليس ما أنذركم به من عذاب الدنيا و عذاب الساعة مجرّد خبر أخبرناكم به ولا قول ألقيناه إليكم فهذه أشياعكم من الأمم الماضية شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم و هو عذابهم في الدنيا و سيلقون عذاب الآخرة فإن أعمالهم مكتوبة مضبوطة في كتب محفوظة عندنا سنحاسبهم بها و نجازيهم بما عملوا .

قوله تعالى : « وكلّ شيء فعلوه في الزبر و كلّ صغير و كبير مستطير » الزبر كتب الأعمال و تفسيره باللوح المحفوظ سخيّف ، والمراد بالصغير والكبير صغير الأعمال و كبيرها على ما يفيد السياق .

قوله تعالى : « إن المتّقين في جنّات و نهر » أى في جنّات عظيمة الشأن بالغة الوصف و نهر كذلك ، قيل : المراد بالنهر الجنس ، وقيل : النهر بمعنى السعة . **قوله تعالى :** « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » المقعد المجلس ، والمليك صيغة مبالغة للملك على ما قيل ، وليس من إشباع كسر لام الملك ، والمقتدر القادر العظيم القدرة و هو الله سبحانه .

والمراد بالصدق صدق المتّقين في إيمانهم و عملهم أضيف إليه المقعد لملازمة ما ويمكن أن يراد به كون مقامهم و مالهم فيه صدقاً لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبة معه ، و قرب لا بعد معه ، ونعمة لا نقمة معها ، وسرور لا غمّ معه ، و بقاء لا فناء معه . ويمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنّه تبشير و وعد جميل للمتّقين

و على هذا ففيه نوع مقابلة بين وصف عاقبة المتقين والمجرمين حيث أُوعد المجرمون بالعذاب والضلال و قرّر ذلك بأنّه من القدر ولن يتخلّف ، و وعد المتّقون بالثواب والحضور عند ربّهم المليك المقدر و قرّر ذلك بأنّه صدق لا كذب فيه .

﴿ بحث روائى ﴾

في كمال الدين باسناده إلى عليّ بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الرقى أتدفع من القدر شيئاً ؟ فقال : هي من القدر .

و قال : إنّ القدريّة مجوس هذه الامة و هم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه و فيهم نزلت هذه الآية : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنّنا كلّ شيء خلقناه بقدر » .

أقول : المراد بالقدريّة النافون للقدر وهم المعتزلة القائلون بالتفويض، وقوله: إنّهم مجوس هذه الامة ذلك لقولهم : إنّ خالق الأفعال الاختياريّة هو الإنسان والله خالق لما وراء ذلك فأنبتوا إلهين اثنين كما أثبتت المجوس إلهين اثنين خالق الخير و خالق الشرّ .

و قوله : أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه ، و ذلك أنّهم قالوا بخلق الانسان لأفعاله فراراً عن القول بالجبر المنافي للعدل فأخرجوا الله من سلطانه على أعمال عباده بقطع نسبتها عنه تعالى .

و قوله : « وفيهم نزلت هذه الآية » الخ المراد به جري الآيات فيهم دون كونهم سبباً للنزول و مورداً له لما عرفت في تفسير الآيات من كونها عامّة بحسب السياق و في نزول الآيات فيهم روايات أخرى مروية عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام ، و من طرق أهل السنّة أيضاً روايات في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر و محمد بن كعب و غيرهم .

و في الدر المنثور أخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله

إن لكل أمة مجوسا وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر . الخبر .
اقول : ورواه في ثواب الأعمال بإسناده عن الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام
 ولفظه لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر .
 وفيه أخرج ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ
 النهر الفضاء والسعة ليس بنهر جار .
 وفيه أخرج أبو نعيم عن جابر قال : بينا رسول الله ﷺ يوما في مسجد المدينة
 فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي ﷺ : يا أبا دجانة أما علمت أن من أحببنا
 وابتلى بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ؟ ثم تلا « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .
 وفي روح المعاني في قوله : « في مقعد صدق » الآية وقال جعفر الصادق رضي
 الله عنه : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق .

﴿ كلام في القدر ﴾

القدر هو هندسة الشيء وحيده وجوده مما تكرر ذكره في كلامه تعالى فيما
 تكلم فيه في أمر الخلقة قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا
 بقدر معلوم » الحجر : ٢١ و ظاهره أن القدر ملازم للإتزال من الخزائن الموجودة
 عنده تعالى ، وأما نفس الخزائن وهي من إبداعه تعالى لا معالة فهي غير مقدرة بهذا
 القدر الذي يلزم الإتزال ، والإتزال إصداره إلى هذا العالم المشهود كما يفيد قوله :
 « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ وقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج »
 الزمر : ٦ .

ويؤيد ذلك ما ورد من تفسير القدر بمثل العرض والطول وسائر الحدود
 والخصوصيات الطبيعية الجسمانية كما في المحاسن عن أبيه عن يونس عن أبي الحسن
 الرضا عليه السلام قال : لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى . قلت : فما معنى شاء؟
 قال : ابتداء الفعل . قلت : فما معنى أراد؟ قال : الثبوت عليه . قلت : فما معنى قدر؟

قال : تقدير الشيء من طوله وعرضه . قلت : فما معنى قضى ؟ قال إذا قضى أمضاء فذلك الذي لا مرد له .

وروى هذا المعنى عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن إسحاق عن الرضا عليه السلام في خبر مفصل وفيه : فقال : أوتدري ما قدر ؟ قال : لا ، قال : هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء الخبر .

ومن هنا يظهر أن المراد بكل شيء في قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » الفرقان : ١ ، وقوله : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٢٩ وقوله : « و كل شيء عنده بمقدار » الرعد : ٨ وقوله : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ الأشياء الواقعة في عالمنا المشهود ، من الطبيعيات الواقعة تحت الخلق والتركيب أو أن التقدير مرتبتين : مرتبة تعم جميع ما سوى الله وهي تحديد أصل الوجود بالمكان والحاجة وهذا يعم جميع الموجودات ما خلا الله سبحانه قال تعالى : « و كان الله بكل شيء محيطا » النساء : ١٢٦ .

و مرتبة تخص عالمنا المشهود وهي تحديد وجود الأشياء الموجودة فيه من حيث وجودها وآثار وجودها وخصوصيات كونها بما أنها متعلقة الوجود والآثار بأُمور خارجة من العمل والشرائط فيختلف وجودها وأحوالها باختلاف عللها و شرائطها فهي مقلوبة بقوالب من داخل وخارج تعين لها من العرض والطول والشكل والهيئة وسائر الأحوال والأفعال ما يناسبها .

فالتقدير يهدي هذا النوع من الموجودات إلى ما قدر لها في مسير وجودها قال تعالى : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ أي هدى ما خلقه إلى ما قدر له ، ثم أتم ذلك بإمضاء القضاء ، وفي معناه قوله في الإنسان : « من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » عبس : ٢٠ ويشير بقوله : « ثم السبيل يسره » إلى أن التقدير لا يتنافى اختياريته أفعاله الاختياريته .

وهذا النوع من القدر في نفسه غير القضاء الذي هو الحكم البتّي منه تعالى بوجوده « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٢١ فربما قدر ولم يعقبه القضاء

كالقدر الذي يقتضيه بعض العلل والشرائط الخارجة ثم يبطل لمانع أو باستخلاف سبب آخر قال تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » الرعد : ٣٩ ، وقال : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » البقرة : ١٠٦ وربما قدر وتبعه القضاء كما إذا قدر من جميع الجهات باجتماع جميع علله و شرائطه و ارتفاع موانعه .

و إلى ذلك يشير قوله ﷺ في خبر المحاسن السابق : « إذا قضى أمضاء فذلك الذي لا مرد له » و قريب منه ما في عدة من أخبار القضاء والقدر ما معناه أن القدر يمكن أن يتخلف و أما القضاء فلا يرد .

و عن علي ﷺ بطرق مختلفة كما في التوحيد بإسناده عن ابن نباتة أن أمير المؤمنين ﷺ عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر ف قيل له : يا أمير المؤمنين نفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل .

و أما النوع الأول من الموجودات الذي قدره حد وجوده من إمكانه و حاجته فحسب بالقدر والقضاء فيه واحد ولا يتخلف القدر فيه عن التحقق البتة .

والبحث العقلي يؤيد ما تقدم فإن الأمور التي لها علل مركبة من فاعل ومادة و شرائط ومعدات و موانع فإن لكل منها تأثيراً في الشيء بدا يسانخه فهو كالقلب الذي يقلب به الشيء فيأخذ لنفسه هيئة قالبه و خصوصيته و هذا هو قدره ثم العلة التامة إذا اجتمعت أجزاؤه أعطته ضرورة الوجود ، و هذه هي القضاء الذي لا مرد له ، وقد تقدم في تفسير أول سورة الإسراء كلام في القضاء لا يخلو من نفع في هذا البحث فليرجع إليه .





﴿سورة الرحمن مكية أو مدنية وهي ثمان وسبعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا
فِي الْمِيزَانِ (٨) وَاقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١)
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ
نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا
بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا
الْمُلُوءُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنْمَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ
مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ
يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) .

﴿بيان﴾

تتضمن السورة الإشارة إلى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء وأرض وبرّ وبحر وإنس وجنّ ونظم أجزائه نظماً ينتفع به الثقلان الإنس والجنّ في حياتهما وينقسم بذلك العالم إلى نشأتين نشأة دنيا ستفنى بقاء أهلها ، و نشأة أخرى باقية تتميز فيها السعادة من الشقاء والنعمة من النعمة .

و بذلك يظهر أنّ دار الوجود من دنياها و آخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاد قويماً الأركان يصلح بعضه ببعض ويتم شطر منه بشطر .
فما فيه من عين وأثر ، من نعمه تعالى وآلائه ، ولذا يستفهمهم مرّة بعد مرّة استفهاماً مشوباً بعتاب بقوله : « فبأيّ آلاء ربكم تكذّبان » فقد كرّرت الآية في السورة إحدى و ثلاثين مرّة .

ولذلك افتتحت السورة بذكره تعالى بصفة رحمته العامّة الشاملة للمؤمن والكافر والدنيا والآخرة واختتمت بالثناء عليه بقوله : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » .

والسورة يحتمل كونها مكّيّة أو مدنيّة وإن كان سياقها بالسياق المكيّ أشبه وهي السورة الوحيدة في القرآن افتتحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عزّ اسمه، وفي المجمع عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لكلّ شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره ، ورواه في الدر المنثور عن البيهقي عن عليّ عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن » الرحمن كما تقدم في تفسير سورة الفاتحة صيغة مبالغة تدلّ على كثرة الرحمة ببذل النعم ولذلك ناسب أن يعمّ ما يناله المؤمن والكافر من نعم الدنيا وما يناله المؤمن من نعم الآخرة ، و لعمومه ناسب أن يصدر به الكلام لاشتمال الكلام في السورة على أنواع النعم الدنيويّة والأخرويّة التي ينتظم بها عالم الثقلين الإنس والجنّ .

ذكروا أن الرحمن من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمّى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم .

وقوله : « علم القرآن » شروع في عدد النعم الإلهية ، ولما كان القرآن أعظم النعم قدراً وشأناً وأرفعها مكاناً - لأنه كلام الله الذي يخط صراطه المستقيم ويتضمن بيان نهج السعادة التي هي غاية ما يأمله آمل ونهاية ما يسأله سائل - قدّم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس والجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما .

وحذف مفعول « علم » الأول وهو الإنسان أو الإنس والجن والتقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس والجن القرآن ، وهذا الاحتمال الثاني وإن لم يتعرّضوا له لكنّه أقرب الاحتمالين لأنّ السورة تخاطب في تضاعيف آياتها الجن كالإنس ولولا شمول التعليم في قوله : « علم القرآن » لهم لم يتم ذلك .

وقيل : المفعول المحذوف محمد ﷺ أو جبرئيل والأنسب للسياق ما تقدّم .

قوله تعالى : « خلق الإنسان علمه البيان » ذكر خلق الإنسان وسيذكر خصوصيّة خلقه بقوله : « خلق الإنسان من صلال كالفخار » ، والإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى وأهو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده إلى وجود غيره من المخلوقات والتأمل فيما خطّ له من طريق الكمال في ظاهره وباطنه ودنياه وآخرته قال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » التين : ٤ .

وقوله : « علمه البيان » البيان الكشف عن الشيء والمراد به الكلام الكاشف عما في الضمير ، وهو من أعجب النعم وتعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهية المتعلقة به فليس الكلام مجرد إبداع صوت ما باستخدام الربة وقصبتها والحلقوم ولا ما يحصل من التنوّع في الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفة في الفم .

بل يجعل الإنسان باٍ لهام باطني من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمدة على مخرج من مخارج الفم المسمّى حرفاً أو المرّكب من عدّة من الحروف علامة مشيرة إلى

مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع وإدراكه فيقدر به على إحضار أي وضع من أوضاع العالم المشهود وإن جل ما جل أودق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل ، ثم على إحضار أي وضع من أوضاع المعاني غير المحسوسة التي ينالها الإنسان بفكره ولا سبيل للحس إليها يحضرها جميعا لسامعه ويمثلها لحسه كأنه يشخصها له بأعيانها .

ولا يتم للإنسان اجتماعه المدني ولا تقدم في حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبهه لوضع وقتحه بذلك باب التفهيم والتفهيم ولولا ذلك لكان هو والحيوان العجم سواء في جهود الحياة وركودها .

ومن أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان إلى البيان بالهام إلهي له أصل في التكوين اختلاف اللغات باختلاف الأمم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاق النفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها قال تعالى : «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» الروم : ٢٢ .

وليس المراد بقوله : «علمه البيان» أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها للإنسان بالوحي إلى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه في ظرف الاجتماع مندفع بالطبع إلى اعتبار التفهيم والتفهيم بالإشارات والأصوات وهو التكلم والنطق لا يتم له الاجتماع المدني دون ذلك .

على أن فعله تعالى هو التكوين والإيجاد والرابطة بين اللفظ ومعناه اللغوي وضعيته اعتبارية لا حقيقة خارجية بل الله سبحانه خلق الإنسان وفطره فطرة تؤد به إلى الاجتماع المدني ثم إلى وضع اللغة بجعل اللفظ علامة للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ إلى سامعه فكأنما يلقي إليه المعنى ثم إلى وضع الخط بجعل الأشكال المخصوصة علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام ، وهو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى .

و بالجملة البيان من أعظم النعم والآلاء الربانية التي تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنساني وتهديه إلى كل خير .

هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين ، ولهم في معناهما أقوال : فقيل : الانسان هو آدم عليه السلام والبيان الأسماء التي علمه الله إياها ، وقيل : الانسان محمد عليه السلام والبيان القرآن أو تعليمه المؤمنين القرآن ، وقيل : البيان الخير والشر علمهما الإنسان وقيل : سبيل الهدى و سبيل الضلال إلى غير ذلك وهي أقوال بعيدة عن الفهم .

قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » الحسبان مصدر بمعنى الحساب ، والشمس مبتدأ والقمر معطوف عليه ، وبحسبان خبره ، والجملة خبر بعد خبر لقوله : « الرحمن » والتقدير الشمس والقمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجري .

قوله تعالى : « والنجم والشجر يسجدان » قالوا : المراد بالنجم ما ينجم من النبات ويطلع من الأرض ولاساق له ، والشجر ماله ساق من النبات ، وهو معنى حسن يؤيده الجمع و القرن بين النجم والشجر وإن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس والقمر كون المراد بالنجم هو الكواكب .

وسجود النجم والشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لهما كما قيل ، وأدق منه أنهما يضربان في التراب باصولهما وأعراقهما لجذب ما يحتاجان إليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها وهذا السقوط على الأرض إظهاراً للحاجة إلى المبدء الذي يقضي حاجتهما وهو في الحقيقة الله الذي يربيهما كذلك - سجود منهما له تعالى .

والكلام في إعراب قوله : « والنجم والشجر يسجدان » وهو معطوف على الآية السابقة كالكلام في قوله : « الشمس والقمر بحسبان » والتقدير والنجم والشجر يسجدان له . قال في الكشف : فإن قلت : كيف اتصل هاتان الجملةتان بالرحمان يعني قوله : « الشمس والقمر - إلى قوله - يسجدان » ؟ قلت : استغني فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسباناً وسجوداً له لا غيره .

وقال في وجه إخلاء الآيات السابقة - خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان - عن العاطف ما محصله أن هذه الجمل الأولى واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تفریع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه كما يبيك

منكر أبادي المنعم عليه من :لناس بتعديدها عليه فيقال : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه ؟
ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيك في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف فقيل : والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها « الخ انتهى .

قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان » المراد بالسماء إن كان جهة العلو فرفعها خلقها مرفوعة لرفعها بعد خلقها وإن كان ما في جهة العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعة بالنسبة إلى الأرض بالفتق بعد الارتق كما قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » الأ نبياء : ٣ . والرفع على أي حال رفع حسي .

و إن كان المراد ما يشمل منازل الملائكة الكرام ومصادر الأمر الإلهي والوحي فالرفع معنوي . أو ما يشمل الحسي والمعنوي .

وقوله : « ووضع الميزان » المراد بالميزان كل ما يوزن أي يقدر به الشيء أعم من أن يكون عقيدة أو قولاً أو فعلاً ومن مصاديقه الميزان الذي يوزن به الأثقال قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » الحديد : ٢٥ .

فظاهره سطلق ما يميز به الحق من الباطل والصدق من الكذب والعدل من الظلم والفضيلة من الرذيلة على ما هو شأن الرسول أن يأتي به من عند ربه .
وقيل : المراد بالميزان العدل أي وضع الله العدل بينكم لتسوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذي حق حقه .

وقيل : المراد الميزان الذي يوزن به الأثقال والمعنى الأول أوسع وأشمل .
قوله تعالى : « ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف وهو ميزان الأثقال فقوله : « ألا تطغوا » الخ على تقدير أن يراد بالميزان في الآية السابقة أيضاً ميزان الأثقال ، هو بيان وضع

الميزان ، والمعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا في وزن الأثقال ولا تطغوا فيه .

وعلى تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئي من حكم كليّ والمعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تنزوا الأثقال بالقسط ولا تطغوا فيه .

وعلى أي حال الظاهر أن «أن» في قوله : أن لا تطغوا تفسيرية ، و « لا تطغوا » نهى عن الطغيان في الميزان و «أقيموا الوزن بالقسط» أمر معطوف عليه ، والقسط العدل و «لاتخسروا الميزان» نهى آخر مبين لقوله : «لاتطغوا» الخ ومؤكّد له . والاختصار في الميزان التطفيف فيه بزيادة أو نقيصة بحيث يخسر البائع أو المشتري .

وأما جعل «أن» ناصبة و «لا تطغوا» نفية ، والتقدير : لثلاث تطغوا ، فيحتاج إلى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله : «وأقيموا الوزن» الخ .
قوله تعالى : «والأرض وضعها للأنام» الأنام الناس وقيل : الإانس والجن ، وقيل : كل ما يدب على الأرض ، وفي التعبير في الأرض بالوضع قبال التعبير في السماء بالرفع لطف ظاهر .

قوله تعالى : «فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام» المراد بالفاكهة الثمرة غير التمر ، والأكمام جمع كم بضم الكاف وكسرها وعاء التمر وهو الطلع ، و أمّاكم القميص فهو مضموم الكاف لا غير كما قيل .

قوله تعالى : «والحب ذوالعصف والريحان» معطوف على قوله : «فاكهة» أي وفيها الحب والريحان ، والحب ما يقات به كالحنطة والشعير والأرز ، والعصف ما هو كالغلاف للحب وهو قشره ، و فسر بورق الزرع مطلقاً و بورق الزرع اليابس ، و الريحان النبات الطيب الرائحة .

قوله تعالى : «فبأي آلاء ربكما تكذبان» الآلاء جمع إلى بمعنى النعمة . والخطاب في الآية لعامة الثقلين : الجن والانس و يدل على ذلك توجيه الخطاب إليهما صريحاً فيما سبأني من قوله : «سنفرغ لكم أيها الثقلان» وقوله : «يا معشر

الجنّ والإِنس الخ ، وقوله : « يرسل عليكم شواظ الخ فلا يصغى إلى قول من قال : إنّ الخطاب في الآية للذكر والأنثى من بني آدم ، ولا إلى قول من قال : إنّه من خطاب الواحد بخطاب الاثنين و يفيد تكرّر الخطاب نحو يا شرطيّ إضربا عنقه أى اضرِبْ عنقه اضرِبْ عنقه .

وتوجيه الخطاب إلى عالمي الجنّ والإِنس هو المصحح لعدّ ما سنذكره من شدائد يوم القيامة و عقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه ونعمه تعالى فإن سوق المسيئين و أهل الشقوة في نظام الكون إلى ما تقتضيه شقوتهم ومجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح النظام العامّ الجاري في الكلّ الحاكم على الجميع فذلك نعمة بالقياس إلى الكلّ وإن كان نعمة بالنسبة إلى طائفة خاصة منهم و هم المجرمون و هذا نظير ما نجده في السنن والقوانين الجارية في المجتمعات فإنّ التشديد على أهل البغي والفساد ممّا يتوقف عليه حياة المجتمع وبقاؤه وليس يتنعم به أهل الصلاح خاصة كما أنّ إثابة أهل الصلاح بالثناء الجميل والأجر الحسن كذلك .

فما في النار من عذاب و عقاب لأهلها و ما في الجنة من كرامة و ثواب وآلاء و نعم على معشر الجنّ والإِنس كما أنّ الشمس والقمر والسماء المرفوعة والأرض الموضوعة والنجم والشجر وغيرها آلاء و نعم على أهل الدنيا .
و يظهر من الآية أنّ الجنّ تنعماً في الجملة بهذه النعم المعدودة في خلال الآيات كما للإِنس وإلا لم يصحّ إشراكهم مع الإِنس في التوبيخ .

قوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » الصلصال الطين اليابس الذي يتردّد منه الصوت إذا وطئ ، والفخار الخزف .

والمراد بالإِنسان نوعه والمراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه إليه ، و قيل : المراد بالإِنسان آدم عليه السلام .

قوله تعالى : « و خلق الجنّ من مارج من نار » المارج هو اللهب الخالص من النار ، و قيل : اللهب المختلط بسواد ، والكلام في الجنّ كالكلام في الإنسان فالمراد به نوع الجنّ ، وعدّهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقهم إليها ، و قيل : المراد

بالجان أبو الجن .

قوله تعالى: «رب المشرقين ورب المغربين» المراد بالمشرقين مشرق الصيفو مشرق الشتاء ، وبذلك تحصل الفصول الأربعة وتنظم الأرزاق وقيل : المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر والمغربين مغرباهما .

قوله تعالى: «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» المرج الخلط و المرج الإرسال يقال : مرجه أي خلطه و مرجه أي أرسله والمعنى الأول أظهر ، و الظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات والملح الأجاج قال تعالى : «وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً و تستخرجون حلية تلبسونها» فاطر : ١٢

و أمثل ما قيل في الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذي يغمر قريباً من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من البحار والمحيطات و غير المحيطات ، والبحر العذب المدخر في مخازن الأرض التي تنفجر الأرض عنها فتجري العيون والأنهار الكبيرة فتصب في البحر المالح ، ولا يزالان يلتقيان ، و بينهما حاجز و هو نفس المخازن الأرضية والمجاري يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه ويد له بحرهما لحاول تبطل بذلك الحياة ، ويحجز البحر العذب أن يزيد في الانصباب على البحر المالح فيبد له ماء عذباً فتبطل بذلك مصلحة ملوحته من تطهير الهواء وغيره .

ولا يزال البحر المالح يمد البحر العذب بالأمطار التي تأخذها منه السحب فتطر على الأرض وتدخرها المخازن الأرضية و البحر العذب يمد البحر المالح بالانصباب عليه .

فمعنى الآيتين - والله أعلم - خلط البحرين العذب الفرات و الملح الأجاج حال كونهما مستمرين في تلاقيهما بينهما حاجز لا يبغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبة والملوحة فيختل نظام الحياة والبقاء .

قوله تعالى: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» أي من البحرين العذب والمالح جميعاً وذلك من فوائدهما التي ينتفع بها الإنسان ، وقد تقدم فيه الكلام في تفسير قوله

تعالى : «وما يستوي البحران» الآية الفاطر : ١٢ .

قوله تعالى : «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» الجواري جمع جارية و هي السفينة ، والمنشآت اسم مفعول من الإِشاء وهو إحداث الشيء وتربيته ، والأعلام جمع علم بفتحين وهو الجبل .

وعدّ الجواري مملوكة له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأنّ الأسباب العاملة في إنشائها من خشب و حديد و سائر أجزائها التي تتركب منها و الإنسان الكذي يركبها و شعوره و فكره و إرادته كلّ ذلك مخلوق له و مملوك فما ينتجه عملها من ملكه .

فهو تعالى المنعم بها للإنسان ألهمه طريق صنعها و المنافع المترتبة عليها و سبيل الانتفاع بمنافعها الجمّة .

قوله تعالى : «كلّ من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام» ضمير «عليها» للأرض أي كلّ ذي شعور و عقل على الأرض سيفنى و فيه تسجيل الزوال و الدنور على الثقلين .

و إنّما أتى باللفظ الدالّ على أُولي العقل - كلّ من عليها - و لم يقل : كلّ ما عليها كذلك لأنّ الكلام مسرود في السورة لتعداد نعمه و آلائه تعالى للثقلين في نشأتهم الدنيا و الآخرة .

و ظهور قوله : «فان» في الاستقبال كما يستفاد أيضاً من السياق يعطي أنّ قوله : «كلّ من عليها فان» يشير إلى انقطاع أمد النشأة الدنيا و ارتفاع حكمها بفناء من عليها و هم الثقلان و طلوع النشأة الأخرى عليهم، و كلاهما أعني فناء من عليها و طلوع نشأة الجزاء عليهم من النعم و الآلاء لأنّ الحياة الدنيا حياة مقدّمة لغرض الآخرة و الانتقال من المقدّمة إلى الغرض و الغاية نعمة .

و بذلك يندفع قول من قال : أيّ نعمة في الفناء حتّى يجعل من النعم و يعدّ من الآلاء .

و محصل الجواب أنّ حقيقة هذا الفناء الرجوع إلى الله بالانتقال من الدنيا كما

تفسره آيات كثيرة في كلامه تعالى وليس هو الفناء المطلق .

وقوله : « ويبقى وجه ربك » وجه الشيء ما يستقبل به غيره و يقصده به غيره ، وهو فيه سبحانه صفاته الكريمة التي تتوسط بينه وبين خلقه فتتزل بها عليهم البركات من خلق و تدبير كالعلم والقدرة والسمع والبصر والرحمة والمغفرة والرزق وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام مبسوط في كون أسمائه وصفاته تعالى وسائط بينه وبين خلقه .

وقوله : « ذو الجلال والإكرام » في الجلال شيء من معنى الاعتلاء و الترفع المعنوي على الغير فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو و التعالي و العظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة .

ويبقى للإكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويؤثره كالعلم والقدرة والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها و تسمى صفات الجمال كما تسمى القسم الأول صفات الجلال وتسمى الأسماء أيضا على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال بأسماء الجمال أو الجلال .

ف ذو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال وأسماء الجلال جميعا .

و المسمى به بالحقيقة هو الذات المقدسة كما في قوله في آخر السورة : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » لكن أجري في هذه الآية - ويبقى وجه ربك ذو - الجلال والإكرام - على الوجه ، وهو إما لكونه وصفاً مقطوعاً عن الوصفية للمدح ، والتقدير هو ذو الجلال والإكرام ، وإما لأن المراد بالوجه كما تقدم هو صفته الكريمة واسمه المقدس وإجراء الاسم على الاسم مآله إلى إجراء الاسم على الذات . و معنى الآية على تقدير أن يراد بالوجه ما يستقبل به الشيء غيره وهو الاسم - ومن المعلوم أن بقاء الاسم ^(١) فرع بقاء المسمى - : و يبقى ربك عز اسمه بماله من

(١) المراد بالاسم ما يحكى عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي .

الجلال والإكرام من غير أن يؤثر فناءهم فيه أثراً أو يُغيّر منه شيئاً .

و على تقدير أن يراد بالوجه ما يقصده به غيره ومصداقه كل ما ينتسب إليه تعالى فيكون مقصوداً بنحو للمتوجه إليه كأنيائه وأوليائه ودينه وثوابه وقربه و سائر ما هو من هذا القبيل فالمعنى : و يبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى وهو من صقعه و ناحيته كأنواع الجزاء والثواب و القرب منه قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ .

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » القصص : ٨٨ من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع في المقام .

قوله تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن » سؤال حاجة فهم في حاجة من جميع جهاتهم إليه تعالى متعلقوا الوجودات به متمسكون بذيل غناه وجوده قال تعالى : « أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » فاطر : ١٥ ، وقال في هذا المعنى من السؤال : « و آتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

وقوله : « كل يوم هو في شأن » تنكير « شأن » للدلالة على التفرق والاختلاف فالمعنى كل يوم هو تعالى في شأن غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين ولا يماثل شأن من شؤنه شأناً آخر من جميع الجهات وإنما يفعل على غير مثال سابق وهو الإبداع قال تعالى : « بدیع السماوات والأرض » البقرة : ١١٧ . و معنى ظرفية اليوم إحاطته تعالى في مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه في كل زمان و ليس في زمان و في كل مكان و ليس في مكان ومع كل شيء ولا يداني شيئاً .



﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ
الرحمان على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً فقال رسول الله ﷺ : الجن كانوا أحسن
جواباً منكم لما قرأت عليهم «فبأي آلاء ربكما تكذبان» قالوا : لا ولا بشيء من آلاء
ربنا تكذب .

اقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع - وصححه
- عن ابن عمر عنه ﷺ .

وفي العيون بإسناده عن الرضا ﷺ فيما سأل الشامي علياً ﷺ ، وفيه : سأله
عن اسم أبي الجن فقال : شومان وهو الذي خلق من مارج من نار .
وفي الاحتجاج عن علي ﷺ في حديث و أمّا قوله : «رب المشرقين و رب
المغربين» فإنّ مشرق الشتاء على حدة و مشرق الصيف على حدة . أمّا تعرف ذلك من
قرب الشمس وبعدها ؟

اقول : و روى هذا المعنى القمي في تفسيره مراسلاً مضمراً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « مرج البحرين
يلتقيان » قال : علي وفاطمة «بينهما برزخ لا يبغيان» قال : النبي ﷺ «يخرج منهما
اللؤلؤ والمرجان» قال : الحسن والحسين .

اقول : ورواه أيضاً عن ابن مردويه عن أنس بن مالك مثله ، ورواه في مجمع البيان
عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وسفيان الثوري . وهو من البطن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : «كل من عليها فان» قال : من على وجه الأرض
«و يبقى وجه ربك» قال : دين ربك ، وقال علي بن الحسين ﷺ : نحن الوجه الذي
يؤتي الله منه .

وفي مناقب ابن شهر آشوب قوله : «ويبقى وجه ربك» قال الصادق ﷺ : نحن
وجه الله .

اقول : وفي معنى هاتين الروایتين غيرهما ، وقد تقدّم ما يوجّه به تفسير الوجه بالدين و بالإمام .

وفي الكافي في خطبة لعلي عليه السلام : الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجائبه لأنّه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن .

وفي تفسير القمي في الآية قال : يحيي ويميت ويزيد وينقص .

وفي المجمع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « كل يوم هو في شأن » قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين .

اقول : ورواه عنه في الدر المنثور ، و روى ما في معناه عن ابن عمر عنه رضي الله عنهما ولفظه يغفر ذنباً ويفرج كرباً .





سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا
مَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ (٣٩)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمِيِّهُمْ فِئُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٤٦)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)
فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)
مُتَكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ

وَلَا جُنَّةَ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمِمَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)
 فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧)
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)
 فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ
 فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ
 وَلَا جَانٌ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ
 وَعَبَقَرِي حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ
 ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) .

﴿بيان﴾

هذا هو الفصل الثامن من آيات السورة يصف نشأة الثقلين الثانية وهي نشأة الرجوع إلى الله وجزاء الأعمال ويعدّ آلاء الله تعالى عليهم كما كانت الآيات السابقة فصلاً أوّلاً يصف النشأة الأولى ويعدّ آلاء الله فيها عليهم .

قوله تعالى: «سنفرغ لكم أيها الثقلان» يقال: فرغ فلان لاَمر كذا إذا كان مشغولاً قبلاً بأمر ثم تركها وقصر الاشتغال بذلك الأمر اهتماماً به .

فمعنى «سنفرغ لكم» سنطوي بساط النشأة الأولى ونشتغل بكم ، وتبيين الآيات

التالية أن المراد بالاستغلال بهم بعثهم و حسابهم ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شراً أقال فراغ لهم استعارة بالكناية عن تبدل النشأة .

ولا ينافي الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر إلى تبدل النشأة و كونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر إلى إطلاق القدرة وسعتها كما لا ينافي كونه تعالى كل يوم هو في شأن الناظر إلى اختلاف الشؤون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

والثقلان الجنّ والإِنس ، وإرجاع ضمير الجمع في «لكم» و «إن استطعتم» و غيرهما إليهما لكونهما جمعاً ذا أفراد .

قوله تعالى: «يا معشر الجنّ والإِنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا» الخ الخطاب - على ما يفيد السياق - من خطابات يوم القيامة وهو خطاب تعجيزي .

والمراد بالاستطاعة القدرة ، و بالنفوذ من الأقطار الفرار ، و الأقطار جمع قطر وهو الناحية .

والمعنى يا معشر الجنّ والإِنس - وقدّم الجنّ لأنّهم على الحركات السريعة أقدر - إن قدرتم أن تفرّوا بالنفوذ من نواحي السماوات والأرض والخروج من ملك الله والتخلّص من مؤاخذته ففرّوا وانفذوا .

وقوله : «لاتنفذون إلاّ بسلطان» أي لا تقدرّون على النفوذ إلاّ بنوع من السلطة على ذلك وليس لكم والسلطان القدرة الوجوديّة ، والسلطان البرهان أو مطلق الحجّة ، والسلطان الملك .

و قيل : المراد بالنفوذ المنفيّ في الآية النفوذ العلميّ في السموات والأرض من أقطارهما ، وقد عرفت أن السياق لا يلائمه .

قوله تعالى : « يرسل عليكم شواظ من نار و نحاس فلا تنتصرون » الشواظ - على ما ذكره الراغب - اللهب الذي لادخان فيه ، و يقرب منه ما في المجمع أنّه اللهب

الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس الدخان و قال الراغب : هو اللهب بلا دخان و المعنى ظاهر .

وقوله : «فلا تنتصران» أي لا تتناصران بأن ينصر بعضكم بعضاً لرفع البلاء والتخلص عن العناء لسقوط تأثير الأسباب ولا عاصم اليوم من الله .

قوله تعالى : «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان» أي كانت حمراء كالدهان و هو الأديم الأحمر .

قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » الآية و ما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة تصف الحساب و الجزاء تصف حال المجرمين و الخائفين مقام ربهم و ما ينتهي إليه .

ثم الآية تصف سرعة الحساب و قد قال تعالى : «والله سريع الحساب» النور : ٣٩ . والمراد بيومئذ يوم القيامة ، والسؤال المنفي هو النحو المألوف من السؤال ، و لا ينافي نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » الصافات : ٢٤ ، وقوله : « فو ربك لنسألنهم أجمعين » الحجر : ٩٢ لأن اليوم ذو مواقف مختلفة يسأل في بعضها ، و يختم على الأفواه في بعضها و تكلم الأعضاء ، و يعرف بالسيما في بعضها .

قوله تعالى : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام » في مقام الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم ؟ فأجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم الخ و لذا فصلت الجملة و لم يعطف ، و المراد بسيماهم علامتهم البارزة في وجوههم .

وقوله : « فيؤخذ بالنواصي و الأقدام » الكلام متفرّع على المعرفة المذكورة ، و النواصي جمع ناصية و هي شعر مقدّم الرأس ، و الأقدام جمع قدم ، و قوله : « بالنواصي » نائب فاعل يؤخذ .

و المعنى - لا يسأل أحد عن ذنبه - يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهرة في وجوههم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام من المجرمين فيلقون في النار .

قوله تعالى : «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون - إلى قوله - آن» مقول قول مقدر أي يقال يومئذ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون و قال الطبرسي : و يمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي والأقدام قال للنبي ﷺ : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم انتهى . والحميم الماء الحار - والآتي الذي انتهت حرارته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «ومن خاف مقام ربه جنتان» شروع في وصف حال السعداء من الخائفين مقام ربهم ، و المقام مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى فاعله ، و المراد قيامه تعالى عليه بعمله وهو إحاطته تعالى و علمه بما عمله و حفظه له و جزاؤه عليه قال تعالى : «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» الرعد : ٣٣ .

و يمكن أن يكون المقام اسم مكان و الإضافة لامية و المراد به مقامه و موقفه تعالى من عبده ، وهو أنه تعالى ربه الذي يدبر أمره و من تدبير أمره أنه دعاء بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح و قضى أن يجازيه على ما عمل خيراً أو شراً هذا و هو محيط به وهو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير .

والخوف من الله تعالى ربما كان خوفاً من عقابه تعالى على الكفر به و معصيته ، و لازمه أن يكون عبادة من يعبد خوفاً بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا - لوجه الله محضاً وهو عبادة العبيد يعبدون مواليهم خوفاً من السياسة كما أن عبادة من يعبد طمعاً في الثواب غايتها الفوز بما تشتهيئه النفس دون وجهه الكريم وهي عبادة التجار كما في الروايات وقد تقدم شرط منها .

و الخوف المذكور في الآية - و لمن خاف مقام ربه - ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب و هو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثير خاص ممن ليس له إلا الصغار و الحقارة تجاء ساحة العظمة والكبرياء ، و ظهور أثر المذلة والهوان و الاندكك قبال العزة و الجبروت المطلقين .

وعبادته تعالى خوفاً منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو -

الجلال والإكرام لا لخوف من عقابه ولا طمعاً في ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم ، وهذا المعنى من الخوف هو الذي وصف الله به المكرمين من ملائكته وهم معصومون آمنون من عقاب المخالفة و تبعه المعصية قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » النحل : ٥٠ .

فتبين مما تقدم أن الذين أشار إليهم بقوله : « ومن خاف » أهل الإخلاص الخاضعون لإجلاله تعالى العابدون له لأن الله عز اسمه لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في ثوابه ، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سموا سابقين في قوله : « و كنتم أزواجاً ثلاثه - إلى أن قال - والسابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ .

و قوله : « جنتان » قيل : إحداهما منزله و محلّ زيارة أحبّابه له و الأخرى منزل أزواجه وخدمه ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره و بستان خارجه ، و قيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذاذذ ، وقيل : جنة لعقيدته و جنة لعمله ، وقيل : جنة لفعل الطاعات و جنة لترك المعاصي ، وقيل : جنة جسمانية و جنة روحانية وهذه الأقوال - كما ترى - لادليل على شيء منها .

و قيل : جنة يثاب بها و جنة يتفضل بها عليه ، ويمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها و لدينا مزيد » ق : ٣٥ على ما مرّ في تفسيره .

قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ذواتا ثنية ذات ، و « أفنان » إمّا جمع فن بمعنى النوع والمعنى ذواتا أنواع من الثمار ونحوها ، وإمّا جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين والطيني ذواتا أغصان ليثة أشجارهما .

قوله تعالى : « فيهما عينان تجريان » و قد أبهمت العينان وفيه دلالة على فخامة أمرهما .

قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان » أي صنفان قيل : صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا و صنف غير معروف لم يروه في الدنيا ، وقيل : غير ذلك ، ولادلالة في الكلام على شيء من ذلك .

قوله تعالى : « متسكنين على فرش بطائنها من استبرق » الخ الفرش جمع فراش ، و

البطائن جمع بطانة وهي داخل الشيء وجوفه مقابل الظواهر جمع ظهارة ، والاستبرق الحرير الغليظ قال في المجمع : ذكر البطانة ولم يذكر الظهارة لأن البطانة تدل على أن لها ظهارة و البطانة دون الظهارة فدل على أن الظهارة فوق الاستبرق انتهى .
وقوله : «وجنا الجنة دان» الجنا الثمر المجتنى و «دان» اسم فاعل من الدنو بمعنى القرب أي ما يجتنى من ثمار الجنة قريب .

قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » إلى آخر الآية ضمير « فيهن » للفرش وجوز أن يرجع إلى الجنان فإنها جنان لكل واحد من أولياء الله منها جنتان ، و الطرف جفن العين ، والمراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم .
وقوله : «لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان» الطمئ الاقضاء والنكاح بالتدمية ، والمعنى لم يمسسهن بالنكاح إنس ولا جان قبل أزواجهن .

قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » أي في صفاء اللون و البهاء و التلاؤ .

قوله تعالى : «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» استفهام إنكاري في مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنة و ما فيهما من أنواع النعم والآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن إليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم .
و تفيد الآية أن ما أوتوه من الجنة و عييمها جزاء لأعمالهم و أما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلاً وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض في هذه الآيات لذلك إلا أن يقال : الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن إليه فإطلاق الإحسان في قوله : «إلا الإحسان» يفيد الزيادة .

قوله تعالى : «ومن دونهما جنتان» ضمير التثنية للجنة الموصوفتين في الآيات السابقة ، و معنى « من دونهما » أي أنزل درجة و أخط فضلاً و شرفاً منهما و إن كانتا شبيهتين بالجنة السابقتين في نعمهما و آلائهما ، و قد تقدم أن الجنة السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنة لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة و هم أصحاب اليمين .

وقيل : معنى « من دونهما » بالقرب منهما ويستفاد من السياق حينئذ أن هاتين الجنةين أيضا لأهل الجنةين المذكورين قبلابل ادعى بعضهم أن هاتين الجنةين أفضل من السابقتين والصفات المذكورة فيهما أمدح .

وأنت بالتدبر فيما قدّمناه في معنى لمن خاف مقام ربه وما يستفاد من كلامه تعالى أن أهل الجنة صنفان : المقرّ بون أهل الإخلاص وأصحاب اليمين تعرف قوة الوجه السابق .

قوله تعالى : « مدهامتان » الأدهيمام من الدهمة اشتداد الخضرة بحيث تضرب إلى السواد وهو ابتهاج الشجرة .

قوله تعالى : « فيهما عينان نضاختان » أي فوارتان تخرجان من منبعهما بالدفع .

قوله تعالى : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » المراد بالفاكهة والرمان شجرتهما بقرينة النخل .

قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان » ضمير « فيهن » للجنان باعتبار أنها جنستان جنستان من هاتين الجنةين ، وقيل : مرجع الضمير الجنات الأربع المذكورة في الآيات وقيل : الضمير للفاكهة والنخل والرمان .

وأكثر ما يستعمل الخير في المعاني كما أن أكثر استعمال الحسن في الصور ، و على هذا فمعنى خيرات حسان أنهن حسان في أخلاقهن حسان في وجوههن .

قوله تعالى : « حور مقصورات في الخيام » الخيام جمع خيمة وهي الفسطاط ، و كونهن مقصورات في الخيام أنهن مصونات غير مبتذلات لا نصيب لغير أزواجهن فيهن .

قوله تعالى : « لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » تقدّم معناه .

قوله تعالى : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » في الصحاح : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المجالس انتهى وقيل : هي الوسائد وقيل : غير ذلك والخضر جمع أخضر صفة لرفرف ، و العبقرى قيل : الزرابي ، وقيل : الطنافس ، وقيل :

التياب الموشاة ، وقيل : الديباج .

قوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » ثناء جميل له تعالى بما امتلأت النشأتان الدنيا والآخرة بنعمه وآلائه وبركاته النازلة من عنده برحمته الواسعة ، وبذلك يظهر أن المراد باسمه المتبارك هو الرحمن المفتحة به السورة ، والتبارك كثرة الخيرات والبركات الصادرة .

فقوله : « تبارك اسم ربك » تبارك الله المسمي بالرحمان بما أفاض هذه الآلاء .

وقوله : « ذي الجلال والإكرام » إشارة إلى تسميته بأسمائه الحسنی و اتصافه بما يدل عليه من المعاني الوصفية ونعوت الجلال والجمال ، ولصفات الفاعل ظهور في أفعاله وأثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق ونظم النظام لأنّه بديع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنّه علیم حكيم و جازى أهل الطاعة بالخير لأنّه ودود شكور غفور رحيم وأهل الفسق بالشر لأنّه منتقم شديد العقاب .

فتوصيف الرب - الذي أثنى على سعة رحمته - بذی الجلال والإكرام للإشارة إلى أن أسمائه الحسنی وصفاته العليا دخلاً في نزول البركات والخيرات من عنده ، وأنّ نعمه وآلاءه عليها طابع أسمائه الحسنی وصفاته العليا تبارك وتعالى .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : وقد جاء في الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة و بلسان من نار ثم ينادون « يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم - إلى قوله - يرسل عليكم شواظ من نار » .

اقول : و روى هذا المعنى عن مسعدة بن صدقة عن كليب عن أبي عبد الله عليه السلام . وفي الكافي بإسناده عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « و لمن خاف مقام ربه جنتان » قال : من علم أن الله يراه و يسمع ما يقول و يعلم ما يعمل من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف

مقام ربّه و نهى النفس عن الهوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قرء هذه الآية « ولمن خاف مقام ربّه جنتان » فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال النبي ﷺ الثانية « ولمن خاف مقام ربّه جنتان » فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال الثالثة : « ولمن خاف مقام ربّه جنتان » فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء .

اقول : الرواية لا تخلو من شيء فإنّ الخوف من مقامه تعالى لا يجامع هذه الكبائر المطبوقة ، وقد روي عن أبي الدرداء نفسه ما يدفع هذه الرواية ففي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى آل معاوية عن أبي الدرداء في قوله : « ولمن خاف مقام ربّه جنتان » قال : قيل : يا أبا الدرداء وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربّه لم يزن ولم يسرق .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « قاصرات الطرف » قال : الحور العين يقصر الطرف عنها من ضوء نورها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله : « قاصرات الطرف » قال : لا ينظرن إلا إلى أزواجهن .

وفي المجمع في قوله تعالى : « كأنهن الياقوت والمرجان » في الحديث أن المرأة من أهل الجنة يرى مخّ ساقها من وراء سبعين حلة من حرير .

اقول : وهذا المعنى وارد في عدة روايات .

وفي تفسير العياشي بإسناده عن علي بن سالم قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : آية في كتاب الله مسجلة . قلت : وما هي ؟ قال : قول الله عز وجل : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جرى في الكافر والمؤمن والبر والفاجر ، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئه به ، وليس المكافاة أن يصنع كما صنع حتى يربي فإن صنعت

كما صنع كان له الفضل بالابتداء .

و في المجمع في قوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جاءت الرواية من أنس بن مالك قال : قرء رسول الله ﷺ هذه الآية فقال : هل تدرون ما يقول ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم يقول : هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة؟

و في تفسير القمي في الآية قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالمعرفة إلا الجنة .
اقول : الرواية مروية عن النبي ﷺ و أئمة أهل البيت عليهم السلام و قد أسندها في التوحيد إلى جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ - و لفظها - إن الله عز وجل قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة و أسندها في العلل إلى الحسن بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ - واللفظ - هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة؟

و روى الرواية بألفاظها المختلفة في الدر المنثور بطرق مختلفة عن النبي ﷺ :
و قوله : أنعمت عليه ، إشارة إلى أن إحسان العبد بالحقيقة إحسان من الله إليه .
و في المجمع في قوله تعالى : « ومن دونهما جنتان » عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له : إن الناس يتعجبون منا إذا قلنا : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة فيقولون لنا فيكونون مع أولياء الله في الجنة؟ فقال يا علي إن الله يقول : « ومن دونهما جنتان » ما يكونون مع أولياء الله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي موسى عن النبي ﷺ في قوله : « و لمن خاف مقام ربه جنتان » و قوله : « و من دونهما جنتان » قال : جنتان من ذهب للمقرئين و جنتان من ورق لأصحاب اليمين .

اقول : والروايتان تؤيدان ما قد مناه في تفسير الآيتين .
و فيه أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي أيوب قال : سألت النبي ﷺ عن قوله : « مدهامتان » قال : خضراوان .

و في تفسير القمي بإسناده إلى يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله

تعالى : «نضاً خثان» قال : تفوران .

و فيه في قوله : «فيهن خيرات حسان» قال : جوار نابتات على شط الكوثر كلما أخذت منها نبتت مكانها أخرى .

و في المجمع في قوله : «خيرات حسان أي نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه .
روته أم سلمة عن النبي ﷺ .

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام : الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا و هن أجمل من الحور العين .

و في روضة الكافي بإسناده عن الحلبي قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل : «فيهن خيرات حسان» قال : هن صوالح المؤمنات العارفات .

اقول : وفي انطباق الآية بالنظر إلى سياقها على مورد الروايتين إبهام .



﴿سورة الواقعة مكيّة وهي ست وتسعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)
خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥)
فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) وَكُنُتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ
مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ (٩) وَ
السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)

﴿بيان﴾

تصف السورة القيامة الكبرى التي فيها بعث الناس وحسابهم و جزاؤهم فتذكر
أولاً شيئاً من أهوالها مما يقرب من الإنسان و الأرض التي يسكنها فتذكر تقلبيها
للأوضاع و الأحوال بالخفض و الرفع و ارتجاج الأرض و انبثاث الجبال و تقسيم
الناس إلى ثلاثة أزواج إجمالاً ثم تذكر ما ينتهي إليه حال كل من الأزواج : السابقين
أصحاب اليمين و أصحاب الشمال .

ثم "تحتج" على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته و للبعث المكذّبين للقرآن
الداعي إلى التوحيد و الإيمان بالبعث . ثم "تختم" الكلام بذكر الاحتضار بفرزول الموت
و انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج .
و السورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة » وقوع الحادثة هو حدوثها ، و الواقعة صفة
توصف بها كل حادثة ، و المراد بها ههنا واقعة القيامة و قد أُطلقت إطلاقاً عاماً
كأنها لا تحتاج إلى موصوفٍ مقدّر ولذا قيل : إنها من أسماء القيامة في القرآن كالحاقة

و القارعة و الغاشية .

و الجملة « إذا وقعت الواقعة » مضمّنة معنى الشرط و لم يذكر جزاء الشرط إعظاماً له و تفخيماً لأمره و هو على أيّ حال أمر مفهوم ممّا ستصفه السورة من حال الناس يوم القيامة ، و التقدير نحو من قولنا : فاز المؤمنون و خسر الكافرون .

قوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبة » قال في المجمع : الكاذبة مصدر كالعافية و العاقبة انتهى و عليه فالمعنى ليس في وقوعها و تحققها كذب ، و قيل : كاذبة صفة محدوفة الموصوف و التقدير ليس لوقعتها قضية كاذبة .

قوله تعالى : « خافضة رافعة » خبران مبتداهما الضمير الراجع إلى الواقعة و الخفض خلاف الرفع و كونها خافضة رافعة كناية عن تقلبها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر و هي محجوبة اليوم و تحجب وتستتر آثار الأسباب و روابطها و هي ظاهرة اليوم و تذلل الأعرّة من أهل الكفر و الفسق و تعزّ المتّقين .

قوله تعالى : « إذا رجّت الأرض رجاً » الرجّ تحريك الشيء تحريكاً شديداً إشارة إلى زلزلة الساعة التي يعظمها الله سبحانه في قوله : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » الحج : ١ ، و قد عظمها في هذه الآية حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكّد شدتها بتكثير قوله : « رجاً » أي رجاً لا يوصف شدته . و الجملة بدل أو بيان لقوله : « إذا وقعت الواقعة » .

قوله تعالى : « و بسّّت الجبال بسّاً فكانت هباء منبّثاً » عطف على « رجّت » و البسّ الفتّ و هو عود الجسم بدقّ و نحوه أجزاء صغاراً متلاشية كالدهيق ، و قيل : البسّ هو التسيير فهو في معنى قوله : « و سيرت الجبال » النبأ : ٢٠ .

و قوله : « فكانت هباء منبّثاً » الهباء قيل : هو الغبار و قيل هو الذرّة من الغبار الظاهر في شعاع الشمس الداخل من كوة ، و الانبثاث التفرّق و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و كنتم أزواجاً ثلاثة » الزوج بمعنى الصنف و الخطاب لعامة البشر .

قوله تعالى : « فأصحاب الميمين ما أصحاب الميمين » متفرّع على ما قبلها تفرّع

البيان على المبيّن فهذه الآية والآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة .

واليمين من اليمن مقابل الشؤم فأصحاب الميمنة أصحاب السعادة واليمن مقابل أصحاب المشأمة أصحاب الشقاء والشؤم ، و ما قيل : إن المراد باليمين الميمن ، أى ناحية اليمن لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم وغيرهم يؤتونه بشمالهم يردّه مقابلة أصحاب الميمنة بأصحاب المشأمة ، ولو كان كما قيل لقيل لأصحاب الشمال وهو ظاهر .

و ما في قوله : « ما أصحاب الميمنة » استفهامية ومبتدأ خبره « أصحاب الميمنة ، والمجموع خبر لقوله : « وأصحاب الميمنة » وفي الاستفهام إعظام لأمرهم وتفخيم لشأنهم .

قوله تعالى : « وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » المشأمة مصدر كالشؤم مقابل اليمين ، والميمنة والمشأمة السعادة والشقاء .

قوله تعالى : « والسابقون السابقون » الذي يصلح أن يفسر به السابقون الأوّل قوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » فاطر : ٣٢ وقوله : « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٣٨ ، وقوله : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » المؤمنون : ٦١ .

فالمراد بالسابقين - الأوّل - في الآية السابقون بالخيرات من الأعمال وإن سبقوا بالخيرات سبقوا إلى المغفرة والرحمة التي بازائها كما قال تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ ، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمة وهو قوله : « والسابقون السابقون » .

وقيل : المراد بالسابقون الثاني هو الأوّل على حدّ قوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري .

وقوله : « والسابقون السابقون » مبتدأ وخبر ، وقيل : الأوّل مبتدأ والثاني تأكيد ، والخبر قوله : « أولئك المقربون » .

ولهم في تفسير السابقين أقوال أخر فقليل : هم المسارعون إلى كلّ ما دعا الله إليه ، وقيل : هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان ، وقيل : هم الأنبياء ﷺ

لأنهم مقدّموا أهل الأديان ، وقيل : هم مؤمن آل فرعون و حبيب النجار المذكور في سورة يس و عليّ عليه السلام السابق إلى الإيمان بالنبي عليه السلام و هو أفضلهم ، و قيل : هم السابقون إلى الهجرة ، وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، و قيل : هم الذين صلّوا إلى القبلتين ، و قيل : هم السابقون إلى الجهاد ، وقيل غير ذلك .
و القولان الأولان راجعان إلى ما تقدّم من المعنى ، والثالث والرابع ينبغي أن يحمل على التمثيل ، و الباقي كما ترى إلّا أن يحمل على نحو من التمثيل .

﴿ بحث روائى ﴾

في الخصال عن الزهريّ قال : سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول : من لم يتعزّ بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله ما الدنيا والآخرة إلّا ككفتي ميزان فأيهما رجح ذهب بالآخر ثم تلا قوله عزّ وجلّ : « إذا وقعت الواقعة » يعني القيامة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة » خفضت و الله بأعداء الله في النار « رافعة » رفعت و الله أولياء الله إلى الجنة .

و في تفسير القميّ « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » قال : القيامة هي حقّ ، و قوله : « خافضة » قال : بأعداء الله « رافعة » لأولياء الله « إذا رجّت الأرض رجاً » قال : يدقّ بعضها على بعض « و بستّ الجبال بسّاً » قال : قلعت الجبال قلعا « فكانت هباء منبثّاً » قال : الهباء الذي في الكوّة من شعاع الشمس .

و قوله : « و كنتم أزواجا ثلاثة » قال : يوم القيامة « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة و السابقون السابقون » الذين سبقوا إلى الجنة .

أقول : قوله : الذين سبقوا إلى الجنة تفسير للسابقون الثاني .

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : الهباء المنبث^(١) رهب الذرات و الهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه

(١) الرهب بفتحين و بفتح فسكون ما أثير من الغبار .

في شعاع الكوّة .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « و السابقون السابقون » قال :
نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ، و حبيب التجار الذي ذكر في يس و علي بن أبي-
طالب ، كل رجل منهم سابق أمته و علي أفضلهم سبقا .

و في المجمع عن أبي جعفر عليه السلام قال : السابقون أربعة : ابن آدم المقتول ، و
سابق أمّة موسى و هو مؤمن آل فرعون ، و سابق أمّة عيسى و هو حبيب و السابق في
أمّة محمد عليه السلام و هو علي بن أبي طالب عليه السلام .

أقول : و روى هذا المعنى في روضة الواعظين عن الصادق عليه السلام .

و في أمالي الشيخ بإسناده إلى ابن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه و آله عن قول
الله عزّ و جلّ : « و السابقون السابقون أولئك المقربون في جنّات النعيم » فقال :
قال لي جبرئيل : ذلك عليّ و شيعته ، هم السابقون إلى الجنّة المقربون من الله
بكرامته لهم .

و في كمال الدين بإسناده إلى خيشمة الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث :
و نحن السابقون السابقون و نحن الآخرون .

و في العيون في باب ماجاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة بإسناده عن
علي عليه السلام قال : « و السابقون السابقون أولئك المقربون » في نزلت .

و في المجمع في الآية : و قيل : إلى الصلوات الخمس . عن علي عليه السلام .

أقول : الوجه حمل جميع هذه الأخبار على التمثيل كما تقدّم .





أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣)
 وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا
 مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
 وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ
 مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَنَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)
 كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ
 فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ
 مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَ
 ظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ
 وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفَرْشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْمَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥)
 فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرْبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ
 مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ
 الشِّمَالِ (٤١) فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ
 وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصْرُثُونَ عَلَى
 الْحَنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا

لَمَّعُوا ثَوْنًا (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩)
لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ
الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَا تَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ
(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ (٥٥) هَذَا
نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تفصل ما ينتهي إليه حال كل واحد من الأزواج الثلاثة يوم القيامة .
قوله تعالى : « أولئك المقربون في جنات النعيم » الإشارة بأولئك إلى السابقين ،
و « أولئك المقربون » مبتدء وخبر ، والجملة استثنائية ، وقيل : خبر لقوله : « و
السابقون » : وقيل : مبتدء خبره في جنات النعيم ، و أول الوجوه الثلاثة أوجه
بالنظر إلى سياق تقسيم الناس إلى ثلاثة أزواج أو لا ثم تفصيل ما ينتهي إليه أمر
كل منهم .

والقرب والبعد معنيان متضائفان تتصف بهما الأجسام بحسب النسبة المكانية
ثم توسع فيهما فاعتبرا في غير المكان من الزمان ونحوه يقال : الغد قريب من اليوم
والأربعة أقرب إلى الثلاثة من الخمسة ، والخضرة أقرب إلى السواد من البياض ثم
توسع فيهما فاعتبرا في غير الأجسام والجسمانيات من الحقائق .

وقد اعتبر القرب وصفاً له تعالى بماله من الإحاطة بكل شيء قال تعالى : « و
إذا سألك عبادي عني فإني قريب » البقرة : ١٨٦ ، وقال : « ونحن أقرب إليه منكم »
الواقعة ٨٥ ، وقال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق : ١٦ . وهذا المعنى
أعني كونه تعالى أقرب إلى الشيء من نفسه أعجب ما يتصور من معنى القرب ، وقد
أشرنا إلى تصويره في تفسير الآية .

و اعتبر القرب أيضا وصفاً للعباد في مرحلة العبودية ولما كان أمراً اكتسابياً يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصلاح العمل إلى الله سبحانه و هو وقوعه في معرض شمول الرحمة الإلهية بزوال أسباب الشقاء و الحرمان ، والله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزلة يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى و مغفرته و رحمته قال تعالى : « كتاب مرقوم يشهده المقربون » المطففين : ٢١ و قال : « و مزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » المطففين : ٢٨ .

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعادة كما يشير إليه قوله : « و السابقون السابقون أولئك المقربون » و لا يتم ذلك إلا بكمال العبودية كما قال : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله و لا الملائكة المقربون » النساء : ١٧٢ و لا تكمل العبودية إلا بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته و عمله لمولاه لا يريد و لا يعمل إلا ما يريد و هذا هو الدخول تحت ولاية الله فهو لاء هم أولياء الله .

و قوله : « في جنّات النعيم » أي كل واحد منهم في جنّة النعيم فالكل في جنّات النعيم ، و يمكن أن يراد به أن كلّاً منهم في جنّات النعيم لكن يبعده قوله في آخر السورة : « فأمّا إن كان من المقربين فروح و ريحان و جنّة نعيم » .

و قد تقدّم غير مرّة أن النعيم هي الولاية و أن جنّة النعيم هي جنّة الولاية و هو المناسب لما تقدّم آنفاً أن المقربين هم أهل ولاية الله .

قوله تعالى : « ثلّة من الأولين و قليل من الآخرين » الثلّة - على ما قيل - الجماعة الكثيرة ، والمراد بالأولين الأئمّ المأضون للأنبياء السابقين و بالآخرين هذه الأمّة على ما هو المعبود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين و الآخرين معاً و منها ما سيأتي من قوله : « إنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون قل إنّ الأولين و الآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » فمعنى الآيتين : هم أي المقربون جماعة كثيرة من الأئمّ الماضين و قليل من هذه الأمّة .

و بما تقدّم يظهر أن قول بعضهم : إنّ المراد بالأولين و الآخرين أولو هذه الأمّة و آخروها غير سديد .

قوله تعالى : «على سرر موضونة متكنن عليها متقابلين» الوضن النسيج وقيل: نسيج الدرع وإطلاقه على نسيج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجها .
 وقوله : « متكنن عليها » حال من الضمير العائد إلى المقر بين و الضمير للسرر،
 و قوله : « متقابلين » حال آخر منه أو من ضمير « متكنن » و تقابلهم كناية عن بلوغ
 أنفسهم و حسن عشرتهم و صفاء باطنهم فلا ينظرون في قفاء صاحبهم و لا يعيبونه و لا -
 يغتابونه .

والمعنى هم أي المقر بون مستقرّون على سرر منسوجة حالكونهم متكنن عليها
 حالكونهم متقابلين .

قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » الولدان جمع ولد و هو الغلام ،
 و طوافهم عليهم كناية عن خدمتهم لهم : و المخلدون من الخلود بمعنى الدوام أي
 باقون أبداً على هيئتهم من حداثة السن ، وقيل من الخلد بفتح الحاء و هو القرط ، والمراد
 أنهم مقرطون بالخلد .

قوله تعالى : « بأكواب و أباريق و كأس من معين » الأكواب جمع كوب و هو
 الإنياء الذي لا عروة له و لا خرطوم و الأباريق جمع إبريق و هو الإناء الذي له خرطوم،
 و قيل : عروة و خرطوم معا ، و الكأس معروف قيل : أفرد الكأس لأنها لا تسمى كأساً
 إلا إذا كانت مملئة ، والمراد بالمعين الخمر المعين و هو الظاهر للبصر الجاري .

قوله تعالى : « لا يصدعون عنها و لا ينزفون » أي لا يأخذهم صدادع لأجل
 خمار يحصل من الخمر كما في خمر الدنيا و لا يزول عقلهم بالسكر الحاصل منها .

قوله تعالى : « وفاكهة مما يتخيرون و لحم طير مما يشتهون » الفاكهة والطير
 معطوفان على قوله : « بأكواب » و المعنى يطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يختارون و
 طير مما يشتهون .

و لا يستشكل بما ورد في الروايات أن أهل الجنة إذا اشتبهوا فاكهة تدلّ
 إليهم غصن شجرتها بمالها من ثمرة فيتناولونها و إذا اشتبهوا لحم طير وقع مقلبتاً مشويّاً
 في أيديهم فيأكلون منها ما أرادوا ثم حيي و طار .

و ذلك لأنّ لهم ماشاؤا و من فنون التمتع تناول ما يريدونه من أيدي خدامهم و خاصّة حال اجتماعهم و احتفالهم كما أنّ من فنونه تناولهم أنفسهم من غير توسيط خدامهم فيه .

قوله تعالى : « و حور عين كأنّ مثل اللؤلؤ المكنون » مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيد السياق و التقدير ولهم حور عين أو و فيها حور عين و الحور العين نساء الجنة و قد تقدّم معنى الحور العين في تفسير سورة الدخان .

وقوله : « كأنّ مثل اللؤلؤ المكنون » أي اللؤلؤ المصنوع المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي فهو منتهى في صفائه .

قوله تعالى : « جزاء بما كانوا يعملون » قيد لجميع ما تقدّم وهو مفعول له و المعنى فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرّون عليه من العمل الصالح .

قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » اللغو من القول ما لا فائدة فيه ولا أثر يترتب عليه ، و التأثيم النسبة إلى الإثم أي لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائدة فيه ولا ينسبه إلى الإثم إذ لا إثم هناك ، و فسر بعضهم التأثيم بالكذب .

قوله تعالى : « إلا قِيلاً سلاماً سلاماً » استثناء منقطع من اللغو و التأثيم ، و القيل مصدر كالقول ، و « سلاماً » بيان لقوله : « قِيلاً » و تكراره يفيد تكرّر الوقوع والمعنى إلا قولاً هو السلام بعد السلام .

قيل : و يمكن أن يكون « سلاماً » مصدراً بمعنى الوصف و صفة لقيلاً والمعنى إلا قولاً هو سالم .

قوله تعالى : « و أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » شروع في تفصيل ما انتهى إليه حال أصحاب الميمنة وفي تبديله من أصحاب اليمين يعلم أنّ أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة واحد و هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم . و الجملة استفهاميّة مسوقة لتفخيم أمرهم و التعجيب من حالهم وهي خبر لقوله : « و أصحاب اليمين » .

قوله تعالى : « في سدر مخضود » السدر شجرة النبق و المخضود ما قطع شوكة فلا شوك له .

قوله تعالى : « و طلع منضود » الطلع شجر الموز ، و قيل : ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب ، و قيل : شجرة أم غيلان لها أنوار طيبة الرائحة ، و نضد الأشياء جعل بعضها على بعض ، و المعنى و في شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه .

قوله تعالى : « و ظل ممدود و ماء مسكوب » قيل : الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول ، و الماء المسكوب هو المصبوب الجاري من غير انقطاع .

قوله تعالى : « و فاكهة كثيرة لا مقطوعة و لا ممنوعة » أي لا مقطوعة في بعض الأزمان كأنقطاع الفواكه في شتاء و نحوه في الدنيا ، و لا ممنوعة التناول لمانع من قبل أنفسهم كسامة أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك .
قوله تعالى : « و فرش مرفوعة » الفرش جمع فراش و هو البساط ، و المرفوعة العالية ، و قيل : المراد بالفرش المرفوعة النساء المرتفعات قدرا في عقولهن و جمالهن و كمالهن و المرأة تسمى فراشا و يناسب هذا المعنى قوله بعد : « إنا أنشأناهن إنشاء » الخ .

قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » أي إنا أوجدناهن و أحدثناهن و ربينا هن إحدانا و تربية خاصة و فيه تلويح إلى أنهن لا يخلف حالهن بالشباب و الشيب و صباحة المنظر و خلافها ، و قوله : « فجعلناهن أبكارا » أي خلقناهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا .

و قوله : « عربا أترابا » العرب جمع عروب و هي المتحشنة إلى زوجها أو الغنجة أو العاشقة لزوجها ، و الأتراب جمع ترب بالكسر فالسكون بمعنى المثل أي إنهن أمثال أو أمثال في السن لأزواجهن .

قوله تعالى : « لأصحاب اليمين ثلثة من الأولين و ثلثة من الآخرين » يتضح

معناه بما تقدم، ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين في الآخرين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين في الآخرين أقل جمعاً منهم في الأولين .

قوله تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » مبتدأ وخبر ، والاستفهام للتعجيب والتحويل ، وقد بدل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشارة إلى أنهم الذين يؤنون كتابهم بشمالهم كما مر نظيره في أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « في سموم وحميم و ظل من يحموم لبارد ولا كريم » السموم - على ما في الكشف - حر نار ينفذ في المسام ، والحميم الماء الشديد الحرارة ، والتنوين فيهما لتعظيم الأمر ، واليحموم الدخان الأسود ، وقوله : « لبارد ولا كريم » الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم ، وذلك أن الظل هو الذي يتوقع منه أن يتبرّد بالاستظلال به ويستراح فيه دون الدخان .

قوله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » تعليل لاستقرار أصحاب الشمال في العذاب ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة ، وإتراف النعمة الإنسان إبطارها وإطغائها له ، وذلك إشغالها بنفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفاً تعلّقه بما عنده من نعم الدنيا وما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة .

فلا يرد ما استشكل من أن كثيراً من أصحاب الشمال ليسوا من المترفين بمعنى المتوسعين في التمتع وذلك أن الإنسان محفوف بنعم ربه وليست النعمة هي المال فحسب فاشتغاله بنعم ربه عن ربه ترفه منه ، والمعنى أنا إنما نعدّ بهم بما ذكر لا أنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا بطرئين طاغين بالنعم .

قوله تعالى : « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » في المجمع : الحنث نقض العهد المؤكّد بالحلف ، والإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه انتهى ، ولعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبودية ربهم التي عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم وأخذ منهم الميثاق عليها في عالم الذر فيطيعون غير ربهم وهو الشرك المطلق .

وقيل : الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغة والحنث العظيم الشرك

بالله ، و قيل : الحنث العظيم جنس المعاصي الكبيرة ، و قيل : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » النحل : ٣٨ و لفظ الآية مطلق .

قوله تعالى : « و كانوا يقولون إذا متنا وكنا ترابا و عظاما ءإننا لمبعوثون أو آباءنا الأولون » قول منهم مبني على الاستبعاد ولذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم يبعث آبائهم لأن الاستبعاد في موردهم أكد ، و التقدير أو آباءنا الأولون مبعوثون .
قوله تعالى : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام و شراب و هما الزقوم والحميم .

و محصل القول أن الأولين و الآخرين - من غير فرق بينهم لا كما فرقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعداً و بعث آبائهم الأولين أشد استبعاداً و أكد - لمجموعون محشورين إلى ميقات يوم معلوم .

والميقات ما وقت به الشيء وهو وقته المعين والمراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافة الميقات إلى يوم معلوم بيانية .

قوله تعالى : « ثم إنكم أيتها الضالون المكذبون لا تكونون من شجر من زقوم فما لؤن منها البطون » من تمام كلام النبي ﷺ يخبرهم عما ينتهي إليه حالهم يوم القيامة و يعيشون به من طعام و شراب .

و في خطابهم بالضالين المكذبين إشارة إلى ملاك شقائهم و خسراتهم يوم البعث هو ضلالهم عن طريق الحق و استقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم و إصرارهم على الحنث ، ولو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا و لا يهلكوا .

و « من » في قوله : « من شجر » للابتداء ، و في قوله : « من زقوم » بيانية و يحتمل أن يكون « من زقوم » بدلاً من « من شجر » ، و ضمير « منها » للشجر أو الثمر و كل منهما يؤنث و يذكر ولذا جيء ههنا بضمير التأنيث وفي الآية التالية في قوله :

«فشاربون عليه» بضمير التذكير ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم » كلمة « على » للاستعلاء و تفيد في المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث ، و الهيم جمع هيماء الإبل التي أصابها الهيام بضم الهاء و هوداء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً ، و قيل : الهيم الرمال التي لاتروى بالماء .

والمعنى فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم و هذا آخر ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم .
قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » أي يوم الجزاء و النزل ما يقدم للضيف النازل من طعام و شراب إكراماً له ، و المعنى هذا الذي ذكر من طعامهم و شرابهم هو نزل الضالين المكذبين ففي تسمية ما أعد لهم بالنزل نوع نهكهم ، و الآية من كلامه تعالى خطاباً للنبي ﷺ ، و لو كان من كلام النبي ﷺ خطاباً لهم لقليل : هذا نزلكم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه و ابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت إذا وقعت الواقعة ذكر فيها « ثلثة من الأولين و قليل من الآخرين » قال عمر : يا رسول الله ثلثة من الأولين و ثلثة من الآخرين فقال رسول الله ﷺ : تعال و استمع ما قد أنزل الله : « ثلثة من الأولين و ثلثة من الآخرين » .

ألا وإن من آدم إلى ثلثة و أمتي ثلثة ولن نستكمل ثلثتنا حتى نستعين بالسودان رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . قال السيوطي : وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة بن رويم مرسلاً .

و فيه أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت « ثلثة من الأولين و قليل من الآخرين » حزن أصحاب رسول الله ﷺ و قالوا : إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل فنزلت نصف النهار « ثلثة من الأولين و ثلثة من الآخرين » تقابون الناس

فنسخت الآية «وقليل من الآخرين» .

اقول : قال في الكشف في تفسير الآية : فإن قلت : فقد روي أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه حتى نزلت «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» .

قلت : هذا لا يصح لأمرين : أحدهما : أن هذه الآية واردة في السابقين ووروداً ظاهراً وكذلك الثانية في أصحاب اليمين ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم على السابقين ووعدهم ؟ الثاني أن النسخ في الأخبار غير جائز . انتهى .

وأجيب عنه بأنه يمكن أن يحمل الحديث على أن الصحابة لما سمعوا الآية الأولى حسبوا أن الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الأولين وقليلاً منهم فيكون الفائزون بالجنة في هذه الأمة أقل منهم في الأمم السالفة فنزلت «ثلة من الأولين وثلة من الآخرين» فزال حزنهم ، ومعنى نسخ الآية السابقة إزالة حسبانهم المذكور .

وأنت خير بأنه حمل على ما لا دليل عليه من جهة اللفظ واللفظ يأباه وخاصة حمل نسخ الآية على إزالة الحساب ، وحال الرواية الأولى وخاصة من جهة ذيلها كحال هذه الرواية .

وفي المجمع في قوله تعالى : «يطوف عليهم ولدان مخلدون» ، اختلف في هذه الولدان فقيل : إنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فينبأوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها فأُنزلوا هذه المنزلة .

قال : وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين ؟ فقال : هم خدم أهل الجنة .

اقول : و رواء في الدر المنثور عن الحسن ، والرواية ضعيفة لا تعويل عليها . وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبرزخ وابن مردويه البيهقي في البعث عن عبدالله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتستهيه فيخر بين يديك مشوياً .

اقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة و في بعضها أن المؤمن يأكل ما يشتهي ثم يعود الباقي إلى ما كان عليه ويحيى فيطير إلى مكانه و يباهي بذلك .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً » قال : الفحش والكذب والغنا .

أقول : لعل المراد بالغنا ما يكون منه لهوا او الغنا مصحّف الخنا .
و فيه في قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » قال : علي بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه شيعة .

اقول : الرواية مبنية على ما ورد في ذيل قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه » أسرى : ٧١ أن اليمين هو الإمام الحق و معناها أن اليمين هو علي عليه السلام وأصحاب اليمين شيعة ، والرواية من الجري .

وفيه في قوله تعالى : « في سدر مخضود » شجر لا يكون له ورق ولا شوك فيه ، و قرأ أبو عبد الله عليه السلام ، « وطلع منضود » قال : بعضه على بعض .

وفي الدرامثثور أخرج الحاكم وصحّحه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله ينفعنا بالآعراب و مسائلهم . أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة موزية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها . فقال رسول الله ﷺ : وما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكاً فقال رسول الله ﷺ : أليس يقول الله : « في سدر مخضود » يخضده الله من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة إنها تنبت ثمراً تفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لوتاً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر .

و في المجمع : و روت العامة عن علي عليه السلام أنه قرأ رجل عنده « و طلع منضود » فقال : ما شأن الطلع إنما هو « و طلع » كقوله : « و دخل طلعتها هضيم » ف قيل له : ألا تغيره ؟ قال : إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحرك ، رواه عنه ابنه الحسن عليه السلام و قيس بن سعد .

وفي الدار المنثور أخرج عبد الرزاق و الفاريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله : « و طلع منضود » قال : هو الموز .

و في المجمع ورد في الخبر أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها اقرأ إن شئتم « وظل ممدود » وروي أيضا أن أوقات الجنة كغدوات الصيف لا يكون فيها حر ولا برد .

أقول : و روى الأول في الدار المنثور عن أبي سعيد و أنس و غيرهما عن النبي ﷺ .

وفي روضة الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ابن محبوب عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث يصف فيه الجنة و أهلها : و يزور بعضهم بعضا و يتنعمون في جناتهم في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك .

و في تفسير القمي : و قوله : « إنا أنشأناهم إنشاء » قال : الحور العين في الجنة « فجعلناهم أذكرا عربا » قال : لا يتكلمون إلا بالعربية .

و في الدار المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : « عربا » قال : كلامهن عربى .

أقول : و في روايات أخر أن عربا جمع عروب وهي الغنجة .

و فيه أخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكر عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « ثلثة من الأول و ثلثة من الآخرين » قال : هما جميعا من هذه الأمة .

أقول : وهذا المعنى مروي في غير واحد من الروايات لكن ظاهر آيات السورة أن القسمة لكافة البشر لهذه الأمة خاصة ، ولعل المراد من هذه الروايات بيان بعض المصاديق وإن كان بعيدا ، وكذا المراد مما ورد أن أصحاب اليمين أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، وما ورد أن أصحاب الشمال أعداء آل محمد ﷺ .

و في المحاسن بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته
عن الشرب بنفس واحد فكرهه وقال : ذلك شرب الهيم . قلت : وما الهيم ؟ قال :
الإبل .

وفيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه كان يكره أن يتشبه بهيم .
قلت : وما الهيم ؟ قال : الرمل .

أقول : والمعنيان جميعا واردان في روايات أخر .





نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ
 تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ
 بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)
 وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣)
 ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
 تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمْ
 الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
 الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمْ
 النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢)
 نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)
 فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)
 إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)
 تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)
 وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣)
 وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِن لَّا

تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَ رِيحَانٌ
وَجَنَّةٌ نَعِيمٍ (٨٩) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ
لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)
فَنَزُلُ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَ تَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ
الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

﴿ بيان ﴾

لمَّا فصل سبحانه القول فيما ينتهي إليه حال كلٍّ من الأزواج الثلاثة ففصل
حال أصحاب الشمال و أن الذي ساقهم إلى ذلك نقضهم عهد العبودية و تكذيبهم للبعث
و الجزاء و أمر نبيه ﷺ أن يردّ عليهم بتقرير البعث و الجزاء و بيان ما يجوزون به
يوم البعث .

و بيّضهم على تكذيبهم بالمعاد مع أن الذي يخبرهم به هو خالقهم الذي يدبّر
أمرهم و يقدر لهم الموت ثم الأ نشاء فهو يعلم ما يجري عليهم مدى وجودهم و ما ينتهي
إليه حالهم و مع أن الكتاب الذي ينبؤهم بالمعاد هو قرآن كريم مصون من أن يلعب
به أيدي الشياطين و أوليائهم المضلّين .

ثمّ يعيد الكلام إلى ما بدىء به من حال الأزواج الثلاثة و يذكر أن اختلاف
أحوال الأقسام يأخذ من حين الموت و بذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » السياق سياق الكلام في البعث
و الجزاء وقد أنكروه و كذبوا به فقوله : « فلولا تصدقون » تحضيض على تصديق حديث

المعاد و ترك التكذيب به ، و قد علّله بقوله : « نحن خلقناكم » كما يستفاد من التفریع الذي في قوله : « فلو لا تصدقون » ،

و إيجاب خلقه تعالى لهم وجوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين : أحدهما أنه تعالى خلقهم أوّل مرة فهو قادر على إعادة خلقهم ثانياً كما قال : « قال من يحيي العظام و هي رميم قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة و هو بكلّ خلق عليم » يس : ٧٩ .

وثانيهما أنه تعالى لما كان هو خالقهم وهو المدبّر لأمرهم المقدّر لهم خصوصيات خلقهم و أمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم و سيجري عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيمبعثهم بعد موتهم و يجزيهم بما عملوا إن خيراً و إن شراً لم يكن بدّ من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث و الجزاء قال تعالى : « ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير » الملك : ١٤ ، و قال : « كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » الأنبياء : ١٠٤ ، و قال : « وعد الله حقّاً و من أصدق من الله قيلاً » النساء : ١٢٢ .

فمحصّل الآية نحن خلقناكم و نعلم ما فعلنا و ما سنفعل بكم فنخبركم أنّا سنبعثكم و نجزيكم بما عملتم فهلاّ تصدّقون بما نخبركم به فيما أزلناه من الكتاب . و في الآية و ما يتلوها من الآيات الثقات من الغيبة إلى الخطاب لأنّ السياق سياق التوبيخ و المعاتبة و ذلك بالخطاب أوقع و أكد .

قوله تعالى : « أفرايتم ما تمنون » الإيماء قذف المنى و صبّه والمراد قذفه و صبّه في الأرحام ، والمعنى أفرايتم المنى الذي تصبّونه في أرحام النساء .

قوله تعالى : « أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » أي أنتم تخلقونه بشراً مثلكم أم نحن خالقوه بشراً .

قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت و ما نحن بمسبوقين » تدبير أمر الخلق بجميع شؤونه و خصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضة الوجود فوجود الإنسان المحدود بأوّل كينونته إلى آخر لحظة من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحوّل عليه بتقدير من خالقه عزّ و جلّ . فموته أيضاً كحياته بتقدير منه ، وليس يعتريه الموت لنقص

من قدرة خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب و عوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياة التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدودة ناقصة و أن يعجزه بعض الأسباب و تغلب إرادته إرادته و هو محال كيف ؟ و القدرة مطلقة والإرادة غير مغلوبة .

و يتبين بذلك أن المراد بقوله : « نحن قدرنا بينكم الموت » أن الموت حق مقدر وليس أمراً يقتضيه و يستلزمه نحو وجود الحي بل هو تعالى قدر له وجوداً كذا ثم موتاً يعقبه .

وأن المراد بقوله : « وما نحن بمسبوقين » - و السبق هو الغلبة والمسبوق المغلوب - و لسنا مغلوبين في عروض الموت عن الأسباب المقارنة له بأن نفيض عليكم حياة نريد أن يدوم ذلك عليكم فيسبقنا الأسباب و تغلبنا بالموت الحياة التي كنّا نريد دوامها .

قوله تعالى : « على أن نبدل أمثالكم و ننشئكم فيما لا تعلمون » ، « على » متعلقة بقوله : « قدرنا » و جملة الجار و المجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال و الإنشاء فيما لا تعلمون .

و الأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون و مثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبة إلى فرد آخر ، و المراد بقوله : « أن نبدل أمثالكم » أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم ، والمعنى على أي حال تبديل جماعة من أخرى و جعل الأُخلاف مكان الأسلاف .

و قوله : « و ننشئكم فيما لا تعلمون » ، « ما » موصولة و المراد به الخلق و الجملة معطوفة على « نبدل » و التقدير وعلى أن ننشئكم و نوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه و هو الوجود الأخرى غير الوجود الدنيوي الفاني .

و محصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منّا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامة حياتكم و لا الغلبة الأسباب المهلكة المبيدة وقهرها و تعجزها لنا في حفظ حياتكم و إنما قدرنا بينكم على أساس تبديل الأمثال و إذهاب قوم و الإتيان

بآخرين و إنشاء خلق لكم يناسب الحياة الآخرة وراء الخلق الدنيوي^١ الدائر فالموت انتقال من دار إلى دار و تبدل خلق إلى خلق آخر وليس بانعدام وفناء .

واحتمل بعضهم أن يكون الأمثال في الآية جمع مثل بفتحين وهو الوصف فتكون الجملةتان « على أن تبدل » الخ و « ننشئكم » الخ تفيدان معنى واحداً والمعنى على أن نغير أوصافكم و ننشئكم في وصف لا تعرفونه أو لا تعلمونه كحشركم في صفة الكلب أو الخنزير أو غيرهما من الحيوان بعد ما كنتم في الدنيا على صفة الإنسان ؛ والمعنى السابق أجمع وأكثر فائدة .

قوله تعالى : « و لقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » المراد بالنشأة الأولى نشأة الدنيا ، والعلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأة أخرى خالدة فيها الجزاء ، فإن من المعلوم من النظام الكوني أن لا لغو ولا باطل في الوجود فلهذه النشأة الفانية غاية باقية ، وأيضاً من ضروريات هذا النظام هداية كل شيء إلى سعادة نوعه و هداية الإنسان تحتاج إلى بعث الرسل و تشريع الشرائع و توجيه الأمر والنهي ، و الجزاء على خير الأعمال و شرها و ليس في الدنيا فهو في دار أخرى وهي النشأة الآخرة^(١) .

على أنهم شاهدوا النشأة الأولى و عرفوها و علموا أن الذي أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه و إن قدر عليها أو لا فهو على إيجاد مثلها ثانياً قادر قال تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » يس : ٧٩ و هذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث .

وبالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأة الأولى علم بمبادي البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البعث فلا استبعاد مع الإمكان .

و هذا - كما ترى - برهان على إمكان حشر الأجساد محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوي^٢ وإنجاز صنع البدن الدنيوي وإحياءه فليجز صنع البدن الآخروي^٣ وإحياءه لأنه مثله وحكم الأمثال فيما يجوز فيما لا يجوز واحد .

فمن العجيب قول الزمخشري في الكشف في الآية : وفي هذا دليل على صحة

(١) الآية ٢٧ و ٢٨ من سورة ص .

القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى بالأولى . انتهى وذلك لأن الذي في الآية قياس برهاني منطقي والذي يستدل بها عليه قياس فقهي مفيد للظن فأين أحدهما من الآخر .

وقال في روح المعاني في الآية : فهلا تذكرون أن من قدر عليها يعني على النشأة الأولى فهو على النشأة الأخرى أقدر وأقدر فإنها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال، وهذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل : لا يدل إلا على قياس الأولى لأنه الذي في الآية . انتهى .

وفيه ما في سابقه . على أن الذي في الآية ليس من قياس الأولى في شيء لأن الجامع بين النشأة الأولى والأخرى أنهما مثالان ومبدء القياس أن حكم الأمثال فيما يجوزو فيما لا يجوز واحد .

وأما قوله : « إن النشأة الأخرى أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الأجزاء » فهو ممنوع فإن المواد تحتاج إلى إفاضة الوجود بقاء كما تحتاج إليها في حدوثها وأول حصولها ، وكذا تخصص الأجزاء يحتاج إليها بقاء كما تحتاج إليها فالصنع ثانيا كالصنع أولا .

وأما قوله : « وسبق المثال » فقد خلط بين المثل والمثال فالبدن الأخروي بالنظر إلى نفسه مثل البدن الدنيوي لأعلى مثاله ولو كان على مثاله كانت الآخرة دنيا لآخرة .

فان قلت : لو كان البدن الأخروي مثلا للبدن الدنيوي ومثل الشيء غيره كان الإنسان المعاد في الآخرة غير الإنسان المبتدئ في الدنيا لأنه مثله لآخيه .

قلت : قد تقدم في المباحث السابقة غير مرة أن شخصية الإنسان بروحه لا يبدنه ، والروح لا تنعدم بالموت وإنما يفسد البدن وتلاشى أجزاؤه ثم إذا سوي ثانيا مثل ما كان في الدنيا ثم تعلقت به الروح كان الإنسان عين الإنسان الذي في الدنيا كما كان زيد الشائب مثلاً عين زيد الشائب لبقاء الروح على شخصيتها مع تغير البدن لحظة بعد لحظة .

قوله تعالى : « أفرايتم ما تحرثون - إلى قوله - محرومون » بعد ما ذكرهم بكيفية خلق أنفسهم و تقدير الموت بينهم تمهيداً للبعث والجزاء و كل ذلك من لوازم ربوبيته عدلهم أَمْراً ثلاثة من أهم ما يعيشون به في الدنيا و هي الزرع الذي يقتاتون به و الماء الذي يشربونه و النار التي يسطلون بها و يتوسلون بها إلى جمل من مآربهم ، و ثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلا التدبير عن ملك .

فقال : « أفرايتم ما تحرثون » الحِث العمل في الأرض و إلقاء البذر عليها « عأنتم تزرعونه » أي تنبتونه و تنموه حتى يبلغ الغاية ، و ضمير « تزرعونه » للبذر أو الحِث المعلوم من المقام « أم نحن الزارعون » المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً « لو نشاء لجعلناهم حطاماً » أي هشيماً متكسراً متفتتاً « فظلمتم » أي فظلمتم و صرتم « تفكّهون » أي تتعجبون مما أصيب به زرعكم و تتحدثون بما جرى قائلين « إننا لمغرّمون » موقعون في الغرامة و الخسارة ذهب مالنا و ضاع وقتنا و خاب سعينا « بل نحن محرومون » ممنوعون من الرزق و الخير .

و لا منافاة بين نفى الزرع عنهم و نسبته إليه تعالى و بين توسط عوامل و أسباب طبيعية في نبات الزرع و نموه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب و صنعها ، و ليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعة عنه تعالى بل بجعله و وضعه و موهبتة ، و كذا الكلام في أسباب هذه الأسباب ، و ينتهي الأمر إلى الله سبحانه و أن إلى ربك المنتهى .

قوله تعالى : « أفرايتم الماء الذي تشربون - إلى قوله - فلولاً تشكرون » المزن السحاب ، و قوله : « فلولاً تشكرون » تحضيض على الشكر ، و شكره تعالى بهيل ذكره تعالى على نعمه وهو إظهار عبوديته قولاً و عملاً . و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أفرايتم النار التي تورون - إلى قوله - و متاعاً للمقوين » قال في المجمع : الإبراء إظهار النار بالقدح يقال : أوري يوري قال : و يقال : قدح فأوري إذا أظهر فأزال يور يقال : قدح فأكبي و قال : و المقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد ، و أقوت الدار خلت من أهلها . انتهى والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» خطاب للنبي ﷺ. لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم وأنه الذي يخلقهم و يدبر أمرهم و من تديره أنه سيبعثهم و يجزيهم بأعمالهم و هم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم و التفت إلى خطاب النبي صلى الله عليه وآله إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي ﷺ أن ينزله تعالى عن إشراكهم به و إنكارهم البعث والجزاء .

فقوله: « فَسَبِّحْ بِاسْمِ » الخ الغاء لتفريع التسييح على ما تقدم من البيان ، والباء للاستعانة أو الملازمة والمعنى فإذا كان كذلك فسبح مستعيناً بذكر اسم ربك ، أو المراد بالاسم الذكر لأن إطلاق اسم الشيء ذكر له كما قيل أو الباء للتعدية لأن تنزيه اسم الشيء تنزيه له ، والمعنى نزله اسم ربك من أن تذكر له شريكاً أو تنفي عنه البعث والجزاء ، والعظيم صفة الرب أو الاسم .

قوله تعالى: «فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» «لَا أَقْسَمُ» قسم وقيل : لازائدة وأقسم هو القسم ، وقيل : لانافية وأقسم هو القسم .

و «مواقع» جمع موقع وهو المحل والمعنى أقسم بمحال النجوم من السماء ، و قيل : مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به إلى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين، أو مساقط الكواكب في مغاربها ، وأول الوجوه هو السابق إلى الذهن .

قوله تعالى: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» تعظيم لهذا القسم و تأكيد على تأكيد .

قوله تعالى: «إنه لقرآن كريم - إلى قوله - من رب العالمين» لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته وألوهيته وكذا إنكارهم للبعث والجزاء إنما أبدوه بانكار القرآن النازل على النبي ﷺ الذي فيه نبأ التوحيد والبعث كان إنكارهم منشعباً إلى إنكار أصل التوحيد والبعث أصلاً ، و إلى إنكار ذلك بما أن القرآن ينبئهم به ، فأورد تعالى أولاً بياناً لإثبات أصل الوجدانية والبعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك وهو قوله: « نحن خلقناكم - إلى قوله - ومتاعاً للمقوين » ، و ثانياً

بيانا يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه و وصفه بأحسن أوصافه .

فقوله : « إنه لقرآن كريم » جواب للقسم السابق ، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق و يستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على- الله عزيز عنده و كريم محمود الصفات و كريم بذل نفع للناس لما فيه من أصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة .

وقوله « في كتاب مكنون » وصف ثان للقرآن أي محفوظ مصون عن التغير والتبدل ، وهو اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢٢ . وقوله : « لا يمسه إلا المطهرون » صفة الكتاب المكنون و يمكن أن يكون وصفا ثالثا للقرآن و مآل الوجهين على تقدير كون لافية واحد .

و المعنى لا يمس الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذي في الكتاب إلا المطهرون .

و الكلام على أي حال مسوق لتعظيم أمر القرآن و تجليله فمسه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون كما يشير إليه قوله : « إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون و أنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

و المطهرون - اسم مفعول من التطهير - هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي و فذارات الذنوب أو ممّا هو أعظم من ذلك و أدقّ و هو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى ، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذي هو العلم دون الطهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر .

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام و الذين طهرهم الله من البشر قال تعالى : « إننا نريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا » الأحزاب : ٣٣ و لا وجه اختصاص المطهرين بالملائكة كما عن جل المفسرين لكونه تقييدا من غير مقيّد .

و ربّما جعل « لا » في « لا يمسه » ناهية ، و المراد بالمس على هذا مس كتابة

القرآن ، وبالطهارة الطهارة من الحدث أو الحدث والخبث جميعا - و قرىء «المطهرون» بتشديد الطاء و الهاء و كسر الهاء أي المتطهرون - و مدلول الآية تحريم مس كتابه القرآن على غير طهارة .

و يمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون «لا» نافية بأن تكون الجملة إخباراً أريد به الإنشاء وهو أبلغ من الإنشاء .

قال في الكشف : وإن جعلتها يعني جملة «لا يمسّه إلا المطهرون» صفة للقرآن فالمعنى لا ينبغي أن يمسّه إلا من هو على الطهارة من الناس يعني مس المكتوب منه ، انتهى و قد عرفت صحة أن يراد بالمس العلم والاطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون .

و قوله : « تنزيل من رب العالمين » وصف آخر للقرآن ، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي منزل من عند الله إليكم تفقهموه و تعقلونه بعد ما كان في كتاب مكنون لا يمسّه إلا المطهرون .

و التعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة إلى أن ربوبيته تعالى منسطة على جميع العالمين و هم من جملتهم فهو تعالى ربهم و إذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابهم و يصغوا لكلامه و يصدقوه من غير تكذيب .

قوله تعالى : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » الإشارة بهذا الحديث إلى القرآن ، و الإدهان به التهاون به و أصله التليين بالدهن استعير للتهاون ، و الاستفهام للتوبيخ يوبيخهم تعالى على عدّهم أمر القرآن هيناً لا يعنى به .

قوله تعالى : « و تجعلون رزقكم أنكم تكذبون » قيل : المراد بالرزق حظهم من الخير ، والمعنى و تجعلون حظكم من الخير الذي لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أي تضعونه موضعاً ، وقيل : المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه ، والمعنى تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذي رزقتموه ، و قيل : الكلام بحذف مضاف و التقدير : و تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أي وضعتم التكذيب موضع الشكر . قوله تعالى : « فلولاً إذا بلغت الحلقوم - إلى قوله - صادقين » رجوع إلى أول

الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبكم لهذا القرآن الذي ينبئكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الأمور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها ، فإذا لم تقدروا على رجوعها وإعادة الحياة معها فاعلموا أن الموت حق مقدّر من الله لسوق النفوس إلى البعث والجزاء .

فقوله : « فلولوا إذا بلغت الحلقوم » تفريع على تكذيبهم بالقرآن و بما أخبر به من البعث والجزاء ، ولولا للتخصيص تعجيزاً وتبكيئاً لهم ، وضمير « بلغت » للنفس ، وبلوغ النفس الحلقوم كناية عن الإشراف التام للموت .

وقوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » أي تنظرون إلى المحتضر أي هو بمنظر منكم .

وقوله : « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » أي والحال أننا أقرب إليه منكم لا حاطتنا به وجوداً ورسلنا القابضون لروحه أقرب إليه منكم ولكن لا تبصروننا ولا رسلنا .

قال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٢٦ وقال : « قل يتوفىاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم » السجدة : ٣٢ وقال : « حتّى إذا جاء أحدهم الموت توفيته رسلنا » الانعام : ٦ .

وقوله : « فلولوا إن كنتم غير مدينين » تكرار « لولا » لتأكيد « لولا » السابقة ، و « مدينين » أي مجزيين من دان يدين بمعنى جزى يجزي ، والمعنى إن كنتم غير مجزيين ثواباً وعقاباً بالبعث .

وقوله : « ترجعونها إن كنتم صادقين » أي إن كنتم صادقين في دعواكم أن لا بعث ولا جزاء ، وقوله : « ترجعونها » مدخول لولا التخصيص بحسب التقدير و ترتيب الآيات بحسب التقدير فلولوا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين .

قوله تعالى : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » رجوع إلى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة عند الموت و بعده وضد « كان »

للمتوفى المعلوم من السياق ، والمراد بالمقر بين السابقون المقر بون المذكورون سابقا ، والروح الراحه ، والريحان الرزق ، وقيل : هو الريحان المشموم من ريحان الجنة يؤتى به إليه فيشمه و يتوفى .

والمعنى فأما إن كان المتوفى من المقر بين فله - أو فجزأه - راحة من كل هم وغم وألم ورزق من رزق الجنة وجنة نعيم .

قوله تعالى : « وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » يمكن أن يكون الالام للاختصاص الملكي ومعنى « سلام لك » أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك ورفقاؤك فلا ترى منهم إلا خيراً و سلاما .

وقيل : لك بمعنى عليك أي يسلم عليك أصحاب اليمين ، وقيل غير ذلك . والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أنه يخاطب بهذا الخطاب : سلام لك من أصحاب اليمين .

قوله تعالى : « وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم و تصلية جحيم » تصلية النار الإبدال فيها ، وقيل : مقاساة حرها وعذابها .

والمعنى وأما إن كان من أهل التكذيب والضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة ، ومقاساة حر نار جحيم .

وقد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقد تم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعة تكذيبهم وعنادهم للحق ولو كان ضلالا بلا تكذيب وعناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزلة وأما قوله سابقا : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون » فإن كان المقام هناك مقام الرد لقولهم : إذا متنا وكنّا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون » الخ كان الأنسب توصيفهم أولا بالضلال ثم بالتكذيب .

قوله تعالى : « إن هذا لهو حق اليقين » الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه ، واليقين هو العلم الذي لا لبس فيه ولا ريب فأضافة الحق إلى اليقين نحو من الإضافة البيانية جيء بها للتأكيد .

والمعنى أن هذا الذي ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذي لا

تردّ فيه والعلم الذي لاشكّ يعتريه .

قوله تعالى : « فسبّح باسم ربك العظيم » تقدّم تفسيره ، وهو تفريع على ما تقدّمه من صفة القرآن و بيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت وفي الحشر .
و المعنى فإذا كان القرآن على هذه الصفات وصادقاً فيما ينبؤ به من حال الناس بعد الموت فنزه ربك العظيم مستعيناً أو ملابساً باسمه وائف ما يراه و يدّعيه هؤلاء المكذّبون الضالّون .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون» : وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لا يقولنّ أحدكم : زرعت وليقل : حرثت .
اقول : ورواه في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي : «أأنتم أنزلتموه من المزن» قال : من السحاب « نحن جعلناها تذكرة » لنار يوم القيامة « و متاعاً للمقوين » قال : المحتاجين .
وفي المجمع في قوله تعالى : « فسبّح باسم ربك العظيم » : فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية قال : اجعلوها في ركوعكم .

اقول : ورواه في الفقيه مرسلًا ، ورواه في الدر المنثور عن الجعفي عنه عليه السلام .
وفي الدر المنثور أخرجه النسائي وابن جرير و محمد بن نصر والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرّق في السنين و في لفظ ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ثم قرء « فلا أقسم بمواقع النجوم » .
اقول : و ظاهره تفسير مواقع النجوم بأوقات نزول نجوم القرآن .

وفي تفسير القمي وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » قال : معناه أقسم بمواقع النجوم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ
«إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون» قال : عند الله في صُحف مطهرة «لا يمسّه إلا
المطهرون» قال : المقرَّبون .

اقول : و تفسير المطهرين بالمقرَّبين يؤيد ما أوردناه في البيان المتقدم ، وقد
أوردنا في ذيل قوله : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» الآية الجاثية : ٢٩ حديثا عن
الصادق عليه السلام في الكتاب المكنون .

وفي المجمع في قوله تعالى : «لا يمسّه إلا المطهرون» وقالوا : لا يجوز للجنب
والحائض والمحدث مس المصحف عن محمد بن علي عليه السلام .

اقول : المراد بمس المصحف مس كتابته بدليل الروايات الأخر .
وفي الكافي بإسناده عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن التعويد
يعلق على الحائض قال : نعم لأبأس . وقال : تقرأه وتكتبه ولا تصيبه يدها .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق و ابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن
أبي بكر عن أبيه قال : في كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم : ولا تمس القرآن إلا
عن طهور .

اقول : والروايات فيه كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة .

وفيه أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس
على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكرو ومنهم كافرو قالوا :
هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية «فلا أقسم بمواقع
النجوم» حتى بلغ «و تجعلون رزقكم أنكم تكذبون» .

اقول : وقد استفاضت الرواية من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في الأنواء
و ظاهرها أنها مدنية لكنها لا تلائم سياق آيات السورة كما عرفت .

وفي المجمع وقراءة علي عليه السلام وابن عباس ورويت عن النبي ﷺ : وتجعلون
شكركم .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن النبي ﷺ وعلي عليه السلام .

و في تفسير القمي في قوله : « غير مدينين » قال : معناه فلو كنتم غير مجازين على أعمالكم « ترجعونها » يعني به الروح إذا بلغت الحلقوم تردّونها في البدن « إن كنتم صادقين » :

و فيه بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « فأما إن كان من المقرّ بين فروح وريحان » في قبره « وجنة نعيم » في الآخرة .

و في الدر المنثور أخرج القاسم بن منده في كتاب الأحوال و الإيمان بالسؤال عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن أول ما يبشّر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنة نعيم و إن أول ما يبشّر به المؤمن في قبره أن يقال : أبشر برضا الله تعالى و الجنة قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيعتك إلى قبرك ، و صدّق من شهدك ، و استجاب لمن استغفر لك .

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : « فسلام لك من أصحاب اليمين » قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه و تخبره أنّه من أصحاب اليمين .

أقول : و ما أورده من المعنى مبني على كون الآية حكاية خطاب الملائكة ، و التقدير قالت الملائكة سلام لك حال كونك من أصحاب اليمين فهي سلام و بشارة .



﴿سورة الحديد مدنية وهي تسع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
 عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
 وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

﴿بيان﴾

غرض السورة حث المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد
 الأمر به مرة بعد مرة في خلال آياتها «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»
 الآية «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» الآية «إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا
 الله قرضاً حسناً» وقد سمت إنفاقهم ذلك إقراضاً منهم لله عز اسمه فالله سبحانه خير
 مطلوب وهو لا يخلف الميعاد وقد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم وأن يؤتيهم أجراً
 كريماً كثيراً .

وقد أشار إلى أن هذا الإنفاق من التقوى والإيمان بالرسول وأنه يستتبع
 مغفرة الذنوب وإتيان كفلين من الرحمة ولزوم النور بل واللحوق بالمصدقين والشهداء
 عند الله سبحانه .

وفي خلال آياتها معارف راجعة إلى المبدء والمعاد ، ودعوة إلى التقوى وإخلاص الإيمان والزهد و موعظة .

و السورة مدنيّة بشهادة سياق آياتها وقد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك .

و لقد افتتحت السورة بتسبيحه و تنزيهه تعالى بعدّة من أسمائه الحسنی لما في غرض السورة و هو الحثّ على الإنفاق من شائبة توهم الحاجة و النقص في ناحيته و نظيرتها في ذلك جميع السور المفتحة بالتسبيح و هي سور الحشر والصف و الجمعة و التغابن المصدرة بسبح أو يسبح .

قوله تعالى : «سبح لله ما في السماوات والأرض و هو العزيز الحكيم» التسبيح التنزيه و هو نفى ما يستدعي نقصاً أو حاجة ممّا لا يليق بساحة كماله تعالى ، و «ما» موصولة و المراد بها ما يعمّ العقلاء ممّا في السماوات و الأرض كالملائكة و الثقلين وغير العقلاء كالجمادات و الدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلّقة بالعقلاء كالأحياء و العلم بذات الصدور .

فالمعنى نزّه الله سبحانه ما في السماوات و الأرض من شيء و هو جميع العالم . و المراد بتسبيحها حقيقة معنى التسبيح دون المعنى المجازي الذي هو دلالة وجود كل موجود في السماوات و الأرض على أن له موجوداً منزهاً من كل نقص متصفاً بكلّ كمال ، و دون عموم المجاز و هو دلالة كل موجود على تنزّهه تعالى إمّا بلسان القال كالعقلاء وإمّا بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات و ذلك لقوله تعالى : «وإن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا يفقهون تسبيحهم» أسرى : ٢٤ حيث استدرك أنّهم لا يفقهون تسبيحهم و لو كان المراد بتسبيحهم دلالة وجودهم على وجوده و هي قيام الحجّة على الناس بوجودهم أو كان المراد تسبيحهم و تحميدهم بلسان الحال و ذلك ممّا يفقهه الناس لم يكن للاستدراك معنى .

فتسبيح ما في السماوات و الأرض تسبيح و نطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة و إن كنّا لا نفقهه قال تعالى : «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء» حم السجده : ٢٠ .

و قوله : « و هو العزيز الحكيم » أي المنيع جانبه يغلب و لا يغلب ، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه و لا يتعلق به اعتراض معترض .

قوله تعالى : « له ملك السماوات و الأرض يحيي و يميت و هو على كل شيء قدير » الكلام موضوع على الحصر فهو المليك في السماوات و الأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شيء فما في السماوات و الأرض يقوم به وجوده و آثار وجوده فلا حكم إلا له فالملك و لاسلطنة إلا له .

و قوله : « يحيي و يميت » إشارة إلى اسميه المحيي و المميت ، وإطلاق « يحيي و يميت » يفيد شمولهما لكل إحياء و إماتة كما يجاده الملائكة أحياء من غير سبق موت ، و إحيائه الجنين في بطن أمه و إحيائه الموتى في البعث و إيجاده الجماد ميتاً من غير سبق حياة و إماتته الإنسان في الدنيا و إماتته ثانياً في البرزخ على ما يشير إليه قوله : « ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ ، و في « يحيي و يميت » دلالة على الاستمرار .

و قوله : « و هو على كل شيء قدير » فيه إشارة إلى صفة قدرته و أنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء ، و في تذييل الآية بالقدرية على كل شيء مناسبة مع ما تقدّمها من الإحياء و الإماتة لما ربّما يتوهمه المتوهم أن لاقدرة على إحياء الموتى و لاعين منهم و لا أثر .

قوله تعالى : « هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم » لما كان تعالى قديراً على كل شيء مفروض كان محيطاً بقدرته على كل شيء من كل جهة فكل ما فرض أوّل فهو قبله فهو الأوّل دون الشيء المفروض أوّل ، و كل ما فرض آخر فهو بعده لا يحاطة قدرته به من كل جهة فهو الآخر دون الشيء المفروض آخر ، و كل شيء فرض ظاهراً فهو أظهر منه لا يحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهراً ، و كل شيء فرض أنّه باطن فهو تعالى أبطن منه لا يحاطة به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطناً فهو تعالى الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن على الإطلاق و ما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافية نسبية .

و ليست أو ليسته تعالى و لا آخريته ولا ظهوره ولا بطونه زمانية ولا مكانية بمعنى مظهرية لهما و إلا لم يتقدمهما و لا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أي نحو فرضت و كيفما تصوّرت .

فبان ممّا تقدّم أن هذه الأسماء الأربعة الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن من فروع اسمه المحيط و هو فرع إطلاق القدرة فقدرته محيطه بكل شيء و يمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطة وجوده بكل شيء فإنّه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء و ثابت بعد فناء كل شيء و أقرب من كل شيء ظاهر و أبطن من الأوهام و العقول من كل شيء خفيّ باطن .

و كذا للأسماء الأربعة نوع تفرّع على علمه تعالى و يناسبه تذييل الآية بقوله : «و هو بكل شيء عليم» .

و فسر بعضهم الأسماء الأربعة بأنّه الأوّل قبل كل شيء و الآخر بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه و الباطن غير مدرك بالحواس .

و قيل : الأوّل قبل كل شيء بلا ابتداء ، و الآخر بعد كل شيء بلا انتهاء ، و الظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه ، و الباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه .

و قيل : الأوّل بلا ابتداء و الآخر بلا انتهاء و الظاهر بلا اقتراب و الباطن بلا احتجاب .

و هناك أقوال أخر في معناها غير جيّدة أغمضنا عن إيرادها .

قوله تعالى : «هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام» تقدّم تفسيره .

قوله تعالى : «ثمّ استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج

منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها» تقدّم تفصيل القول في معنى العرش في سورة الأعراف آية : ٥٤ .

و تقدّم أن الاستواء على العرش كناية عن الأخذ في تدبير الملك و لذا عقبه بالعلم

بجزئيات الأحوال لأنّ العلم من لوازم التدبير .

و قوله : « يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها » الولوج - كما قال الراغب - الدخول في مضيق ، و العروج ذهاب في صعود و المعنى يعلم ما يدخل و ينفذ في الأرض كماء المطر و البذور و غيرها و ما يخرج من الأرض كأشكال أنواع النبات و الحيوان و الماء و ما ينزل من السماء كالأمطار و الأشعة و الملائكة و ما يعرج فيها و يصعد كالأبخرة و الملائكة و أعمال العباد .

قوله تعالى : « و هو معكم أينما كنتم » لا يحاطه بكم فلا تغيبون عنه أينما كنتم و في أي زمان عشتم و في أي حال فرضتم فذكر عموم الأمكنة في « أينما كنتم » لأن الأعراف في مفارقة شيء شياً و غيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان و إلا فنسبته تعالى إلى الأمكنة و الأزمنة و الأحوال سواء .
و قيل : المعية مجاز مرسل عن الإحاطة العلمية .

قوله تعالى : « و الله بما تعملون بصير » كالفرع المترتب على ما قبله من كونه معهم أينما كانوا و كونه بكل شيء عليهما فإن لازم حضوره عندهم من دون مفارقة ما و احتجاب و هو عليم أن يكون بصيراً بأعمالهم ببصر ظاهر عملهم ، و ما في باطنهم من نية و قصد .

قوله تعالى : « له ملك السماوات و الأرض و إلى الله ترجع الأمور » كرر قوله : « له ملك » النخ لابتداء رجوع الأشياء إليه على عموم الملك فصرح به ليفيد الابتداء قال تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ .

و قوله : « و إلى الله ترجع الأمور » الأمور جمع محلى باللام يفيد العموم كقوله : « ألا إلى الله تصير الأمور » : الشورى : ٥٣ فما من شيء إلا و يرجع إلى الله ، و لا راد له إليه تعالى إلا هو لاختصاص الملك به فله الأمر و له الحكم .

و في الآية وضع الظاهر موضع الضمير في « إلى الله » و كذا في الآية السابقة « و الله بما تعملون بصير » و لعل الوجه في ذلك أن تقرر الجملة قلوبهم كما يقرر المثل السائر لما سيجيء من ذكر يوم القيامة و جزيل أجر المنفقين في سبيل الله فيه .

قوله تعالى : « يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل و هو عليم بذات الصدور » إيلاج الليل في النهار و إيلاج النهار في الليل اختلاف الليل و النهار في الطول و القصر باختلاف فصول السنة في كل من البقاع الشمالية و الجنوبية بعكس الأخرى ، و قد تقدم في كلامه تعالى غير مرة .

و المراد بذات الصدور الأفكار المضمرة و النيات الممكنة التي تصاحب الصدور و تلازمها لما أنها تنسب إلى القلوب و القلوب في الصدور ، و الجملة أعني قوله : « و هو عليم بذات الصدور » بيان لإحاطة علمه بما في الصدور بعد بيان إحاطة بصره بظواهر أعمالهم بقوله : « والله بما تعملون بصير » .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج أحمد و أبو داود و الترمذي و حسنه و النسائي و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن عرابض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية .

أقول : و رواه أيضا عن ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير عنه ﷺ .

و في الكافي بإسناده عن عاصم بن حميد قال : سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال : إن الله عز و جل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى : قل هو الله أحد والآيات من سورة الحديد إلى قوله : « عليم بذات الصدور » فمن رام وراء ذلك فقد هلك .

و في تفسير القمي : « سبح لله ما في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم » قال : هو قوله : « أوتيت جوامع الكلم و قوله : « هو الأول » قال : أي قبل كل شيء « و الآخر » قال : يبقى بعد كل شيء « و هو عليم بذات الصدور » قال : بالضمائر .

و في الكافي و روي أنه يعني علياً عليه السلام سئل أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء و أرضا ؟ قال : أين سؤال عن مكان و كان الله و لا مكان .

و في التوحيد خطبة للحسن بن علي عليه السلام و فيها : الحمد لله الذي لم يكن فيه

أول معلوم، ولا آخر متناه ، ولا قبل مدرك ، ولا بعد محدود ، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكر وخطراتها ولا الأبواب وأذهانها صفته فتقول : متى ولا بدىء ممّا ، ولا ظاهر على ما ، ولا باطن فيما .

اقول : وقوله أول معلوم النخ أوصاف توضيحية أي ليس له أول و لو كان له أول كان من الجائز أن يتعلق به علم ولا آخر و لو كان له آخر كان متناهيًا ، ولا قبل و لو كان لكان جائز الإدراك ولا بعد وإلا لكان محدوداً .

وقوله : و لا بدىء ممّا أي لم يبتدء من شيء حتى يكون له أول ولا ظاهر على ما أي لم يتفوق على شيء بالوقوع والاستقرار عليه كالجسم على الجسم «و لا باطن فيما» أي لم يتبطّن في شيء بالدخول فيه والاستتار به .

و في نهج البلاغة : و كل ظاهر غيره غير باطن ، و كل باطن غيره غير ظاهر .
اقول : معناه أن حيشة الظهور في غيره تعالى غير حيشة البطون و بالعكس، و أمّا هو تعالى فلمّا كان أحدي الذات لا تنقسم و لا تنجزى إلى جهة و جهة كان ظاهرا من حيث هو باطن و باطنا من حيث هو ظاهر فهو باطن خفي من كمال ظهوره و ظاهر جلي من كمال بطونه .

وفيه : الحمد لله الأول فلا شيء قبله ، والآ خر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء فوقه ، و الباطن فلا شيء دونه .

اقول : المراد بالقبليّة والبعديّة ليس هو القبليّة والبعديّة الزمانيّة بأن يفرض هناك امتداد زمني غير متناهي الطرفين و قد حلّ العالم قطعة منه خالياً عنه طرفاه و يكون وجوده تعالى و تقدّس منطبقاً على الزمان كلّهُ غير خال عنه شيء من جانيبه و إن ذهب إلى غير النهاية فيتقدّم وجوده تعالى على العالم زمانا و يتأخّر عنه زمانا و لو كان كذلك لكان تعالى متغيّراً في ذاته و أحواله بتغيّر الأزمنة المتجدّدة عليه ، و كان قبليّته و بعديّته بتبع الزمان و كان الزمان هو الأول والآ خر بالأصالة .

وكذلك ليست ظاهريّته و باطنيّته بحسب المكان بنظير البيان بل هو تعالى سابق بنفس ذاته المتعالية على كلّ شيء مفروض و آخر بنفس ذاته عن كلّ أمر مفروض أنّه

آخر ، و ظاهر ، و باطن كذلك ، والزمان مخلوق له متأخر عنه .
 و في الدّر المنثور أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر و أبي سعيد عن -
 النبي ﷺ قال : لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل
 كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأول قبل كل شيء و
 هو الآخر فليس بعده شيء و هو الظاهر فوق كل شيء و هو الباطن دون كل شيء و هو
 بكل شيء عليم .

و في التوحيد بإسناده إلى أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لم
 يزل الله عزّ وجلّ ربّنا و العلم ذاته و لا معلوم فلمّا أحدث الأشياء وقع العلم منه على
 المعلوم .

أقول : ليس المراد بهذا العلم الصور الذهنية فيكون تعالى كباني دار يتصور
 للدار صورة و هيئة قبل بنائها ثم يبنّيها على ما تصور فتتطبق الصورة الذهنية على البناء
 الخارجيّ ثمّ تنهدم الدار و الصورة الذهنية على حالها ، وهذا هو المسمى بالعلم الكلّي
 و هو مستحيل عليه تعالى بل ذاته تعالى عين العلم بمعلومه ثمّ المعلوم إذا تحقّق في الخارج
 كان ذات المعلوم عين علمه تعالى به ، و يسمّى الأوّل العلم الذاتي و الثاني العلم الفعلي .
 و فيه خطبة لعلي عليه السلام و فيها : و علمها لا بأداة لا يكون العلم إلّا بها ، و ليس
 بينه و بين معلومه علم غيره .

أقول : المراد به أن ذاته تعالى عين علمه ، وليست هناك صورة زائدة .





آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
 آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
 الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ
 أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا
 مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)
 مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)
 يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بِشْرِيكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ
 بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)
 ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَكُنَّكُمْ فَنَكْتُم بَلِيتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ

وَأَرْبَبْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤)
فَالْيَوْمَ لَا يَتُخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

﴿بيان﴾

أمر مؤكَّد بالإنفاق في سبيل الله وخاصة الجهاد على ما يؤيده قوله : « لا يستوي
منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، الآية و يتأيد بذلك ما قيل : إن قوله : « آمنوا
بالله و رسوله وأنفقوا » الخ نزل في غزوة تبوك .

قوله تعالى : « آمنوا بالله و رسوله و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » الخ
المستفاد من سياق الآيات أن الخطاب في الآية للمؤمنين بالله و رسوله لا للكفار و لا
للمؤمنين والكفار جميعا كما قيل ، وأمر الذين تلبسوا بالإيمان بالله و رسوله بالإيمان
معناه الأمر بتحقيق الإيمان بترتيب آثاره عليه إذ لو كانت صفة من الصفات كالسخاء و
العفة والشجاعة ثابتة في نفس الإنسان حق ثبوتها لم يتخلف عنها أثرها الخاص و من
آثار الإيمان بالله و رسوله الطاعة فيما أمر الله و رسوله به .

و من هنا يظهر أولا أن أمر المؤمن بالإيمان في الحقيقة أمر للمتحقق بمرتبة
من الإيمان أن يتلبس بمرتبة هي أعلى منها ، وهذا النوع من الأمر فيه إيماء إلى
أن الذي عند المأمور من المأمور به لا يرضى الأمر كل الإرضاء .

و ثانيا أن قوله : « آمنوا بالله و رسوله و أنفقوا » أمر بالإنفاق مع التلويح إلى
أنه أثر صفة هم متلبسون بها فعليهم أن ينفقوا لما اتصفوا بها فيؤل إلى تعليل الإنفاق
بإيمانهم .

و قوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » استخلاف الإنسان جعله خليفة،
و المراد به إما خلافتهم عن الله سبحانه يخلفونه في الأرض كما يشير إليه قوله : « إنني
جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ والتعبير عما بأيديهم من المال بهذا التعبير لبيان

الواقع ولترغيبهم في الإنفاق فإنهم إذا أيقنوا أن المال لله وهم مستخلفون عليه وكلاء من ناحيته يتصرفون فيه كما أذن لهم سهل عليهم إنفاقه و لم تتحرج نفوسهم من ذلك . وإما خلافتهم عن سبقتهم من الأجيال كما يخلف كل جيل عن سابقه ، وفي التعبير به أيضا ترغيب في الإنفاق فإنهم إذا تذكروا أن هذا المال كان لغيرهم فلم يدم عليهم علموا أنه كذلك لا يدوم لهم وسيتم كونه لغيرهم وهان عليهم إنفاقه وسخت بذلك نفوسهم .

و قوله : « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » وعد للأجر على الإنفاق تأكيداً للترغيب ، والمراد بالإيمان بالله والإيمان بالله ورسوله .

قوله تعالى : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم » الخ المراد بالإيمان بالله والإيمان بالله حيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفاق في سبيل الله - وإن شئت فقل : المراد ترتيب آثارها عندهم من الإيمان بالله -

و قوله : « والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم » عبر بالرب وأضافه إليهم تلويحاً إلى علة توجه الدعوة والأمر كأنه قيل : يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربكم يجب عليكم أن تؤمنوا به .

و قوله : « وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية ، وضمير «أخذ» لله سبحانه أو للرسول و على أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية الله ورسالة رسوله يوم آمنوا به ﷺ من أنهم على السمع والطاعة .

وقيل : المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذر ، و على هذا فضمير «أخذ» لله سبحانه ، وفيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه ، على أن أخذ الميثاق في الذر لا يختص بالمؤمنين بل يعم المنافقين والكفار .

قوله تعالى : « هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور » الخ المراد بالآيات البيّنات آيات القرآن الكريم المبيّنة لهم ما عليهم من فرائض الدين ، وفاعل «ليخرجكم» الضمير العائد إلى الله أو إلى رسوله ﷺ ومرجع الثاني

أيضاً هو الأَوَّلُ فالْمِثَاقُ مِثَاقُهُ وقد أخذهُ بواسطة رسوله أَوْ بغير واسطته كما أن الإيمان به و برسوله إيمان به و لذلك قال في صدر الآية : « و ما لكم لا تؤمنون بالله » فذكر نفسه و لم يذكر رسوله إشارة إلى أن الإيمان برسوله إيمان به و قوله : « وإن الله بكم لرؤف رحيم » في تذييل الآية برأفته تعالى و رحمته إشارة إلى أن الإيمان الذي يدعوهم إليه رسوله خير لهم و أصلح وهم الذين ينفعون به دون الله و رسوله ، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان والافتقار .

قوله تعالى : وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض» الميراث و التراث المال الذي ينتقل من الميت إلى من بقي بعده من ورثته ، و إضافة الميراث إلى السماوات والأرض بياناً فـالسماوات و الأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منهما مما يملكه ذووا الشعور من سكنتهما فـالسماوات و الأرض شاملة لما فيهما مما خلق منهما و يتصرف فيها ذووا الشعور كالأنسان مثلاً بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم وهو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه إلى اعتباره فيما بينهم ليستنظم بذلك جهات حياتهم الدنيا .

غير أنهم لا يبقون ولا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم إلى من بعدهم و هكذا حتى يفنى الجميع ولا يبقى إلا هو سبحانه .
فالأرض مثلاً و ما فيها و عليها من مال ميراث من جهة أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثاً دائماً دائراً بينهم خلفاً عن سلف ، وميراث من جهة أنهم سيفنون جميعاً ولا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها .

و الله سبحانه ميراث السماوات و الأرض بكل المعنيين أما الأَوَّلُ فلا أنه الذي يملكهم المال و هو المالك لما ملكهم قال تعالى : «لله ما في السماوات و الأرض» لقمان : ٢٦ ، و قال : «و لله ملك السماوات والأرض» النور : ٢٢ ، و قال : «و آتوهم من مال الله الذي آتاكم» النور : ٣٣ .

و أما الثاني فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى : «كل من عليها فان» الرحمن : ٢٦ و غيره و الذي يسبق إلى الذهن أن المراد بكونهما ميراثاً هو المعنى الثاني .

و كيف كان ففي الآية توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقة إلا هو تعالى ولا يبقى لهم ولا لغيرهم ، ولا يظهر في موضع الإضمار في قوله : «ولله» لتشديد التوبيخ .

قوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل أو لثك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد و قاتلوا » الخ الاستواء بمعنى التساوي ، و قسيم قوله : «من أنفق من قبل الفتح و قاتل» محذوف إيجازا لدلالة قوله : «أو لثك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد و قاتلوا» عليه .

والمراد بالفتح - كما قيل - فتح مكة أوفتح الحديبية و عطف القتال على الانفاق لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالانفاق في سبيل الله المندوب إليه في الآيات هو الانفاق في الجهاد .

وكان الآية مسوقة لبيان أن الانفاق في سبيل الله كلما عجل إليها كان أحب عند الله وأعظم درجة و منزلة و إلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح و القتال الذي بادروا إليه قبل الفتح و بعض المقاتل التي بعده .

و قوله : « و كلا وعد الله الحسنى » أي وعد الله المثوبة الحسنى كل من أنفق و قاتل قبل الفتح أو أنفق و قاتل بعده و إن كانت الطائفة الأولى أعظم درجة من الثانية ، وفيه تطيب لقلوب المتأخرين إنفاقا و قتالاً أن لهم نيلا من رحمته وليسوا بمحرومين مطلقا فلا موجب لأن ييأسوا منها و إن تأخروا .

و قوله : « و الله بما تعملون خير » تذييل متعلق بجميع ما تقدم ففيه تشديد للتوبيخ و تقرير و تثبيت لقوله : «لا يستوي منكم» الخ و لقوله : «وكلا وعد الله الحسنى» و يمكن أن يتعلق بالجملة الأخيرة لكن تعلقه بالجميع أعم و أشمل .

قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم » قال الراغب : و سمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضا . انتهى و قال في المجمع : و أصله القطع فهو قطعه عن مالكه بازنه على ضمان ردّ مثله . قال : و المضاعفة الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله . انتهى ، وقال الراغب : الأجر والأجرة ما يعود

من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً قال : ولا يقال إلا في النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال في النفع والضرر. انتهى ملخصاً .

وما يعطيه تعالى من الثواب على عمل العبد تفضل منه من غير استحقاق من العبد فإن العبد وما يأتيه من عمل ملك طلق له سبحانه ملكاً لا يقبل النقل والانتقال غير أنه اعتبر اعتباراً تشريعياً العبد مالكا وملكه عمله ، وهو المالك لما ملكه وهو تفضل آخر ثم اختار ما أحبه من عمله فوعده ثواباً على عمله وسماه أجراً وجزاء وهو تفضل آخر ، ولا ينتفع به في الدنيا والآخرة إلا العبد قال تعالى : «لَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ» آل عمران : ١٧٢ ، وقال : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» حم السجدة : ٨ ، وقال بعد وصف الجنة ونعيمها : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» الإنسان : ٢٢ ، وما وعده من الشكر وعدم المن عند إيتاء الثواب تمام التفضل .

وفي الآية حثٌ بليغ على ما ندب إليه من الإنفاق في سبيل الله حيث استفهم عن الذي ينفق منهم في سبيل الله ومثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه وعليه أن يردّه ثم قطع أنه لا يرد مثله إليه بل يضاعفه و لم يكتف بذلك بل أضاف إليه أجراً كريماً في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الأخروي كذلك لأنه غاية ما يتصور من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة .

قوله تعالى : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» الخ اليوم ظرف لقوله : «له أجر كريم» والمراد به يوم القيامة ، والخطاب في «ترى» للنبي ﷺ أو لكل سامع يصح خطابه ، والظاهر أن الباء في «بأيمانهم» بمعنى في . والمعنى لمن أقرض الله قرضاً حسناً أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله - أو كل من يصح منه الرؤية - المؤمنين بالله ورسوله والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وفي أيماهم واليمين هو الجهة التي منها سعادتهم .

والآية مطلقة تشمل مؤمنى جميع الأمم ولا تختص بهذه الأمة ، والتعبير عن إشراق النور بالسعي يشعر بأنهم ساعون إلى درجات الجنة التي أعدّها الله سبحانه لهم

وتستنير لهم جهات السعادة ومقامات القرب واحدة بعد واحدة حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى : «و سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا» الزمر : ٧٣ ، وقال : «يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا» مريم : ٨٥ ، وقال : «يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا» التحريم : ٨ .
و للمفسرين في تفسير مفردات الآية أقوال مختلفة أغمضنا عنها لعدم دليل من لفظ الآية عليها ، وسوافيك ما في الروايات الماثورة في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وقوله : « بشاركم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » حكاية ما يقال للمؤمنين و المؤمنين يوم القيامة ، والقائل الملائكة بأمر من الله والتقدير يقال لهم : بشاركم النخ والمراد بالبشرى ما يبشر به وهو الجنة والباقي ظاهر .

وقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » كلام الله سبحانه والإشارة إلى ما ذكر من سعي النور و البشرى أو من تمام قول الملائكة والإشارة إلى الجنات والخلود فيها .

قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم » إلى آخر الآية النظر إذا تعدى بنفسه أفاد معنى الانتظار والإمهال ، وإذا عدى بالى نحو نظر إليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء وإذا عدى بفي كان بمعنى التأمل ، والافتباس أخذ قس من النار .

و السياق يفيد أنهم اليوم في ظلمة أحاطت بهم سراقها وقد ألجؤوا إلى المسير نحو دارهم التي يخلدون فيها غير أن المؤمنين و المؤمنات يسرون بنورهم الذي يسعى بين أيديهم و بأيمانهم فيبصرون الطريق و يهتدون إلى مقاماتهم ، و أما المنافقون و المنافقات فهم مغشيتون بالظلمة لا يهتدون سبيلا و هم مع المؤمنين كما كانوا في الدنيا معهم ومعدودين منهم فيسبق المؤمنون والمؤمنات إلى الجنة و يتأخر عنهم المنافقون والمنافقات في ظلمة تغشاهم فيسألون المؤمنين و المؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم ويأخذوا قساً من نورهم ليستضيؤا به في طريقهم .

و قوله : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، القائل به إما الملائكة أو قوم من كمل المؤمنين كأصحاب الأعراف .

و كيف كان فهو من الله وبإذنه ، والخطاب بقوله : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » قيل : إنه خطاب مبني على التهكم والاستهزاء كما كانوا يستهزئون في الدنيا بالمؤمنين ، و الأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا و محصل المعنى ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراء ظهوركم و علمتم فيها ما علمتم على النفاق ، و التمسوا من تلك الأعمال نورا فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان و لا إيمان لكم ولا عمل .

و يمكن أن يجعل هذا وجهاً على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله : « ارجعوا » أمراً بالرجوع إلى الدنيا و اكتساب النور بالإيمان و العمل الصالح وليسوا براجعين ولا يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق و يدعو إلى السجود فلا يستطيعون و قد كانوا يدعون إلى السجود و هم ساطون » القلم ٤٣ .

وقيل : المراد ارجعوا إلى المكان الذي قسم فيه النور و التمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم و قد ضرب بينهم بسور ، و هذا خدعة منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا في الدنيا يخادعون كما قال : « إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم » النساء : ١٤٢ .

قوله تعالى : « ف ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة و ظاهره من قبله العذاب » سور المدينة حائطها الحاجز بينها و بين الخارج منها ، و الضمير في « ف ضرب بينهم بسور » راجع إلى المؤمنين و المنافقين جميعاً أي ضرب بين المؤمنين و بين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الأخرى .

قيل : السور هو الأعراف و هو غير بعيد و قد تقدمت إشارة إليه في تفسير قوله تعالى : « و بينهما حجاب و على الأعراف رجال » الآية الأعراف : ٢٦ ، و قيل : السور غير الأعراف .

و قوله : « له باب » أي للسور باب و هذا يشبه حال المنافقين في الدنيا فقد كانوا

فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم وارتباط وهم مع ذلك محجوبون عنهم بحجاب . على أنهم يرون أهل الجنة ويزيد بذلك حسرتهم وندامتهم .

وقوله : «باطنه فيه الرحمة و ظاهره من قبله العذاب» «باطنه» مبتدء و جملة «فيه الرحمة» مبتدء و خبر هي خبر «باطنه» و كذا «ظاهره» مبتدء و جملة « من قبله العذاب» مبتدء و خبر هي خبره ، وضميراً «فيه و من قبله» للباطن والظاهر .

و يظهر من كون باطن السور فيه رحمة و ظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين و هم في داخله والمنافقون في الخارج منه .

و في اشتمال داخله الذي يلي المؤمنين على الرحمة و ظاهره الذي يلي المنافقين على العذاب مناسبة لحال الإيمان في الدنيا فإنه نعمة لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها و يلتذون و عذاب لأهل النفاق يتحرجون من التلبس به و يتألمون منه .

قوله تعالى : «ينادونهم ألم نكن معكم» إلى آخر الآية استئناف في معنى جواب السؤال كأنه قيل : فماذا يفعل المنافقون و المنافقات بعد ضرب السور و مشاهدة العذاب من ظاهره ؟ فقيل : ينادونهم الخ .

و المعنى ينادي المنافقون و المنافقات المؤمنين و المؤمنات بقولهم : « ألم نكن معكم » يريدون به كونهم في الدنيا مع المؤمنين و المؤمنات في ظاهر الدين .

وقوله : « قالوا بلى » إلى آخر الآية جواب المؤمنين و المؤمنات لهم و المعنى « قالوا » أي قال المؤمنون و المؤمنات جواباً لهم « بلى » كنتم في الدنيا معنا « و لكنكم فتنتم ، أي محنتم و أهلكتم » أنفسكم و تربصتم « الدوائر بالدين و أهله » و ارتبتم ، و شككتكم في دينكم « و غرتكم الأمانى » و منها أمنيستكم أن الدين سيطفاً نوره و يتركه أهله « حتى جاء أمر الله » و هو الموت « و غرتكم بالله الغرور » بفتح الغين و هو الشيطان .

و الآية - كما ترى - تفيد أن المنافقين و المنافقات يستنصرون المؤمنين و

المؤمنات على ما هم فيه من الظلمة متوسلين بأنهم كانوا معهم في الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين والمؤمنات يجيبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم حيث يفتنون أنفسهم و يتربصون و يرتابون و تغرهم الأماني و يغرهم بالله الغرور، و هذه الصفات الخبيثة آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمة و لا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى : « يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ .

قوله تعالى : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية و لامن الذين كفروا » تتمّة كلام المؤمنين والمؤمنات يخاطبون به المنافقين و المنافقات و يضيفون إليهم الكفار و هم المعلنون لكفرهم أنهم رهنا أعمالهم كما قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر : ٣٨ لا يؤخذ منهم فدية يخلصون بها أنفسهم و الفدية أحد الأمرين الذين بهما التخلص من الرهانة و الآخر ناصر ينصر فينجي و قد نفوه بقولهم : « مأواكم النار الخ .

فقوله : « مأواكم النار هي مولاكم و بشئ المصير » ينفي أي ناصر ينصرهم و ينجيهم من النار غير النار على ما يفيد قوله : « هي مولاكم » من الحصر ، والمولى هو الناصر والجملة مسوقة للتهكم .

و يمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكول و المشرب و الملبس و المنكح و المسكن غير الله سبحانه و حقيقة النار فالיום مولاهم النار وهي التي تعد لهم ذلك فمأكلهم من الزقوم و مشربهم من الحميم و ملبسهم من ثياب قطعت من النار و قرناؤهم الشياطين و مأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به في آيات كثيرة من كلامه .



﴿بحث روائى﴾

في الدّر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم وابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله ﷺ يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يا رسول الله أقريش ؟ قال : لا ولكنهم أهل اليمن هم أرق أفئدة و ألين قلوبا . قلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مدّ أحدكم و لا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا و بين الناس «لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل» الآية .

أقول : روي هذا المعنى بغير واحد من الطرق بألفاظ متقاربة و هي مشتملة على الآية و يشكل بأن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد الفتح و المراد به إمّا الحديبية أو فتح مكة فلا تنطبق على ما قبل الفتح .

و فيه أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية «لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح و قاتل» قال أبو الدحداح : والله لا نفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي و لا يسبقني بها أحد بعدي فقال : اللهم كل شيء يملكه أبو الدحداح فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال : وهذا .

وفي تفسير القمي في قوله : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم» قال : يقسم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم يقسم للمنافق فيكون نوره بين إيهام رجله اليسرى فينظر نوره ثم يقول للمؤمنين : مكانكم حتى أقتبس من نوركم فيقول المؤمنون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً و يضرب بينهم بسورله باب فينادون من وراء السور للمؤمنين : «ألم نكن معكم قالوا : بلى و لكنكم تفتنم أنفسكم» قال : بالمعاصي «و تربصتم و ارتبتم» قال : أي شككتم و تربصتم .

و قوله : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية » قال : والله ما عني بذلك اليهود و

النصارى وما عني به إلا أهل القبلة ثم قال : « مأواكم النار هي مولاكم » قال : هي أولى بكم .

اقول: يعني بأهل القبلة المنافقين منهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :
تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ماخولتهم وتستصغرون بها مواهب الله جل وعز عندكم
وتعقبكم الحشرات فيما وهمتم به أنفسكم .





أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَ
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ (١٩) اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ
يَهْبِجُ فَتَحِيرُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ
مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)
سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) .

﴿ بيان ﴾

جري على وفق مقصد الكلام السابق وهو الحث والترغيب في الإيمان بالله ورسوله والإيفاء في سبيل الله وتضمن عتاب المؤمنين على ما يظهر من علائم قسوة القلوب منهم ، وتأکید الحث على الإيفاء ببيان درجة المنفقين عند الله والأمر بالمسابقة إلى المغفرة والجنة و ذم الدنيا وأهلها الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . وقد تغير السياق خلال الآيات إلى سياق عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب بعد اختصاص السياق السابق بالمسلمين وسيجيء توضيحه .

قوله تعالى : « ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق » إلى آخر الآية . يقال : أئى يأنى انى وإناء أى جاء وقته ، و خشوع القلب تأثره قبال العظمة والكبرياء ، والمراد بذكر الله ما يذكر به الله ، و ما نزل من الحق هو القرآن النازل من عنده تعالى و « من الحق » بيان لما نزل ، و من شأن ذكر الله تعالى عند المؤمن أن يعقب خشوعاً كما أن من شأن الحق النازل من عنده تعالى أن يعقب خشوعاً ممن آمن بالله و رسله .

وقيل : المراد بذكر الله و ما نزل من الحق جميعاً القرآن و على هذا فذكر القرآن بوصفيه لكون كل من الوصفين مستدعياً لخشوع المؤمن فالقرآن لكونه ذكر الله يستدعي الخشوع كما أنه لكونه حقاً نازلاً من عنده تعالى يستدعي الخشوع .

وفي الآية عتاب للمؤمنين على ما عرض لقلوبهم من القسوة و عدم خشوعها للذكر- الله والحق النازل من عنده تعالى و تشبيه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم

الكتاب و طال عليهم الأمد فقصت قلوبهم .

و قوله : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، عطف على قوله : « تخشع » الخ و المعنى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم و أن لا يكونوا » الخ و الأمد الزمان قال الراغب : الفرق بين الزمان و الأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية و الزمان عام في المبدء والغاية ولذلك قال بعضهم : إن المدى والأمد يتقاربان ، انتهى .

و قد أشار سبحانه بهذا الكلام إلى صيرورة قلوبهم كقلوب أهل الكتاب القاسية و القلب القاسي حيث يفقد الخشوع والتأثر عن الحق ربما خرج عن زي العبودية فلم يتأثر عن المناهي واقترب إليهم و الفسوق ، ولذا أردف قوله : « فقصت قلوبهم » بقوله : « و كثير منهم فاسقون » .

قوله تعالى : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » إلى آخر الآية في تعقيب عتاب المؤمنين على قسوة قلوبهم بهذا التمثيل تقوية لرجائهم و ترغيب لهم في الخشوع . و يمكن أن يكون من تمام العتاب السابق و يكون تنبيها على أن الله لا يخلّي هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب و حرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حية خاشعة له يعبد بها كما يريد .

فتكون الآية في معنى قوله : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فممنكم من يبخل و من يبخل فإنما يبخل عن نفسه و الله الغني » و أنتم الفقراء و إن تتواؤا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » سورة محمد : ٣٨ .

و لذلك ذيل الآية بقوله : « قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

قوله تعالى : « إن المصدّقين و المصدّقات و أقرضوا الله قرضا حسناً يضاعف لهم و لهم أجر كريم » تكرر لحديث المضاعفة والأجر الكريم للترغيب في الإنفاق في سبيل الله و قد أضيف إلى الذين أقرضوا الله قرضا حسناً المصدّقون و المصدّقات .

و المصدّقون و المصدّقات بتشديد الصاد و الدال المصدّقون و المصدّقات ، و قوله : « و أقرضوا الله » عطف على مدخول اللام في « المصدّقين » و المعنى أن الذين

نصدّقوا و الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ما أعطوه ولهم أجر كريم .

قوله تعالى : «و الذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصّدّيقون والشهداء عند ربّهم» الخ لم يقل : «آمنوا بالله ورسوله كما قال في أوّل السورة : آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا» وقال في آخرها : «يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله» لأنّه تعالى لمّا ذكر أهل الكتاب في الآية السابقة بقوله : «ولا تكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل» عدل عن السياق السابق إلى سياق عامّ يشمل المسلمين و أهل الكتاب جميعاً كما قال بعد : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات» و أمّا الآيتان المذكورتان في أوّل السورة وآخرها فالخطاب فيهما لمؤمني هذه الأمّة خاصّة ولذا جبيء فيهما بالرسول مفرداً .

و المراد بالإيمان بالله ورسله محض الإيمان الذي لا يفارق بطبعه الطاعة و الاتّباع كما مرّت الإشارة إليه في قوله : «آمنوا بالله ورسوله» الآية ، و المراد بقوله : «أولئك هم الصّدّيقون والشهداء» إلحاقهم بالصّدّيقين و الشهداء بقرينة قوله : «عند ربّهم» وقوله : «لهم أجرهم ونورهم» فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهما معاملة الصّدّيقين و الشهداء فيعطون مثل أجرهم و نورهم .

و الظاهر أنّ المراد بالصّدّيقين و الشهداء هم المذكورون في قوله : «و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين و الصّدّيقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا» النساء : ٦٩ و قد تقدّم في تفسير الآية أنّ المراد بالصّدّيقين هم الذين سرى الصدق في قولهم و فعلهم فيفعلون ما يقولون و يقولون ما يفعلون ، و الشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين في سبيل الله .

فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله ملحقون بالصّدّيقين و الشهداء منزّلون منزلتهم عند الله أي بحكم منه لهم أجرهم و نورهم .

و قوله : «لهم أجرهم و نورهم» ضمير «لهم» للذين آمنوا ، و ضميراً «أجرهم و نورهم» للصّدّيقين و الشهداء أي للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصّدّيقين و الشهداء

و نور من نوع نورهم ، و هذا معنى قول من قال : إن المعنى لهم أجر كأجرهم و نور كنورهم .

و ربّما قيل : إن الآية مسوقة لبيان أنهم صدّيقون و شهداء على الحقيقة من غير إلحاق و تنزيل فهم هم لهم أجرهم و نورهم ، و لعلّ السياق لا يساعد عليه .
و ربّما قيل : إن قوله : «و الشهداء» ليس عطفًا على قوله : «الصدّيقون» بل استثناء ، و «الشهداء» مبتدأ خبره «عند الله» و خبره الآخر «لهم أجرهم» فقد قيل : و الذين آمنوا بالله و رسله أو لك هم الصدّيقون ، و قد تمّ الكلام ثم استؤنف و قيل : «و الشهداء عند ربّهم» كما قيل : «بل أحياء عند ربّهم» آل عمران : ١٦٩ ، والمراد بالشهداء المقتولون في سبيل الله ، ثم تمّم الكلام بقوله : «لهم أجرهم و نورهم» .
وقوله : «و الذين كفروا و اؤكذبوا بآياتنا أو لك أصحاب الجحيم» أي لا يفارقونها و هم فيها دائمين .

و قد تعرّض سبحانه في الآية لشأن الملحقين بالصدّيقين و الشهداء و هم خيار الناس و الناجون قطعاً ، و الكفار المكذّبين لآياته و هم شرار الناس و الهالكون قطعاً بقي فريق بين الفريقين و هم المؤمنون المقترفون للمعاصي و الذنوب على طبقاتهم في التمرّد على الله و رسوله ، و هذا دأب القرآن في كثير من موارد التعرّض لشأن الناس يوم القيامة .

وذلك ليكون بعثاً لقرّيجتي الخوف و الرجاء في ذلك الفريق المتخلّل بين الخيار و الشرار فيميلوا إلى السعادة و يختاروا النجاة على الهلاك .

وذلك أعقب الآية بذكر الحياة الدنيا التي تعلّق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق في سبيل الله ثم بدعوتهم إلى المسابقة إلى المغفرة و الجنة ثم بالإشارة إلى أن ما يصيبهم من المصيبة في أموالهم و أنفسهم مكتوبة في كتاب سابق و قضاء متقدّم فليس ينبغي لهم أن يخافوا المقر في الإنفاق في سبيل الله فيبخلوا و يمسكوا أو يخافوا الموت في الجهاد في سبيل الله فيتخلّفوا و يقعدوا .

قوله تعالى : «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و

تكثر في الأموال والأولاد، الخ اللعب عمل منظوم لغرض خيالي كلعب الأطفال، و اللهو ما يشغل الإنسان عملاً يهيمه، والزينة بناء نوع وربما يراد به ما يتزين به وهي ضم شيء مرغوب فيه إلى شيء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال، و التفاخر المباهاة بالأنسب والأحساب، والتكاثر في الأموال والأولاد.

والحياة الدنيا عرض زائل وسراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكورة: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر وهي التي تتعلق بها هوى النفس الإنسانية ببعضها أو بجميعها وهي أمور وهمية وأعراض زائلة لا تبقى للإنسان وليست ولا واحدة منها تجلب للإنسان كملاً نفسياً ولا خيراً حقيقياً.

وعن شيخنا البهائي رحمه الله أن الخصال الخمس المذكورة في الآية مرتبة بحسب سني عمر الإنسان ومراحل حياته فيتوكل أولاً باللعب وهو طفل أو مراهق ثم إذا بلغ واشتد عظمه تعلق باللهو والملاهي ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملايس الفاخرة والمراكب البهيمية والمنازل العالية وتوكل للحسن والجمال ثم إذا اكتمل أخذ بالمفاخرة بالأحساب والأنساب ثم إذا شاب سعى في تكثير المال والولد.

وقوله: «كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً» مثل لزينة الحياة الدنيا التي تتعلق بها الإنسان غروراً ثم لا يلبث دون أن يسلبها.

والغيث المطر والكفار جمع كافر بمعنى الحارث، و يهيج من الهيجان وهو الحركة، والحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات.

و المعنى أن مثل الحياة الدنيا في بهجتها المعجبة ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحرات نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك إلى غاية ما يمكنه من النمو فتراه مصفراً اللون ثم يكون هشيماً متكسراً - متلاشياً تذروه الرياح -.

وقوله: «وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان» سبق المغفرة على الرضوان لتطهير المحل ليحل به الرضوان، وتوصيف المغفرة بكونه من الله دون العذاب

لا يخلو من إيمان إلى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفرة وأما العذاب فليس بمطلوب في نفسه وإنما يستبب إليه الإنسان بخروجه عن زي العبودية كما قيل .
وقوله : «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» أي متاع التمتع منه هو الغرور به، وهذا للمتعلق بالمغفور بها .

والكلام أعني قوله : « وفي الآخرة عذاب شديد و مغفرة من الله ورضوان » إشارة إلى وجهي الحياة الآخرة ليأخذ السامع حذره فيختار المغفرة و الرضوان على العذاب ثم في قوله : «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» تنبيه و إيقاظ لثلاث نغمة الحياة الدنيا بخاصة غروره .

قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » الخ المسابقة هي المغالبة في السبق للوصول إلى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركة صاحبه ففي معنى المسابقة ما يزيد على معنى المسارعة فإن المسارعة الجدي في تسريع الحركة والمسابقة الجدي في تسريعها بحيث تزيد في السرعة على حركة صاحبه .

و على هذا فقوله : «سابقوا إلى مغفرة» الخ يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله : «سارعوا إلى مغفرة من ربكم و الجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين» آل عمران : ١٣٣ .

و يظهر به عدم استقامة ما قيل : إن آية آل عمران في السابقين المقربين و الآية التي نحن فيها في عامة المؤمنين حيث لم يذكر فيها إلا الإيمان بالله ورسله بخلاف آية آل عمران فإنها مذيّلة بجملة الأعمال الصالحة ، ولذا أيضا وصف الجنة الموعودة هناك بقوله : «عرضها السماوات والأرض» بخلاف ما ههنا حيث قيل : «عرضها كعرض السماء والأرض» فدل على أن الجنة أولئك أوسع من الجنة هؤلاء .

وجه عدم الاستقامة ما عرفت أن المسكلف به في الآية المبحوث عنها معنى فوق ما كلف به في آية آل عمران . على أن اللام في «السماء» للجنس فتتطبق على «السماوات» في تلك الآية .

و تقديم المغفرة على الجنة في الآية لأن الحياة في الجنة حياة طاهرة في عالم الطهارة فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب و أوساخها .

و المراد بالعرض السعة دون العرض المقابل للطول وهو معنى شائع ، والكلام كأنه - مسوق للدلالة على انتهائها في السعة .

و قيل : المراد بالعرض ما يقابل الطول و الاقتصار على ذكر العرض أبلغ من ذكر الطول معه فإن العرض أقصر الامتدادين و إذا كان كعرض السماء و الأرض كان طولها أكثر من طولها .

ولا يخلو الوجه من تحكّم إن لادليل على مساواة طول السماء والأرض لعرضهما ثم على زيادة طول الجنة على عرضها حتى يلزم زيادة طول الجنة على طولها و الطول قد يساوي العرض كما في المربع و الدائرة و سطح الكرة وغيرها و قد يزيد عليه .

و قوله : « أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » قد عرفت في ذيل قوله : « آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » و قوله : « الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » أن المراد بالإيمان بالله و رسله هو مرتبة عالية من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحة و اجتناب الفسوق و الإثم .

و بذلك يظهر أن قول بعضهم : إن في الآية بشارة لعامة المؤمنين حيث قال : « أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » ولم يقيّد الإيمان بشيء من العمل الصالح ونحوه غير سديد فإن خطاب الآية و إن كان بظاهر لفظه يعم الكافر والمؤمن الصالح والطالح لكن وجه الكلام إلى المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان الذي يصاحب العمل الصالح ، و لو كان المراد بالإيمان بالله و رسله مجرد الإيمان و لو لم يصاحبه عمل صالح وكانت الجنة معدة لهم و الآية تدعو إلى السباق إلى المغفرة و الجنة كان خطاب « سابقوا » متوجّهاً إلى الكفار فإن المؤمنين قد سبقوا و سياق الآيات ياباه .

و قوله : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » و قد شاء أن يؤتيه الذين آمنوا بالله و رسله ، و قد تقدّم بيان أن ما يؤتيه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من

غير أن يستحقوه عليه .

وقوله : « و الله ذو الفضل العظيم » إشارة إلى عظمة فضله ، و أن ما يشيهم به من المغفرة والجنة من عظيم فضله .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض و لا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » النخ المصيبة الواقعة التي تصيب الشيء مأخوذة من إصابة السهم الغرض وهي بحسب المفهوم أعم من الخير و الشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبة هي النائية ، و المصيبة التي تصيب في الأرض كالجذب و عاهة الثمار و الزلزلة المخربة و نحوها ، و التي تصيب في الأنفس كالمرض و الجرح و الكسر و القتل و الموت ، والبرء والبروء الخلق من العدم ، و ضمير « نبرأها » للمصيبة ، و قيل : للأنفس ، و قيل : للأرض ، و قيل : للجميع من الأرض و الأنفس و المصيبة ، و يؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما في الدنيا من المصائب الموجبة لنقص الأموال و الأنفس التي تدعوهم إلى الإمساك عن الإنفاق و التخلف عن الجهاد .

و المراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن إلى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات و الروايات و إنما اقتصر على ذكر ما يصيب في الأرض و في أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها .

قيل : إنما قيد المصيبة بما في الأرض و في الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبة في اللوح لأن اللوح متناه و الحوادث غير متناهية و لا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي .

و الكلام مبني على أن المراد باللوح لوح فلزّي أو نحوه منصوب في ناحية من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغة من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا ، و قد مر كلام في معنى اللوح و القلم و سيجيء له تمة .

وقيل : المراد بالكتاب علمه تعالى وهو خلاف الظاهر إلا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلي .

و ختم الآية بقوله : « إن ذلك على الله يسير » للدلالة على أن تقدير الحوادث

قبل وقوعها و القضاء عليها بقضاء لا يتغير لاصعوبة فيه عليه تعالى .

قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الخ تعليل راجع إلى الآية السابقة و هو تعليل للإخبار عن كتابة الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابة ، و الأسى الحزن ، والمراد بما فات و ما آتى النعمة الفائتة و النعمة المؤتاة . والمعنى أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل حدوثها و تحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم و لا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الإنسان إذا أيقن أن الذي أصابه مقدر كائن لامحالة لم يكن ليخطئه وأن ما أوتيته من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاتته و لا فرجه إذا أوتيته .

قيل : إن اختلاف الإسناد في قوله : « ما فاتكم » و « ما آتاكم » حيث أسند الفوت إلى نفس الأشياء و الإيتاء إلى الله سبحانه لأن الفوات و العدم ذاتي للأشياء فلو خليت و نفسها لم تبق بخلاف حصولها و بقاءها فإنه لا بد من استنادهما إلى الله تعالى . وقوله : « والله لا يحب كل مختال فخور » المختال من أخذته الخيلاء و هي التكبر عن تخیل فضيلة تراءت له من نفسه - على ما ذكره الراغب - و الفخور الكثير الفخر و المباهاة ، و الاختيال و الفخر ناشئان عن توهم الإنسان أنه يملك ما أوتيته من النعم باستحقاق من نفسه ، و هو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك إلى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الإنسان فهما من الرذائل والله لا يحبها .

قوله تعالى : « الذين يبخلون و يأمرؤن الناس بالبخل » وصف لكل مختال فخور يفيد تعليل عدم حبه تعالى . والوجه في بخلهم الاحتفاظ للمال الذي يعتمد عليه اختيالهم و فخرهم و الوجه في أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم ، و لأن شيوع السخاء و الجود بين الناس و إقبالهم على الإنفاق في سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم .

وقوله : « و من يتول فإن الله هو الغني الحميد » أي و من يعرض عن الإنفاق و لم يتعظ بعظة الله و لا اطمأن قلبه بما بينه من صفة الدنيا و نعت الجنة و تقدير الأمور فإن الله هو الغني فلا حاجة له إلى إنفاقهم ، و المحمود في أفعاله .

والآيات الثلاث أعني قوله : « وما أصاب من مصيبة - إلى قوله - الغني الحميد » كما ترى حث على الإنفاق و ردع عن البخل و الإمساك بتزهيدهم عن الأسى بما فاتهم و الفرح بما آتاهم لأن الأمور مقدرة مقضية مكتوبة في كتاب معينة قبل أن يبرأها الله سبحانه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « ألم يأن » الآية : أخرج ابن المبارك و عبد الرزاق و ابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت : « ألم يأن للذين آمنوا » .

أقول : هذه أعدل الروايات في نزول السورة و هناك رواية عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا الله بهذه « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » إلا أربع سنين ، و ظاهره كون السورة مكية ، و في معناه ما ورد أن عمر آمن بعد نزول هذه السورة و قد عرفت أن سياق آيات السورة تأبى إلا أن تكون مدنية ، و يمكن حمل رواية ابن مسعود على كون آية « ألم يأن » النخ أو هي و التي تنلوها مما نزل بمكة دون باقي آيات السورة .

و في رواية عن النبي ﷺ استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله « ألم يأن » الآية ، و لازمه نزول السورة سنة أربع أو خمس من الهجرة ، و في رواية أخرى عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : « ألم يأن » النخ و لازمه نزول السورة أيام الهجرة ، و الروايتان أيضا لا تلائمان سياق آياتها .

وفيه أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله يقول : « مؤمنوا أمتي شهداء ثم تلا النبي ﷺ « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم » .

و في تفسير العياشي بإسناده عن منهل القصاب قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :
ادع الله أن يرزقني الشهادة فقال : إن المؤمن شهيد وقرأ هذه الآية .
أقول : و في معناه روايات أخرى و ظاهر بعضها كهذه الرواية تفسير الشهادة
بالقتل في سبيل الله .

و في تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :
جعلت فداك فما حدّ الزهد في الدنيا ؟ فقال : قد حدّ الله في كتابه فقال عزّ وجلّ :
« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

و في نهج البلاغة قال عليه السلام : الزهد كلّهُ بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى :
« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » و من لم يأس على الماضي ولم يفرح
بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

أقول : و الأساس الذي يبتنيان عليه عدم تعلق القلب بالدنيا و في الحديث
المعروف : حبّ الدنيا رأس كل خطيئة .





لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَ
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَابْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا
وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ
رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا
بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ
يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ
عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

﴿بيان﴾

ثم إنه تعالى إثر ما أشار إلى قسوة قلوب المؤمنين و ثقافتهم و فتورهم في امتثال التكليف الدينيّة و خاصّة في الإنفاق في سبيل الله ، الذي به قوام أمر الجهاد و شبّههم بأهل الكتاب حيث قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد .

ذكر أن الغرض الإلهي من إرسال الرسل و إنزال الكتاب و الميزان معهم أن يقوم الناس بالقسط ، و أن يعيشوا في مجتمع عادل ، و قد أنزل الحديد ليمتحن عباده في الدفاع عن مجتمعهم الصالح و بسط كلمة الحق في الأرض مضافاً إلى ما في الحديد من منافع ينتفعون بها .

ثم ذكر أنه أرسل نوحاً و إبراهيم عليهما السلام و جعل في ذريتهما النبوة و الكتاب و أتبعهم بالرسول بعد الرسول فاستمر الأمر في كل من الأمم على إيمان بعضهم و اهتدائه و كثير منهم فاسقون ثم ختم الكلام في السورة بدعوتهم إلى تكميل إيمانهم ليؤتوا كفلين من الرحمة .

قوله تعالى : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» الخ استئناف يتبيّن به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل و إنزال الكتاب و الميزان و أن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط و امتحانهم بذلك و بإنزال الحديد ليمتيز من ينصر الله بالغيب و يتبين أن أمر الرسالة لم يزل مستمراً بين الناس و لم يزالوا يهتدي من كل أمة بعضهم و كثير منهم فاسقون .

فقوله : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات» أي بالآيات البينات التي يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهرة و البشارات الواضحة و الحجج القاطعة .

و قوله : «وأنزلنا معهم الكتاب» و هو الوحي الذي يصلح أن يكتب فيصير كتاباً ، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد و عمل و هو خمسة : كتاب نوح و كتاب

إبراهيم و التوراة والا نجيل والقرآن .

و قوله : « و الميزان ليقوم الناس بالقسط » فسروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال ، و أخذوا قوله : « ليقوم الناس بالقسط » غاية متعلقة بانزال الميزان والمعنى وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يفسدوا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوم حياة الإنسان بالاجتماع ، و قوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم و المبادلات في الأمتعة و السلع ، و قوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها و هو شأن الميزان .

و لا يبعد - والله أعلم - أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان و أعمالهم ، و هو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين و منفردين ، و هذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم و قسوة قلوبهم و جدتهم و مساهلتهم في أمر الدين . و قيل : المراد بالميزان هنا العدل و قيل : العقل .

و قوله : « و أنزلنا الحديد » الظاهر أنه كقوله تعالى : « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، و قد تقدم في تفسير الآية أن تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعدما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده و من الغيب إلى الشهادة قال تعالى : « و إن من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و قوله : « فيه بأس شديد و منافع للناس » البأس هو الشدة في التأثير و يغلب استعماله في الشدة في الدفاع و القتال ، و لا تزال الحروب و المقاتلات و أنواع الدفاع ذات حاجة شديدة إلى الحديد و أقسام الأسلحة المعمولة منه منذ تنبأ البشر له و استخرجه .

و أما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج إلى البيان فله دخل في جميع شعب الحياة و ما يرتبط بها من الصنائع .

و قوله : « و ليعلم الله من ينصره و رسله بالغيب » غاية معطوفة على محذوف و

التقدير و أنزلنا الحديد لكذا وليعلم الله من ينصره الخ و المراد بنصره و رسله الجهاد في سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين و بسطاً لكلمة الحق ، و كون النصر بالغيب كونه في حال غيبته منهم أو غيبتهم منه ، و المراد بعلمه بمن ينصره و رسله تمييزهم ممن لا ينصر .

و ختم الآية بقوله : «إن الله قوى عزيز» و كأن وجهه الإشارة إلى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو لتمييز المحمّل منهم من غيره لالحاجة منه تعالى إلى ناصر ينصره إنّه تعالى قوى لاسبيل للضعف إليه عزيز لاسبيل للذلة إليه .

قوله تعالى : « و لقد أرسلنا نوحا و إبراهيم و جعلنا في ذريتهما النبوة و الكتاب فمنهم مهتد و كثير منهم فاسقون » شروع في الإشارة إلى أن الاهتداء و الفسق جاريان في الأمم الماضية حتى اليوم فلم تصلح أمة من الأمم بعامة أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين .

و ضمير «فمنهم» و «منهم» للذريّة والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «ثم قفينا على آثارهم برسلنا و قفينا بعيسى بن مريم و آتيناه الإنجيل» في المجمع : التقفية جعل الشيء في إثر شيء على الاستمرار فيه ، و لهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمرة في غيره على منهاجه . انتهى .

و ضمير «على آثارهم» لنوح و إبراهيم و السابقين من ذريتهما ، و الدليل عليه أنه لا نبي بعد نوح إلا من ذريته لأنّ النسل بعده له . على أن عيسى من ذريّة إبراهيم قال تعالى في نوح : « و جعلنا ذريته هم الباقين » الصافات : ٧٧ و قال : « و من ذريته داود و سليمان - إلى أن قال - و عيسى » الأنعام : ٨٥ فالمراد بقوله : «ثم قفينا على آثارهم برسلنا» الخ التقفية باللاحقين من ذريتهما على آثارهما و السابقين من ذريتهما .

و في قوله : «على آثارهم» إشارة إلى أن الطريق المسلك واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض .

و قوله : « و قفينا بعيسى بن مريم و آتيناه الإنجيل و جعلنا في قلوب الذين

اتَّبِعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، الرَأْفَةُ وَ الرَحْمَةُ - عَلَى مَا قَالُوا - مترادفان ، و نقل عن بعضهم أن الرَأْفَةَ يقال في درء الشرِّ و الرحمة في جلب الخير .

والظاهر أن المراد بجعل الرَأْفَةَ والرحمة في قلوب الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ توفيقهم للرَأْفَةِ و الرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضدة و المسامحة كما وصف الله سبحانه الَّذِينَ مع النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ إِنْ قَالَ : «رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ» الفتح : ٢٩ ، و قيل : المراد بجعل الرَأْفَةَ و الرحمة في قلوبهم الأمر بهما و الترغيب فيهما و وعد الثواب عليهما .

و قوله : « و رَهَابِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » الرَهَابِيَّةُ من الرهبة و هي الخشية ، و يطلق عرفاً على انقطاع الإنسان من الناس لعبادة الله خشية منه ، و الابتداع إتيان ما لم يسبق إليه في دين أو سنة أو صنعة ، و قوله : « ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » في معنى الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : ما معنى ابتدعهم لها ؟ فقيل : ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ . و المعنى أَنَّهُمْ ابْتَدَعُوا من عند أنفسهم رَهَابِيَّةً من غير أن نَشْرَعَهُ نحن لهم . و قوله : « إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » استثناء منقطع معناه ما فرضناها عليهم لكنهم وضعوها من عند أنفسهم ابتغاء لرضوان الله و طلباً لرضائه فما حافظوا عليها حقَّ محافظتها بتعدِّيهم حدودها .

و فيه إشارة إلى أَنَّهَا كانت مرضيةً عنده تعالى و إن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها .

و قوله : « فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » إشارة إلى أَنَّهُمْ كَالسَّابِقِينَ مِنْ أُمَّمِ الرِّسْلِ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ مَأْجُورُونَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ، و الغلبة للفسق .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » الخ أمرُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالتَّقْوَى و الإِيْمَانِ بِالرَّسُولِ مع أَنَّ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا الدَّعْوَةَ فَآمَنُوا بِاللَّهِ بِرَسُولِهِ أَيْضاً دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِيْمَانِ بِالرَّسُولِ الْإِتِّبَاعَ التَّامَّ و الطَّاعَةَ الْكَامِلَةَ لِرَسُولِهِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَ يَنْهَى عَنْهُ سِوَاءِ كُنْ مَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْ يَنْهَى عَنْهُ حُكْماً مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ صَادِراً عَنْهُ بِمَالِهِ مِنْ وَلايَةِ أُمُورِ الْأُمَّةِ كَمَا قَالَ

تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» النساء : ٦٥ .

فهذا إيمان بعد إيمان و مرتبة فوق مرتبة الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه ، و بهذا يناسب قوله : «يؤتكم كفلين من رحمته» و الكفل الحظ و النصيب فله ثواب على ثواب كما أنه إيمان على إيمان .

و قيل : المراد بإتاء كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل : يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الإيمان بالرسول المتقدمين و بخانمهم ﷺ لا تفرقون بين أحد من رسله .

و قوله : «ويجعل لكم نوراً تمشون به» قيل : يعني يوم القيامة وهو النور الذي أُشير إليه بقوله : «يسمى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم» .

و فيه أنه تقييد من غير دليل بل لهم نورهم في الدنيا و هو المدلول عليه بقوله تعالى : «أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» الأنعام : ١٢٢ ، و نورهم في الآخرة و هو المدلول عليه بقوله : «يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم» الآية ١٢ من السورة و غيره .

ثم كمل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته وجعل نور يمشون به بالمغفرة فقال : «ويغفر لكم والله غفور رحيم» .

قوله تعالى : «لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرّون على شيء من فضل الله» ظاهر السياق أن الآية التفاتاً من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي ﷺ ، والمراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم ، و «أن» مخففة من الثقيلة ، و ضمير «يقدرّون» للمؤمنين ، وفي الكلام تعليل لمضمون الآية السابقة .

و المعنى إنما أمرناهم بالإيمان بعد الإيمان و وعدناهم كفلين من الرحمة و جعل النور و المغفرة لئلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرّون على شيء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا .

وقيل : إن « لا » في « لثلاث يعلم » زائدة وضمير « يقدر » لا أهل الكتاب ، و
المعنى إنما وعدنا المؤمنين بما وعدنا لأن يعلم أهل الكتاب القائلون : إن من آمن
منّا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن فله أجر واحد لا يمانه بكتابنا ، أنهم لا يقدر
على شيء من فضل الله إن لم يؤمنوا ، هذا ولا يخفى عليك ما فيه من التكلف .
وقوله : « وأن الفضل بيد الله و الله ذو الفضل العظيم » معطوف على « أن لا
يعلم » والمعنى إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا وكذا و لأن الفضل بيد الله و الله ذو
الفضل العظيم .
وفي الآية أقوال واحتمالات أخر لا جدوى في إيرادها والبحث عنها .

﴿ بحث روائى ﴾

عن جوامع الجامع روي أن جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال :
مر قومك يز نوابه .
في الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث وقال : « وأزلنا الحديد فيه بأس شديد »
فإنزاله ذلك خلقه إياه .

و في المجمع عن ابن مسعود قال : كنت رديف رسول الله على الحمار فقال : يا ابن
أم عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله و رسوله أعلم .
فقال : ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الايمان
فقاتلوهم فهزم أهل الايمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل .
فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا و لم يبق للدين أحد يدعو إليه فتمالوا فنفروا
في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى يعنون محمدا عليه السلام فنفروا في
غيران ^(١) الجبال و أحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ، و منهم من كفر . ثم
تلا هذه الآية « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » إلى آخرها .
ثم قال : يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمّتي ؟ قلت : الله و رسوله أعلم . قال

الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة .

و في الكافي بإسناده عن أبي الجارود قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : لقد آتى الله أهل الكتاب خيراً كثيراً . قال : و ما ذاك ؟ قلت : قول الله عز وجل : « الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْكِتَابِ الْغَدِ » . إلى قوله - أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » قال : فقال : آتاكم الله كما آتاهم ثم تلا « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ » . يعني إماماً تَأْتَمُّونَ بِهِ .

و في المجمع عن سعيد بن جبیر بعث رسول الله صلی الله علیه و آله جعفرأ في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه فقدم عليه و دعاه فاستجاب له و آمن به فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته و هم أربعون رجلاً : ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به . فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخاصة استأذنوا رسول الله صلی الله علیه و آله و قالوا : يا نبي الله إن لنا أموالاً و نحن نرى ما بالمسلمين من الخاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فحجنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فأنزل الله فيهم : « الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْكِتَابِ الْغَدِ » . إلى قوله - و مما رزقناهم ينفقون » فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين .

فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله : « أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فخروا على المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين أمّا من آمن منا بكتابنا و كتابكم فله أجران ، و من آمن منا بكتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا ؟ فنزل قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ » الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال : « ثَلَاثٌ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ » .



﴿سورة المجادلة مدنية وهي اثنان وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا
وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْيَئُوسَى وَلَدْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ (٢)
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣)
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا
كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ
نُصُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

﴿بيان﴾

تعرض السورة لمعان متنوعة من حكم وأدب وصفة فشطرنها في حكم الظهار
والنجوى و أدب الجلوس في المجالس و شطر منها يصف حال الذين يحادون الله و
رسوله ، والذين يوادون أعداء الدين ويصف الذين يتحرزون من موادتهم من المؤمنين

و بعدهم جميلاً في الدنيا و الآخرة .

و السورة مدنيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما» الخ قال في المجمع : الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه ، والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه . قال : و التحاوّر التراجع و هي المحاورّة يقال : حاوّرته محاورّة أي راجعه الكلام و تحاورا . انتهى .

الآيات الأربع أو الستّ نزلت في الظهار وكان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهليّ كان الرجل يقول لامرأته : أنت منّي كظهر أمّي فتنفصل عنه و تحرم عليه مؤبّدة و قد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثمّ ندم عليه فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ تسألّه فيه لعلّها تجد طريقاً إلى رجوعه إليها و تجادله ﷺ في ذلك و تشتكي إلى الله فنزلت الآيات .

و المراد بالسمع في قوله : «قد سمع الله» استجابة الدعوة و قضاء الحاجة من باب الكناية و هو شائع ، و الدليل عليه قوله : «تجادلك في زوجها و تشتكي إلى الله» الظاهر في أنّها كانت تتوخّى طريقاً إلى أن لا تنفصل عن زوجها ، و أمّا قوله : «والله يسمع تحاوركما» فالسمع فيه بمعناه المعروف .

و المعنى قد استجاب الله للمرأة التي تجادلک في زوجها - و قد ظاهر منها - و تشتكي غمّها و ما حلّ بها من سوء الحال إلى الله و الله يسمع تراجعكما في الكلام إن الله سميع للأصوات بصير للمبصرات .

قوله تعالى : «الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمّهاتهم إن أمّهاتهم إلا اللائي ولدنهم» الخ نفى لحكم الظهار المعروف عندهم و إلغاء لتأثيره بالطلاق و التحريم الأبديّ بنفي أمومة الزوجة للزوج بالظهار فإنّ سنّة الجاهليّة كانت تلحق الزوجة بالأمّ بسبب الظهار فتحرم على زوجها حرمة الأمّ على ولدها حرمة مؤبّدة .

فقوله : «ما هن أمّهاتهم» أي بحسب اعتبار الشرع بأن يلحقن شرعاً بهنّ بسبب الظهار فيحرمن عليهنّ أبداً ثمّ أكّده بقوله : «إن أمّهاتهم إلا اللائي ولدنهم» أي ليس

أَمَّهَاتُ أَزْوَاجِهِنَّ إِلَّا النِّسَاءَ اللَّاتِي وَلَدْنَهُنَّ .

ثمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ : « وَ إِنَّمَا لِيَقُولُوا مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَ زُورًا » بِمَا فِيهِ مِنْ سِيَاقِ التَّأْكِيدِ أَيْ وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْأَزْوَاجُ الْمَظَاهِرِينَ لِيَقُولُوا بِالظَّاهِرِ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ يَنْكَرُهُ الشَّرْعُ حَيْثُ لَمْ يَعتَبِرْهُ وَ لَمْ يَسْنَهُ ، وَ كَذَبًا بِاعتبار أَنَّهُ لَا يُوَافِقُ الشَّرْعَ كَمَا لَا يَطَابِقُ الْخَارِجَ الْوَاقِعَ فِي الْكُونِ فَأَفَادَتِ الْآيَةُ أَنَّ الظَّاهِرَ لَا يَفِيدُ طَلَاقًا وَ هَذَا لَا يَنَافِي وَجُوبَ الْكُفَّارَةِ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادَ الْمَوَاقَعَةُ بَعْدَ الظَّاهِرِ فَالزَّوْجِيَّةُ عَلَى حَالِهَا وَ إِنْ حُرِّمَتْ الْمَوَاقَعَةُ قَبْلَ الْكُفَّارَةِ .

وَ قَوْلُهُ : « وَ إِنْ اللَّهُ لَعَفُو غُفُورٌ » لَا يَخْلُو مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى كَوْنِهِ ذَنْبًا مَغْفُورًا لَكِنْ ذَكَرَ الْكُفَّارَةَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مَعَ تَذْيِيلِهَا بِقَوْلِهِ : « وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » رُبَّمَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَغْفِرَةَ مَشْرُوطَةٌ بِالْكَفَّارَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » الْخُ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ وَ لِذَلِكَ دَخَلَتْ الْفَاءُ فِي الْخَبَرِ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْجَزَاءِ وَ الْمَحْصَلُ أَنَّ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُنَّ ثُمَّ أَرَادُوا الْعُودَ لِمَا قَالُوا فَعَلَيْهِمْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .

وَ فِي قَوْلِهِ : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْآيَةِ لِمَنْ ظَاهَرَ ثُمَّ أَرَادَ الرَّجُوعَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الظَّاهِرِ وَهُوَ قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : « يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » إِرَادَةَ الْعُودِ إِلَى نَقْضِ مَا أَبْرَمُوهُ بِالظَّاهِرِ .

وَ الْمَعْنَى وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَرِيدُونَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى مَا تَكَلَّمُوا بِهِ مِنْ كَلِمَةِ الظَّاهِرِ فَيَنْقُضُوهَا بِالْمَوَاقَعَةِ فَعَلَيْهِمْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا .

وَ قِيلَ : الْمُرَادُ بِعُودِهِمْ لِمَا قَالُوا نَدَمُهُمْ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَ فِيهِ أَنَّ النَّدَمَ عَلَيْهِ يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ مَحْصَلُ الْمَعْنَى لَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْكَلِمَةِ « يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » .

وَ قِيلَ : الْمُرَادُ بِعُودِهِمْ لِمَا قَالُوا رَجُوعُهُمْ إِلَى مَا تَلَفَّظُوا بِهِ مِنْ كَلِمَةِ الظَّاهِرِ بِأَنْ يَتَلَفَّظُوا بِهَا ثَانِيًا وَ فِيهِ أَنَّ لَازِمَهُ تَرْتَبُ الْكُفَّارَةُ دَائِمًا عَلَى الظَّاهِرِ الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ وَالْآيَةُ لَا تَفِيدُ ذَلِكَ وَ السَّنَةُ إِنَّمَا اعتبرتْ تَحَقُّقَ الظَّاهِرِ دُونَ تَعَدُّدِهِ .

ثم ذيل الآية بقوله : «ذلكم توعظون به والله بما تعملون خير» إيداناً بأن ما أمر به من الكفارة توصية منه بها عن خبرة بعملهم ذاك ، فالكفارة هي التي يرتفع بها ما لحقهم من تبعة العمل .

قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماساً » إلى آخر الآية خصلة ثانية من الكفارة مترتبة على الخصلة الأولى لمن لا يتمكن منها و هي صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماساً ، وقيد ثانياً بقوله : « من قبل أن يتماساً » لدفع توهم اختصاص القيد بالخلصة الأولى .

وقوله : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » بيان للخلصة الثالثة فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكيناً وتفصيل الكلام في ذلك كله في الفقه .

وقوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي ما جعلناه من الحكم وافترضناه من الكفارة فأبقينا علقه الزوجية ووضعنا الكفارة لمن أراد أن يرجع إلى الموافقة جزاء بما أتى بسنة من سنن الجاهلية كل ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله و ترفضوا أباطيل السنن .

وقوله : « وتلك حدود الله وللكاثرين عذاب أليم » حد الشيء ما ينتهي إليه و لا يتعداه وأصله المنع ، والمراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة وللكاثرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالمخالفة والمحادة عذاب أليم .

والظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم و الأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثرة مقبولة ، ويؤيده قوله : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » أي تدعوا بأن حكم الله حق وأن رسوله صادق أمين في تبليغه ، وقد أكد بقوله : « وتلك حدود الله » الخ ، ويمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر في مقام العمل وهو العصيان .

قوله تعالى : « إن الذين يعادون الله ورسوله كتبوا كما كتب الذين من قبلهم » الخ المحادة الممانعة و المخالفة ، والكتب الإذلال والإخزاء .

و الآية والتي تتلوها وإن أمكن أن تكونا استثناءً يبين أمر محادثة الله و رسوله من حيث تبعثها وأثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآية السابقة الذي معناه النهي عن محادثة الله و رسوله والمعنى إنما أمرناكم بالإيمان بالله و رسوله و نهيناكم عن تعدّي حدود الله و الكفر بها لأن الذين يحادّون الله و رسوله بالمخالفة أذكوا و أخذوا كما أذلّ و أخزي الذين من قبلهم .

ثم أكدّه بقوله : « وقد بينّا آيات بينات و للكافرين عذاب مهين » أي لاريب في كونها منّا و في أن رسولنا صادق أمين في تبليغها ، و للكافرين بها الرادّين لها عذاب مهين مخز .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله فينبئهم بما عملوا » ظرف لقوله : « و للكافرين عذاب أليم » أي لهم أليم العذاب في يوم يبعثهم الله و هو يوم الحساب و الجزاء فيخبرهم بحقيقة جميع ما عملوا في الدنيا .

و قوله : « أحصاه الله و نسوه » الإحصاء الإحاطة بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء قال الراغب : الإحصاء التحصيل بالعدد يقال : أحصيت كذا ، و ذلك من لفظ الحصى ، و استعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العدد كاعتمادنا فيه على الأصابع . انتهى .

و قوله : « إن الله على كل شيء شهيد » تعليل لقوله : « أحصاه الله » و قد مرّ تفسير شهادة الله على كل شيء في آخر سورة حمّ السجدة .

﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور أخرج ابن ماجه و ابن أبي حاتم و الحاكم و صحيحه و ابن مردويه و البيهقي عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إنني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفى عليّ بعضه و هي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ و هي تقول : يا رسول الله أكل شبابي و نثرت له بطني حتى إذا كبر سنّي و انقطع ولدي ظاهر منّي اللهم إنني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات « قد سمع

الله قول التي تجادلك في زوجها» وهو أوس بن الصامت .

اقول : و الروايات من طرق أهل السنة في هذا المعنى كثيرة جداً ، واختلفت في اسم المرأة و اسم أبيها و اسم زوجها و اسم أبيه و الأعراف أن اسمها خولة بنت ثعلبة و اسم زوجها أوس بن الصامت الأنصاري و أورد القمي إجمال القصة في رواية ، و له رواية أخرى ستوافيك .

وفي المجمع في قوله تعالى : «و الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا» فأما ما ذهب إليه أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام فهو أن المراد بالعود إرادة الوطء و نقض القول الذي قاله فإن الوطء لا يجوز له إلا بعد الكفارة ، و لا يبطل حكم قوله الأول إلا بعد الكفارة .

و في تفسير القمي حدثنا علي بن الحسين قال : حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاد عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن امرأة من المسلمين أتت النبي صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله إن فلانا زوجي وقد نثرت له بطني و أعنته على دنياه و آخرته لم ترمني مكروهاً أشكوه إليك . قال : فيم تشكونيه ؟ قالت : إنّه قال : أنت علي حرام كظهر أمي و قد أخرجني من منزلي فانظر في أمري . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أنزل الله تبارك و تعالى كتاباً أقضي فيه بينك و بين زوجك و أنا أكره أن أكون من المتكلمين فجعلت تبكي و تشتكي ما بها إلى الله عز و جل و إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرفت .

قال : فسمع الله تبارك و تعالى مجادلتها لرسول الله صلى الله عليه وآله في زوجها و ما شكت إليه ، و أنزل الله في ذلك قرآنا بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها - إلى قوله - وإن الله لعفو غفور .

قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المرأة فأنته فقال لها : جيئي بزوجك فأنته فقال له : أقلت لامرأتك هذه : أنت حرام على كظهر أمي ؟ فقال : قد قلت لها ذلك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : قد أنزل الله تبارك و تعالى فيك و في امرأتك قرآنا و قرء : بسم - الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك - إلى قوله - إن الله لعفو غفور ،

فضمّ إليك امرأتك فأنك قد قلت منكراً من القول و زورا ، و قد عفى الله عنك و غفر لك و لاتعد .

قال : فانصرف الرجل و هو نادم على ما قال لامرأته و كره الله عزّ و جلّ ذلك للمؤمنين بعد و أنزل الله : «الذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا» يعنى لما قال الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر امّى .

قال : فمن قالها بعد ما عفى الله و غفر للرجل الأوّل فإنّ عليه « تحرير رقبة من قبل أن يتماسّا » يعنى مجامعتها « ذلكم توعظون به و الله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكينا » قال : فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النهي هذا . ثمّ قال : «ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله و تلك حدود الله» قال : هذا حدّ الظهار . الحديث .

اقول : الآية بما لها من السياق و خاصّة ما في آخرها من ذكر العفو و المغفرة أقرب انطباقا على ما سبق من القصّة في هذه الرواية ، و لا بأس بها من حيث السند أيضا غير أنّها لا تلائم ظاهر ما في الآية من قوله : «الذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا» .





أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّاتِ وَالْعَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِاللَّاتِ وَالْعَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَاثْرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ
تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

﴿بيان﴾

آيات في النجوى و بعض آداب المجالسة .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات و ما في الأرض » الاستفهام
إنكارى ، و المراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة ، و الجملة مقدمة يعكس بها
ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركاً لهم في نجواهم .

قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو
سادسهم » إلى آخر الآية النجوى مصدر بمعنى التناجي و هو المسارعة ، و ضمائر
الافراد لله سبحانه ، و المراد بقوله : « رابعهم » و « سادسهم » جاعل الثلاثة أربعة و جاعل
الخمس ستة بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه و معيته لهم في الإطلاع على ما
يسارون فيه كما يشهد به ما احتف بالكلام من قوله في أول الآية : « ألم تر أن الله
يعلم ، الخ ، وفي آخرها من قوله : « إن الله بكل شيء عليم » .

و قوله : « و لا أدنى من ذلك و لا أكثر » أي و لا أقل ممّا ذكر من العدد و لا أكثر
ممّا ذكر ، و بهاتين الكلمتين يشمل الكلام عدد أهل النجوى أيّاماً كان أمّا الأدنى من
ذلك فالأدنى من الثلاثة الاثنان والأدنى من الخمسة الأربعة ، و أمّا الأكثر فالأكثر
من خمسة الستة فما فوقها .

و من لطف سياق الآية ترتب ما أُشير إليه من مراتب العدد : الثلاثة و الأربعة
و الخمسة و الستة من غير تكرار فلم يقل : من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا أربعة إلا

هو خامسهم وهكذا .

و قوله : «إلا هو معهم أينما كانوا» المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به والمشاركة لهم فيه .

و بذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين و سادس الخمسة المتناجين معيته لهم في العلم و مشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تميم العدد فإن كلاً منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه إلى مثله عدد الاثنین و إلى مثليه الثلاثة و الله سبحانه منزّه عن الجسميّة بريء من الماديّة .

و ذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله : « ما يكون من نجوى » الخ معنى واحد و هو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقول : «إلا هو رابعهم» «إلا هو سادسهم» في معنى قوله : «إلا هو معهم» و هو المعية العلميّة أي أنه يشاركهم في العلم و يقارنهم فيه أو المعية الوجوديّة بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم .

و في قوله : « أينما كانوا » تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث العلم لا بالاقتران الجسماني لم يتفاوت الحال ولم يختلف باختلاف الأمكنة بالقرب والبعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان وليس في مكان .

و بما تقدّم يظهر أيضاً أن - ما تفيد الآية من معيته تعالى لأصحاب النجوى و كونه رابع الثلاثة منهم و سادس الخمسة منهم لا ينافي ما تقدّم تفصيلاً في ذيل قوله تعالى : «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة» المائدة : ٧٣ من أن وحدته تعالى ليست وحدة عددية بل وحدة أحدية يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانياً له فالمراد بكونه معهم و رابعاً للثلاثة منهم و سادساً للخمسة منهم أنه عالم بما يتناجون به و ظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجوداً محدوداً يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان و ثالث وهكذا .

و قوله : «ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة» أي يخبرهم بحقيقة ما عملوا من عمل و منه نجواهم و مسارتهم .

وقوله : « إن الله بكل شيء عليم »، تعليل لقوله : « ثم ينبئهم » الخ و تأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات وما في الأرض ، وكونه مع أصحاب النجوى .
و الآية تصلح أن تكون توطئة و تمهيداً لمضمون الآيات التالية ولا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التالية من الذم و التهديد .

قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » إلى آخر الآية سياق الآيات يدل على أن قوماً من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محادثة للنبي ﷺ و المؤمنين يتناجون بينهم بالإثم و العدوان و معصية الرسول و ليؤذوا بذلك المؤمنين و يحزنون و كانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهي فنزلت الآيات .

فقوله : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » ذم و توبيخ غياي لهم ، وقد خاطب النبي ﷺ ولم يخاطبهم أنفسهم مبالغة في تحقير أمرهم وإبعاداً لهم عن شرف المخاطبة .

و المعنى ألم تنظر إلى الذين نهوا عن التناجي بينهم بما يغم المؤمنين و يحزنهم ثم يعودون إلى التناجي الذي نهوا عنه عودة بعد عودة ، وفي التعبير بقوله : « يعودون » دلالة على الاستمرار ، و في العدول عن ضمير النجوى إلى الموصول و الصلة حيث قيل : « يعودون لما نهوا عنه » ولم يقل : يعودون إليها دلالة على سبب الذم و التوبيخ و مساءة العود لأنها أمر منهى عنه .

وقوله : « يتناجون بالإثم و العدوان و معصية الرسول » المقلبة بين الأمور الثلاثة : الإثم و العدوان و معصية الرسول تفيد أن المراد بالإثم هو العمل الذي له أثر سيئ لا يتعدى نفس عامله كشرب الخمر والميسر وترك الصلاة مما يتعلق بالمعاصي بحقوق الله ، و العدوان هو العمل الذي فيه تجاوز إلى الغير مما يتضرر به الناس و يتأذون مما يتعلق بالمعاصي بحقوق الناس ، و القسمان أعني الإثم و العدوان جميعاً من معصية الله ، و معصية الرسول مخالفتها في الأمور التي هي جائزة في نفسها لا أمر ولا نهى من الله فيها لكن الرسول أمر بها أو نهى عنها لمصلحة الأمة بماله ولاية أمورهم

و النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كما نهاهم عن النجوى و إن لم يشتمل على من معصية .

كان ما تقدم من قوله : «الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه» ذمّاً وتوبيخاً لهم على نفس نجواهم بما أُنْهوا منهي عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها : وهذا الفصل أعني قوله : «ويتناجون بالآثم و العدوان و معصية الرسول » ذمّ و توبيخ لهم بما يشتمل عليه تناجيهم من المعصية بأنواعها و هؤلاء القوم هم المنافقون و مرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتمّ بها المؤمنون و يحزنوا و يتأذوا .

وقيل : المنافقون واليهود كان يناجي بعضهم بعضا ليحزنوا المؤمنين و يلقوا بينهم الوحشة و الفزع و يوهنوا عزمهم لكن في شمول قوله : «الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه» لليهود خفاء .

و قوله : « وإذا جاؤك حيوك بما لم يحييك به الله » فإن الله حيّاء بالتسليم و شرع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة وهم كانوا يحيونه بغيره . قالوا : هؤلاءهم اليهود كانوا إذا أتوا النبي ﷺ قالوا : السلام عليك - و السام هو الموت - وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليك ، و لا يخلو من شيء فإن الضمير في « جاؤك » و « حيوك » للموصول في قوله : «الذين نهوا عن النجوى» و قد عرفت أن في شموله لليهود خفاء .

و قوله : « ويقولون في أنفسهم لو لا يعدّ بنا الله بما نقول » معطوف على «حيوك» أو حال و ظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمين ذلك في قلوبهم ، وهو تحضيض بداعي الطعن و التهكم فيكون من المنافقين إنكاراً لرسالة النبي ﷺ على طريق الكناية و المعنى أنهم يحيونك بما لم يحييك به الله و هم يجدّون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك - و لولا يعدّ بهم الله به - على أنك لست برسول من الله و لو كنت رسوله لعدّ بهم بقولهم .

و قيل : المراد بقوله : « ويقولون في أنفسهم » يقولون فيما بينهم بتحديث بعض منهم لبعض و لا يخلو من بعد .

وقد ردّ الله عليهم احتجاجهم بقولهم : « لو لا يعدّ بنا الله بما نقول » بقوله : « حسبهم جهنّم يصلونها وبئس المصير » أي إنهم مخطؤون في نفهم العذاب فهم معدّون بما أعدّ لهم من العذاب وهو جهنّم التي يدخلونها ويقاسون حرّها وكفى بها عذاباً لهم .

وكانّ المنافقين ومن يلحق بهم لم ينتهوا بهذه المناهي والتشديدات نزل قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً » الآيات الأحزاب : ٦١ .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » الخ لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآية نزلت في رفع الخطر وقد خوطب فيها المؤمنون فأجيز لهم النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأن يكون تناجياً بالبر والتقوى والبر وهو التوسّع في فعل الخير يقابل العدوان ، والتقوى مقابل الإثم ثم أكّد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإذارهم بالحشر بقوله : « واتقوا الله الذي إليه تحشرون » .

قوله تعالى : « إنّما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئاً إلا باذن الله » الخ المراد بالنجوى - على ما يفيد السياق - هو النجوى الدائرة في تلك الأيام بين المنافقين ومرضى القلوب وهي من الشيطان فإنّه الذي يزينها في قلوبهم ليتوسّل بها إلى حزنهم ويشوش قلوبهم ليوهمهم أنّها في نائبة حلّت بهم وبلية أصابتهم .

ثم طيّب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر إلى الله سبحانه وأن الشيطان أو التناجي لا يضرّهم شيئاً إلا باذن الله فليتوكّلوا عليه ولا يخافوا ضرّه وقد نصّ سبحانه في قوله : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » الطلاق : ٣ أنّه يكفي من توكّل عليه ، واستنهضهم على التوكّل بأنّه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين

فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم . وهذا معنى قوله : «وليس بضارهم شيئاً إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم» الخ التفسح الاتساع وكذا الفسح ، و المجالس جمع مجلس اسم مكان ، والاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره و فسح الله له أن يوسع له في الجنة .

و الآية تتضمن أدباً من آداب المعاشرة ، ويستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ فيجلسون ركعاً لا يدع لغيرهم من الواردين مكاناً يجلس فيه فأدبوا بقوله : «إذا قيل لكم تفسحوا» الخ والحكم عام و إن كان مورد النزول مجلس النبي ﷺ .

و المعنى يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم فتوسعوا وسع الله لكم في الجنة .

و قوله : «وإذا قيل انشزوا فانشزوا» يتضمن أدباً آخر والنشوز - كما قيل - الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه ، والنشوز عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظماً له و تواضعاً لفضله .

و المعنى و إذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم في علم أو تقوى فقوموا .

و قوله : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» لاريب في أن لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى ، وهذا قرينة عقلية على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين : مؤمن و مؤمن عالم ، و المؤمن العالم أفضل و قد قال تعالى : «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» الزمر : ٩ .

و يتبين بذلك أن ما ذكر من رفع الدرجات في الآية مخصوص بالذين أوتوا

العلم و يبقى لسائر المؤمنين من الرفع الرفع درجة واحدة و يكون التقدير يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة و يرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات . وفي الآية من تعظيم أمر العلماء و رفع قدرهم مالا يخفى . و أكد الحكم بتذييل الآية بقوله : « و الله بما تعملون خير » .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » الخ أي إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها .

و قوله : « ذلك خير لكم و أظهر » تعليل للتشريع نظير قوله : « و أن تصوموا خير لكم » البقرة ١٨٤ و لا شك أن المراد بكونها خيراً لهم و أظهر أنها خير لنفوسهم و أظهر لقلوبهم و لعل الوجه في ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثر من مناجاة النبي ﷺ يظهرون بذلك نوعاً من التقرب إليه و الاختصاص به و كان الفقراء منهم يحزنون بذلك و ينكسر قلوبهم فأمرهم أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس و إثارة الرحمة و الشفقة و المودة و صلة القلوب بزوال الغيظ و الحنق .

و في قوله : « ذلك » التفات إلى خطاب النبي ﷺ بين خطابين للمؤمنين و فيه تجليل لطيف له ﷺ حيث إن حكم الصدقة مرتبط بنجاء ﷺ و الالتفات إليه فيما يرجع إليه من الكلام مزيد عناية به .

و قوله : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » أي فإن لم تجدوا شيئاً تتصدقون به فلا يجب عليكم تقديمها و قد رخص الله لكم في نجاء و عفى عنكم إنه غفور رحيم فقول : « فإن الله غفور رحيم » من وضع السبب موضع المسبب .

و فيه دلالة على رفع الوجوب عن المعدمين كما أنه قرينة على إرادة الوجوب في قوله : « فقد موا » الخ و وجوبه على الموسرين .

قوله تعالى : « عأشفتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » الخ الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة ، و فيه عتاب شديد لصحابة النبي ﷺ و المؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته ﷺ خوفاً من بذل المال بالصدقة فلم يناجيه أحد

منهم إلا على عليه السلام فإنه نجاه عشر نجوات كلما نجاه قدّم بين يدي نجواه صدقة ثم نزلت الآية و نسخت الحكم .

و الإشفاق الخشية ، و قوله : « أن تقدّموا » الخ مفعوله و المعنى أخشيتم الصدق و بذل المال للنجوى ، و احتمل أن يكون المفعول محذوفاً و التقدير أخشيتم الفقر لأجل بذل المال .

قال بعضهم : جمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر و تقديم صدقات .

و قوله : « فإذ لم تفعلوا و تاب الله عليكم فأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة » الخ أي فإذ لم تفعلوا ما كلّفتم به و رجع الله إليكم بالعفو و المغفرة فاثبتوا على امتثال سائر التكاليف من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة .

ففي قوله : « و تاب الله عليكم » دلالة على كون ذلك منهم ذنباً و معصية غير أنه تعالى غفر لهم ذلك .

و في كون قوله : « فأقيموا الصلاة » الخ متفرعاً على قوله : « فإذ لم تفعلوا » الخ دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى .

و في قوله : « وأطيعوا الله ورسوله » تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة ، و في قوله : « و الله خير بما تعملون » نوع تشديدي تأكيد به حكم وجوب طاعة الله و رسوله .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع و قرء حمزة و رويس عن يعقوب « ينتجون » و الباقر « يتناجون » و يشهد لقراءة حمزة قول النبي صلى الله عليه و آله في علي عليه السلام - لما قال له بعض أصحابه : أتناجيه دوننا ؟ : ما أنا انتجيتّه بل الله انتجاء .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البزار و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمر أن اليهود كانوا

يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم : «لو لا بعدنا بنا الله بما نقول» فنزلت هذه الآية «وإذا جاؤك حيّوك بما لم يحييك به الله» . وفيه أخرج عبد الرزاق و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك فنزلت .

اقول : وهذه الرواية أقرب إلى التصديق من سابقها لما تقدم في تفسير الآية ، و في رواية القمي في تفسيره أنهم كانوا يحيّونه بقولهم : أنعم صباحاً وأنعم مساءً وهو تحية أهل الجاهلية .

و في المجمع في قوله تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات» و قد ورد أيضاً في الحديث أنه ﷺ قال : فضل العالم على الشهيد درجة ، و فضل الشهيد على العابد درجة ، و فضل النبي ﷺ على العالم درجة ، و فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه ، و فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم . رواه جابر بن عبد الله .

اقول : و ذيل الرواية لا يخلو من شيء فإن ظاهر رجوع الضمير في «أدناهم» إلى الناس اعتبار مراتب في الناس فمنهم الأعلى و منهم المتوسط و إذا كان فضل العالم على سائر الناس و فيهم الأعلى رتبة كفضل النبي ﷺ على أدنى الناس كان العالم أفضل من النبي و هو كما ترى .

اللهم إلا أن يكون الأدنى بمعنى الأقرب و المراد بأدناهم أقربهم من النبي و هو العالم كما يلوح من قوله : «و فضل النبي ﷺ على العالم درجة» فيكون المفاد أن فضل العالم على سائر الناس كفضلي على أقربهم مني و هو العالم .

و في الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور و ابن راهويه و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم و صححه عن علي قال : إن في كتاب الله لا آية ماعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى «يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة» كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي ﷺ قد مت بين يدي نجواي درهما ثم نسخت فلم يعمل

بها أحد فنزلت «أشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات» الآية .
 وفي تفسير القميّ بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول
 الله عزّ وجلّ : «إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة» قال : قدّم على
 بن أبي طالب عليه السلام بين يدي نجواه صدقة ثمّ نسخها بقوله : «أشفقتم أن تقدّموا بين
 يدي نجواكم صدقات» .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر من طرق الفريقين .





أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحَوْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

﴿بيان﴾

تذكر الآيات قوماً من المنافقين يتولون اليهود ويوادّونهم وهم يحادّون الله ورسوله وتذمّمهم على ذلك وتهذّبهم بالعذاب والشقوة تهديداً شديداً ، وتقطع بالأخرة أن الإيمان بالله واليوم الآخر يمنع عن موادة من يحادّ الله ورسوله كائناً من كان ، وتمدح المؤمنين المتبرّئين من أعداء الله وتعدّم إيماناً مستقراً وروحاً من الله وجنة ورضواناً .

قوله تعالى : «ألم تر إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم» الخ القوم المفضوب عليهم هم اليهود قال تعالى : «من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت» المائدة : ٦٠ .

وقوله : «ما هم منكم ولا منهم» ضمير «هم» للمنافقين و ضمير «منهم» لليهود ، والمعنى أن هؤلاء المنافقين لتذبذبهم بين الكفر والإيمان ليسوا منكم ولا من اليهود قال تعالى : «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» النساء : ١٣٣ .

وهذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم وأما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولّوهم قال تعالى : «و من يتولّهم منكم فانه منهم» المائدة : ٥١ فلا منافاة بين قوله : « ما هم منكم ولا منهم» وقوله : «فانّه منهم» .

واحتمل بعضهم أن ضمير «هم» للقوم وهم اليهود و ضمير «منهم» للموصول وهم المنافقون ، والمعنى تولّوا اليهود الذين ليسوا منكم وأنتم مؤمنون ولا من هؤلاء المنافقين أنفسهم بل أجنيئون برآء من الطائفتين ، وفيه نوع من الذم ، وهو بعيد . وقوله : «ويحلفون على الكذب وهم يعلمون» أي يحلفون لكم على الكذب أنهم منكم مؤمنون أمثالكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم .

قوله تعالى : «أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون» الإِعداد التهيئة ، وقوله : «إنهم ساء» الخ تعليل للإِعداد ، وفي قوله : «كانوا يعملون» دلالة على

أنهم كانوا مستمرين في عملهم مداومين عليه .

والمعنى هياً الله لهم عذاباً شديداً لاستمرارهم على عملهم السيئ .

قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جنةً فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين »

الأيمان جمع يمين وهو الحلف ، والجنة السترة التي يتقى بها الشر كالترس ، والمهين اسم فاعل من الإهانة بمعنى الإذلال والإخزاء .

والمعنى اتخذوا أيمانهم سترة يدفعون بها عن نفوسهم النعمة والظنة كلما ظهر

منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام فلهم - لأجل ذلك - عذاب مذل مخز .

قوله تعالى : « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب

النار هم فيها خالدون » أي إن الذي دعاهم إلى ما هم عليه متاع الحياة الدنيا الذي هو الأموال والأولاد لكنهم في حاجة إلى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله

سبحانه فهم في فقر إليه لا يغنيهم عنه أموالهم ولا أولادهم شيئاً فليؤمنوا به و ليعبدوه .

قوله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم و يحسبون

أنهم على شيء » الخ ظرف لما تقدم من قوله : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » أو لقوله :

« أولئك أصحاب النار » ، و قوله : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » أي يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم في الدنيا .

وقد قدّمنا في تفسير قوله تعالى : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما

كنّا مشركين » الأنعام : ٢٣ أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الأمور

يومئذ من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار

الباطل على الحق بالآيمان الكاذبة و كما يعيشون يموتون و كما يموتون يبعثون

و من هذا القبيل سؤا لهم الرد إلى الدنيا يومئذ ، والخروج من النار وخصامهم

في النار وغير ذلك مما يقصّه القرآن الكريم ، وهم يشاهدون مشاهدة عيان أن لا سبيل

إلى شيء من ذلك واليوم يوم جزاء لا يوم عمل .

و أمّا قوله : « و هم يحسبون أنهم على شيء » أي مستقرون على شيء صالح

أن يستقر عليه ويتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق والمنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار والحلف الكاذب .

فيمكن أن يكون قيداً لقوله : « كما يحلفون لكم » فيكون إشارة إلى وصفهم في الدنيا وأنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم ويرضيكهم ، و يكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » قضاء منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى إلى ما يهدون به ولا يعتنى بما يحلفون به .

ويمكن أن يكون قيداً لقوله : « فيحلفون له » فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفاً ، و يكون قوله : « ألا إنهم هم الكاذبون » حكماً منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقاً .

قوله تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » الاستحواذ الاستيلاء والغلبة ، و الباقي ظاهر .
قوله تعالى : « إن الذين يحدّون الله و رسوله أولئك في الأذنين » تعليل لكونهم هم الخاسرين أي إنما كانوا خاسرين لأنهم يحدّون الله و رسوله بالمخالفة والمعاندة والمحدّون لله ورسوله في جملة الأذنين من خلق الله تعالى .

قيل : إنما كانوا في الأذنين لأنّ ذلّة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الآخر وإن كانت العزّة لله جميعاً فلا يبقى لمن حادّه إلا الذلّة محضاً .

قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » الكتابة هي القضاء منه تعالى .

وظاهر إطلاق الغلبة شمولها للغلبة من حيث الحجّة و من حيث التأييد الغيبي و من حيث طبيعة الإيمان بالله و رسوله :

أمّا من حيث الحجّة فإنّ الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإنّا عقله اعترفت له فطرته و خضعت له طويته وإن لم يخضع له عملاً اتباعاً لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك .

وَأَمَّا الْغَلْبَةُ مِنْ حَيْثُ التَّائِيدُ الْغَيْبِيُّ وَالْقَضَاءُ لِلْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَكْفِي فِيهَا أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَكْذِبِي الْأُمَمِ الْمَاضِينَ كَقَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ وَعَلَى آلِ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَشِيرُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » الْمُؤْمِنُونَ : ٤٤ وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَقَدْ أَجْمَلَ ذِكْرَهَا فِي قَوْلِهِ : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » يُونُس : ٤٧ .

وَأَمَّا الْغَلْبَةُ مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِ يَدْعُوهُ إِلَى الدِّفَاعِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَقِّ وَالْمَقَاوِمَةِ تَجَاهِ الْبَاطِلِ مُطْلَقًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ إِنْ قُتِلَ فَازَ وَإِنْ قُتِلَ فَازَ فَنُبَاتُهُ عَلَى الدِّفَاعِ غَيْرَ مَقْبُودٍ بِقَيْدٍ وَلَا مَحْدُودٍ بِحَدٍّ وَهَذَا بِخِلَافِ مَنْ يَدَافِعُ لَا عَنِ الْحَقِّ بَلْ عَنِ شَيْءٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَدَافِعُ لِأَجْلِ نَفْسِهِ فَلَوْ شَهِدَ نَفْسَهُ مُشْرِفَةً عَلَى هَلَكَةٍ أَوْ رَاكِبَةً مَخَاطِرَ تَوَلَّى مِنْهَزِمًا فَهُوَ إِنَّمَا يَدَافِعُ عَلَى شَرْطٍ وَإِلَى حَدٍّ وَهُوَ سَلَامَةُ النَّفْسِ وَعَدَمُ الْإِشْرَافِ عَلَى الْهَلَكَةِ وَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنَّ الْعَزِيمَةَ الْمَطْلُوقَةَ تَغْلِبُ الْعَزِيمَةَ الْمَقْبُودَةَ بِقَيْدٍ الْمَحْدُودَةَ بِحَدٍّ وَمِنْ الشَّاهِدِ عَلَيْهِ غَزَوَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا أَدَّتْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ فِي عَيْنِ أَنَّهَا كَانَتْ سَجَالًا لَكِنْ لَمْ تَنْتَهَ إِلَّا إِلَى تَقَدُّمِ الْمُسْلِمِينَ وَغَلَبَتِهِمْ .

وَلَمْ تَقَفِ الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَلَا تَفَرَّقَتْ جُجُوعُ الْمُسْلِمِينَ أَيَْادِي سَبَا إِلَّا بِفَسَادِ نِيَّاتِهِمْ وَتَبْدِيلِ سِيرَةِ التَّقْوَى وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَبَسْطِ الدِّينِ الْحَقِّ مِنْ بَسْطِ السُّلْطَةِ وَتَوْسِيعَةِ الْمَمْلَكَةِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ^(١) وَقَدْ اشْتَرَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِينَ أَكْمَلَ دِينَهُمْ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ أَنْ يَخْشَوْهُ إِنْ قَالَ : « الْيَوْمَ يَثُورُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تُخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي » .

وَيَكْفِي فِي تَسْجِيلِ هَذِهِ الْغَلْبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيمَا يَخَاطَبُ الْمُؤْمِنِينَ : « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » آلِ عِمْرَانَ : ١٣٩ .

قوله تعالى: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله و رسوله و لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم» الخ نفى وجدان قوم على هذه الصفة كناية عن أن الإيمان الصادق بالله و اليوم الآخر لا يجمع موادة أهل المحادة و المعاندة من الكفار و لو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والبنوة و الأخوة و سائر أقسام القرابة فين الإيمان و موادة أهل المحادة تضاد لا يجتمعان لذلك .

و قد بان أن قوله : « و لو كانوا آباءهم » الخ إشارة إلى أسباب المودة مطلقاً و قد خصت مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته و عدم تغييره . و قوله : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان » الإشارة إلى القوم بما ذكر لهم من الصفة ، و الكتابة الإثبات بحيث لا يتغير و لا يزول و الضمير لله و فيه نص على أنهم مؤمنون حقاً .

و قوله : « و أيدهم بروح منه » التأييد التقوية ، و ضمير الفاعل في «أيدهم» لله تعالى و كذا ضمير «منه» و «من» ابتدائية ، و المعنى و قوَاهم الله بروح من عنده تعالى و قيل : الضمير للإيمان والمعنى وقوَاهم الله بروح من جنس الإيمان يحيي بها قلوبهم . ولا بأس به .

و قيل : المراد بالروح جبرائيل ، و قيل : القرآن و قيل : المراد بها الحجة و البرهان ، وهذه وجوه ضعيفة لا شاهد لها من جهة اللفظ .

ثم الروح - على ما يتبادر من معناها - هي مبدء الحياة التي تترشح منها القدرة و الشعور فإبقاء قوله : « و أيدهم بروح منه » على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشرية التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحاً أخرى تفيض عليهم حياة أخرى و تصاحبها قدرة و شعور جديدين ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الآية ١٢٢ ، و قوله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » النحل : ٩٧ . و ما في الآية من طيب الحياة يلزم طيب أثرها و هو القدرة و الشعور المتفرع

عليهما الأعمال الصالحة ، وهما المعبر عنهما في آية الأنعام المذكورة آنفاً بالنور و نظيرها قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نوراً تمشون به، الحديد : ٢٨ .

وهذه حياة خاصة كريمة لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية وراء الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر التي لها آثار مشتركة فلها مبدء خاص و هو روح الإيمان التي تذكرها الآية وراء الروح المشتركة بين المؤمن والكافر .

و على هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب و هو نور العلم الذي يحصل به الطمأنينة وأن تسميته روحاً مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية أو من الاستعارة لأنه في ملازمته وجوه العلم الفاضل على القلب - والعلم حياة القلب كما أن الجاهل موته - يشبه الروح المفيض للحياة . انتهى .

و قوله : « و يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وعد جميل و وصف لحياتهم الآخرة الطيبة .

و قوله : « رضي الله عنهم و رضوا عنه » استئناف يعكس قوله : « و يدخلهم جنات » الخ ورضا الله سبحانه عنهم رحمته لهم لا خلاصهم الإيمان له و رضاهم عنه ابتهاجهم بما رزقهم من الحياة الطيبة و الجنة .

وقوله : « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » تشریف لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان وهؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون .

و في قوله : « ألا إن حزب الله » وضع الظاهر موضع الضمير ليجري الكلام مجرى المثل السائر .



﴿بحث روائي﴾

في المجمع في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » روي أن المسلمين قالوا ملأنا رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى : ليقمتحن الله علينا الروم و فارس فقال المنافقون : أنظنن أن فارس و الروم كبعض القرى التي غلبتم عليها فأنزل الله هذه الآية .

اقول : الظاهر أنه من قبيل تطبيق الآية على القصة و نظائره كثيرة ، و لذا ورد في قوله تعالى : « لاتجد قومأ يؤمنون بالله و اليوم الآخر » أنه نزل في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ، وفي بعضها أنه نزل في أبي أبي بكر سب النبي ﷺ فصكه أبو بكر صكة سقطت على الأرض فنزلت الآية : و في عبد الرحمان بن ثابت بن قيس بن الشماس استأذن النبي ﷺ أن يزور خاله من المشركين فأذن له فلمأ قدم قرء عليه النبي ﷺ ومن حوله من المسلمين الآية .

وهذه روايات لا يلائمها ما في الآيات من الاتصال الظاهر .

و في الدر المنثور أخرج الطيالسي و ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

و في الكافي بإسناده إلى أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من مؤمن إلا ولقلبه أذن في جوفه : أذن ينث فيها الوسواس الخناس و أذن ينث فيها الملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله : « و أيدهم بروح منه » .

اقول : ليس معناه تفسير الروح بالملك بل الملك يصاحب الروح ويعمل به قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ .

و فيه بإسناده إلى ابن بكير قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : في قول رسول الله - صلى الله عليه وآله : إذا زنا الرجل فارقه روح الإيمان . قال : هو قوله : « و أيدهم بروح منه » ذلك الذي يفارقه .

و فيه بإسناده إلى محمد بن سنان عن أبي خديجة قال : دخلت على أبي الحسن

عليه السلام فقال لي : إن الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي وتغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه وتسيخ في الثرى عند إساءته فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثمينا رحم الله امرءاً هم بخير فعمله أو هم بشر فارتدع عنه . ثم قال : نحن نؤيد الروح بالطاعة لله والعمل له .

أقول : قد تبين مما تقدم في ذيل الآية أن هذه الروح من مراتب الروح الانساني ينالها المؤمن عندما يستكمل الإيمان فليست مفارقة له كما أن الروح النبائية والحيوانية والانسانية المشتركة بين المؤمن والكافر من مراتب روحه غير مفارقة له غير أنها تبتدىء هيئة حسنة في النفس ربما زالت لعروض هيئة سيئة تضادها ثم ترجع إذا زالت الموانع المضادة حتى إذا استقرت ورسخت وتصورت النفس بها تثبت و لم تتغير .

و بذلك يظهر أن المراد بقوله ﷺ : بروح تحضره وقوله : فهي معه ، حضور صورتها حضور الهيئة العارضة القابلة للزوال ، و بقوله : تسيخ في الثرى زوال الهيئة على طريق الاستعارة و كذا قوله ﷺ في الرواية السابقة : فارقه روح الإيمان .



﴿سورة الحشر مدنية وهي أربع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَا تُولُوا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذِبَهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ
لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)
وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلًا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
آتَاكُمُ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ

يَسْتَعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
 هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ
 عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَقَوْلُكَ هُمُ
 الْمُنْفِلُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِ
 لِأَخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا
 رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠).

﴿بيان﴾

نشير السورة إلى قصة إجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين
 المسلمين ، وإلى وعد المنافقين لهم بالنصر والملازمة ثم غدرهم وما يلحق بذلك من
 حكمهم فيهم .

ومن غرر الآيات فيها الآيات السبع في آخرها يأمر الله سبحانه عباده فيها بالاستعداد
 للمقائمه من طريق المراقبة والمحاسبة ، ويذكر عظمة قوله وجلالة قدره بوصف عظمة قائله
 عز من قائل بماله من الأسماء الحسنی والصفات العليا . و السورة مدنيّة بشهادة
 سياق آياتها .

قوله تعالى : « سُبْحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »
 افتتاح مطابق لما في مختتم السورة من قوله : « يَسْبُحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ
 هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وإنما افتتاح بالتنزيه لما وقع في السورة من الإشارة إلى خيانة اليهود و نقضهم
 العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدرًا كمثل الذين كانوا من قبلهم قريبا ذاقوا وبال

أمرهم ، و بالنظر إلى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم ، وكون ذلك على ما يقتضيه الحكمة والمصلحة ذيل الآية بقوله : «وهو العزيز الحكيم» .

قوله تعالى : «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر» تأييد لما ذكر في الآية السابقة من تنزهه تعالى وعزته وحكمته ، والمراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حي من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينة و كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد أن يكونوا له ولا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي ﷺ و ستأتي قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

والحشر إخراج الجماعة بإزعاج، و«أول الحشر» من إضافة الصفة إلى الموصوف ، واللام بمعنى في كقوله : «أقم الصلاة لدلوك الشمس» أسرى : ٧٨ .

و المعنى الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيرة العرب .

ثم أشار تعالى إلى أهمية إخراجهم بقوله : « ما ظننتم أن يخرجوا » لما كنتم تشاهدون فيهم من القوة والشدة والمنعة « و ظننوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » فلن يغلبهم الله وهم متحصنون فيها وعد حصونهم بحسب ظنهم مانعة من الله لامن المسلمين لما أن إخراجهم منها منسوب في الآية السابقة إليه تعالى و كذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآية ، و في الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة .

ثم ذكر فساد ظنهم وخطبهم في مزعمتهم بقوله : «فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» والمراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لامن طريق احتسبوه وهو طريق الحصون والأبواب بل من طريق باطنهم وهو طريق القلوب «و قذف في قلوبهم الرعب» و الرعب الخوف الذي يملأ القلب «يخربون بيوتهم بأيديهم» لثلاث تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم وهذه من قوة سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراد بأيدي أنفسهم «و أيدي المؤمنين» حيث أمرهم بذلك و وفقهم لامثال أمره و إنفاذ إرادته «فاعتبروا» و خذوا بالعظة « يا أولي الابصار » بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاققتهم له ولرسوله .

وقيل : كانوا يخربون البيوت ليهربوا و يخربها المؤمنون ليصلوا .

و قيل : المراد بتخريب البيوت اختلال نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا المواعدة ، و بأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم .

و فيه أن ظاهر قوله : « يخربون بيوتهم » الخ أنه بيان لقوله : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » الخ من حيث أثره فهو متأخر عن نقض المواعدة .

قوله تعالى : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعدبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار » الجلاء ترك الوطن وكتابة الجلاء عليهم قضاءؤه في حقهم ، و المراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل والسبي .

و المعنى و لولا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم و ترك وطنهم لعدبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل و السبي كما فعل بينى قريظة و لهم في الآخرة عذاب النار .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » المشاققة المخالفة بالعناد ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من إخراجهم واستحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء ، وفي تخصيص مشاققتهم بالله في قوله : « ومن يشاق الله » بعد تعميمه لله ورسوله في قوله : « شاقوا الله ورسوله » تلويح إلى أن مشاققة الرسول مشاققة الله والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » ذكر الراغب أن اللينة النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون نوع ، ورووا أن النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فأجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخلة أو تركوها قائمة على أصولها فبإذن الله والله في حكمه هذا غايات حكمه وحكم بالغة منها إخراج الفاسقين وهم بنو النضير .

فقوله : « وليخزي الفاسقين » اللام فيه للتعليل و هو معطوف على محذوف و التقدير : القطع و الترك بإذن الله ليفعل كذا و كذا و ليخزي الفاسقين فهو كقوله :

«و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين» الأنعام: ٧٥.
قوله تعالى : «و ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل و لا ركب و لكن الله يسلبه رسله على من يشاء» الخ الإفاعة الإرجاع من الفياء بمعنى الرجوع ، و ضمير «منهم» لبنى النضير والمراد من أموالهم .
 و إيجاف الدابة تسييرها بازعاج وإسراع و الخيل الفرس ، و الركب الإبل و «من خيل و لا ركب» مفعول «فما أوجفتم» و «من» زائدة للاستغراق .
 و المعنى والذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بنى النضير - خصه به وملكه وحده إياه - فلم تسيروا عليه فرسا و لا إبلا بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم إلى حصونهم مشاة لقربها من المدينة ، و لكن الله يسلبه رسله على من يشاء و الله على كل شيء قدير و قد سلب النبي ﷺ على بنى النضير فله فيهم يفعل فيه ما يشاء .

قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله و للرسول و للذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل » الخ ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفياء المذكور في الآية السابقة مع تعميم الفياء لفياء أهل القرى أعم من بنى النضير و غيرهم .

و قوله : « فلله و للرسول » أي منه ما يختص بالله و المراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله على ما يراه الرسول ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه و لا يصغى إلى قول من قال : إن ذكره تعالى مع أصحاب السهام لمجرد التبرك .

و قوله : « و للذي القربى » الخ المراد بذى القربى قرابة النبي ﷺ ، و لا معنى لحمله على قرابة عامة المؤمنين و هو ظاهر ، و المراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق وإنما أفرد و قدم على «المساكين» مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى .
 وقد ورد عن أئمة أهل البيت  أن المراد بذى القربى أهل البيت و اليتامى و المساكين و ابن السبيل منهم .

و قوله : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » أي إنما حكمنا في الفياء بما

حكمنا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم و الدولة ما يتداول بين الناس و يدور
يدأ بيد .

و قوله : « و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا » أي ما أعطاكم
الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين و نفرأ من الأنصار ، و ما نهاكم عنه
و منعكم فانتهوا و لا تطلبوا ، و فيه إشعار بأنهم سألوا النبي ﷺ أن يقسم الفيء
بينهم جميعا فأرجعه إلى نبيته و جعل موارد مصرفه ما ذكره في الآية و جعل للنبي ﷺ
أن ينفقه فيها على ما يرى .

والآية مع الغض عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي ﷺ من حكم فأمر
به أو نهى عنه .

و قوله : « و اتقوا الله إن الله شديد العقاب » تحذير لهم عن مخالفة النبي ﷺ
تأكيدا لقوله : « و ما آتاكم الرسول » الخ .

قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون
فضلاً من الله و رضواناً » الخ قيل : إن قوله : « للفقراء » بدل من قوله : « ذي القربى و
ما بعده و ذكر « الله » لمجرد التبرك فيكون الفيء مختصاً بالرسول و الفقراء من المهاجرين ،
و قد وردت الرواية أن النبي ﷺ قسم فيء بني النضير بين المهاجرين و لم يعط منه
الأنصار شيئاً إلا رجلين من فقرائهم أو ثلاثة .

و قيل : إنه بدل من اليتامى و المساكين و ابن السبيل فيكون ذوو السهام هم
النبي ﷺ و ذا القربى غنيهم و فقيرهم و الفقراء من المهاجرين يتاماهم و مساكينهم
و أبناء السبيل منهم ، و لعل هذا مراد من قال : إن قوله : « للفقراء المهاجرين » بيان
المساكين في الآية السابقة .

و الأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت ﷺ أن يكون قوله : « للفقراء
المهاجرين » الخ بيان مصداق لصرف سبيل الله الذي أُشير إليه بقوله : « فله » لا بأن
يكون الفقراء المهاجرون أحد السهام في الفيء بل بأن يكون صرفه فيهم و إعطاؤهم
إياه صرفاً له في سبيل الله .

و محصل المعنى على هذا أن الله سبحانه أفاء الفيء وأرجعه إلى النبي ﷺ
 فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دله على موارد صرفه وهي سبيل الله والرسول وذو
 القربى وتمامهم ومساكينهم وابن السبيل منهم ثم أشار إلى مصداق الصرف في السبيل
 أو بعض مصاديقه وهم الفقراء المهاجرون الخ ينفق منه الرسول لهم على ما يرى .
 وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي ﷺ قسم فيء بني النضير بين
 المهاجرين و لم يعط إلا نصار شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم أبادجانة سماك بن خرشة و
 سهل بن حنيف و الحارث بن الصمة فقد صرف فيهم بما أنه صرف في سبيل الله لا بما أنهم
 سهماء في الفيء .

و كيف كان فقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم »
 المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة إلى المدينة قبل الفتح وهم الذين أخرجهم
 كفار مكة بالاضطرار إلى الخروج فتركوا ديارهم وأموالهم و هاجروا إلى مدينة
 الرسول .

وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الفضل الرزق أي يطلبون من الله رزقاً
 في الدنيا ورضواناً في الآخرة .

و قوله : « و ينصرون الله ورسوله » أي ينصرونه ورسوله بأموالهم و أنفسهم ، و
 قوله : « أولئك هم الصادقون » تصديق لصدقهم في أمرهم وهم على هذه الصفات .

قوله تعالى : « و الذين تبوءوا الدار و الإيمان من قبلهم يحبون من هاجر
 إليهم » الخ قيل : إنه استئناف مسوق لمُدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا
 في الفيء ، و « الذين تبوءوا » - و المراد بهم الأنصار - مبتدأ خبره « يحبون » الخ و
 المراد بتبوءي الدار و هو تعميرها بناء مجتمع ديني يأوي إليه المؤمنون على طريق
 الكفاية ، و الإيمان معطوف على « الدار » و تبوءي الإيمان و تعميره رفع نواقصه من
 حيث العمل بحيث استطاع العمل بما يدعو إليه من الطاعات و القربات من غير حجر
 و منع كما كان بمكة .

واحتمل أن يعطف « الإيمان » على تبوءوا و قد حذف الفعل العامل فيه والتقدير

و آثروا الايمان .

و قيل : إن قوله : « و الذين تبوءوا » الخ معطوف على قوله : « المهاجرين » و على هذا يشارك الأ نصار المهاجرين في الفیء ، و الاشكال عليه بأن المروي أن النبي صلى الله عليه وآله قسمه بين المهاجرين ولم يعط الأ نصار منه شيئاً إلا ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الرواية من شواهد العطف دون الاستثناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأ نصار لم يجز لا- للثلاثة و لا للواحد فإعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعاً إلى النبي ﷺ كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيرة .

و الأنسب لما تقدم من كون « للفقراء » الخ بيانا لمصاديق سهم السبيل هو عطف « و الذين تبوءوا » الخ و كذا قوله الآتي : « و الذين جاؤا من بعدهم » على قوله : « المهاجرين » الخ دون الاستثناف .

بل ما ورد من إعطائه ﷺ للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأ نصار ولا للثلاثة منهم ، ولو كان للفقراء من الأ نصار كالمهاجرين فيه سهم - و ظاهر الآية أن جمعاً منهم كانوا فقراء بهم خصاصة و التاريخ يؤيده - لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأ نصار كما أعطى فقراء المهاجرين واستوعبهم .
فقوله : « و الذين تبوءوا الدار و الايمان من قبلهم » ضمير « من قبلهم » للمهاجرين والمراد من قبل مجيئهم و هجرتهم إلى المدينة .

و قوله : « يحبون من هاجر إليهم » أي يحبون من هاجر إليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر إلى دار الايمان و مجتمع المسلمين .

وقوله : « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » ضميراً « يجدون » و « صدورهم » للأ نصار ، و ضمير « أوتوا » للمهاجرين ، والمراد بالحاجة ما يحتاج إليه و « من » تبعيضية و قيل : ببيانية و المعنى لا يخطر ببالهم شيء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفیء بين المهاجرين دونهم و لا يحسدون .

و قيل : المراد بالحاجة ما يؤدي إليه الحاجة وهو الغيظ .

وقوله : « و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة » إثبات الشيء اختياره و تقديمه على غيره ، و الخصاصة الفقر و الحاجة قال الراغب : خصاص البيت فرجه و عبّر عن الفقر الذي لم يسدّ بالخصاصة كما عبّر عنه بالخلة انتهى .

و المعنى و يقدمون المهاجرين على أنفسهم و لو كان بهم فقر و حاجة ، و هذه الخصاصة أغزر و أبلغ في مدحهم من الخصاصة السابقة فالكلام في معنى الإضراب كأنه قيل : إنهم لا يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم في عين الفقر و الحاجة .

و قوله : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » قال الراغب : الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى و « يوق » فعل مضارع مجهول من الوقاية بمعنى الحفظ ، و المعنى و من يحفظ - أي يحفظه الله - من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من وقوع مال في يد غيره فأولئك هم المفلحون .

قوله تعالى : « و الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » استئناف أو عطف نظير ما تقدم في قوله : « و الذين تبوءوا الدار و الآل إيمان يحبون » و على الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله : « يقولون ربنا » الخ . و المراد بمجيئهم بعد المهاجرين و الأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجرة بالفتح وقيل : المراد أنهم خلفوهم .

و قولهم : « ربنا اغفر لنا و لاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » دعاء لا أنفسهم و السابقين من المؤمنين بالمغفرة ، و في تعبيرهم عنهم بإخواننا إشارة إلى أنهم يعدّونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى : « بعضكم من بعض » النساء : ٢٥ فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم و يحبون لهم ما يحبون لأنفسهم .

و لذلك عقبوه بقولهم : « ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » فسألوا أن لا يجعل الله في قلوبهم غلاّ للذين آمنوا والغل العداوة .

و في قوله : « للذين آمنوا » تعميم لعامة المؤمنين منهم و ممن سبقهم و تلوّيح إلى أنه لا بغية لهم إلاّ الإيمان .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم» الآية قال : سبب ذلك أنه كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود بني النضير و قريظة و قينقاع ، و كان بينهم و بين رسول الله ﷺ عهد و مدة فنقضوا عهدهم .

و كان سبب ذلك بني النضير في نقض عهدهم أنه أتاهم رسول الله ﷺ يستسلفهم دية رجلين قتلتهما رجل من أصحابه غيلة يعني يستقرض و كان بينهم كعب بن الأشرف فلمّا دخل على كعب قال : مرحباً يا أبا القاسم و أهلاً و قام كأنه يصنع له الطعام و حدث نفسه أن يقتل رسول الله ﷺ و يتبع أصحابه فنزل جبرئيل فأخبره بذلك .

فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة و قال لمحمد بن مسلمة الأنصاري : اذهب إلى بني النضير فأخبرهم أن الله عزّ و جلّ قد أخبرني بما هممتم به من الغدر فأما أن تخرجوا من بلدنا و إما أن تأذنوا بحرب فقالوا : نخرج من بلادك .

فبعث إليهم عبدالله بن أبي : لا تخرجوا و تقيموا و تناذبوا محمداً الحرب فأني أنصركم أنا و قومي و حلفائي فإن خرجتم خرجت معكم و إن قاتلتم قاتلت معكم فأقاموا و أصلحوا بينهم حصونهم و نهىوا للقتال و بعثوا إلى رسول الله ﷺ أنّا لا نخرج فأصنع ما أنت صانع .

فقام رسول الله ﷺ و كبر و كبر أصحابه و قال لا مير المؤمنين تقدّم على بني النضير فأخذ أمير المؤمنين الراية و تقدّم ، وجاء رسول الله ﷺ و أحاط بحصنهم و غدر بهم عبدالله بن أبي .

و كان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدّم بيوتهم حصنوا ما يليهم و خرجوا ما يليه ، و كان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خرج به ، و قد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخيلهم فجزعوا من ذلك و قالوا : يا محمد إن الله يأمرك بالفساد ؟ إن كان لك هذا فخذ

وإن كان لنا فلا تقطعه .

فلما كان بعد ذلك قالوا يا محمد نخرج من بلادك فأعطينا مالنا فقال : لا ولكن تخرجون و لكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياماً ثم قالوا : نخرج و لنا ما حملت الإبل فقال : لا و لكن تخرجون و لا يحمل أحد منكم شيئاً فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه .

فخرجوا على ذلك و وقع منهم قوم إلى فدك و وادي القرى و خرج قوم منهم إلى الشام .

فأنزل الله فيهم « هو الذي أخرج الذين كفروا - إلى قوله - فإن الله شديد العقاب » و أنزل الله عليه فيما عابوه من قطع النخل « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله - إلى قوله - ربنا إنك رؤوف رحيم » .

و أنزل الله عليه في عبدالله بن أبي و أصحابه « ألم تر إلى الذين نافقوا - إلى قوله - ثم لا ينصرون » .

و في المجمع عن ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وآله حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم و أن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم و أن يسيّرهم إلى أذرعات بالشام و جعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

فخرجوا إلى أذرعات بالشام و أريحا إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق و آل حبي بن أخطب فانتهم لحقوا بخيبر و لحقت طائفة منهم بالحيرة .

و فيه عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير و أمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاث ليال .

و فيه عن محمد بن إسحاق كان إجلاء بني النضير مرجع النبي صلى الله عليه وآله من أحد ، و كان فتح قريظة مرجعه من الأحزاب ، و كان الزهري يذهب إلى أن إجلاء بني النضير كان قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر .

و فيه عن ابن عباس : نزل قوله تعالى : «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» الآية في أموال كفتار أهل القرى وهم قريظة و بنو النضير و هما بالمدينة ، و فدك و هي من المدينة على ثلاثة أميال ، و خيبر و قرى عرينة و ينبع جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد و أخبر أنها كلها له فقال أناس : فهذا قسمها فنزلت الآية .

و فيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم بني النضير للأَنْصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم و دياركم و تشاركونهم في هذه الغنيمة ، و إن شئتم كانت لكم دياركم و أموالكم و لم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقال الأَنْصار : بل نقسم لهم من ديارنا و أموالنا و نؤثرهم بالغنيمة و لا نشاركهم فيها فنزلت : «و يؤثرون على أنفسهم» الآية .

أقول : و روي في إثباتهم و نزول الآية فيه قصص أخرى ، و الظاهر أن ذلك من قبيل تطبيق الآية على القصة ، و قد روى المعاني السابقة في الدر المنثور بطرق كثيرة مختلفة .

و في التوحيد عن علي عليه السلام و قد سئل عما اشتبه على السائل من الآيات قال في قوله تعالى : «فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا» يعني أرسل عليهم عذابا . و في التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه» الآية قال : الفبيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل و الأَنْفال مثل ذلك و هو بمنزلته .

و في المجمع روى المنهال بن عمر عن علي بن الحسين عليه السلام قلت : قوله : «و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل» قال : هم قربانا و مساكيننا و أبناء سبيلنا .

أقول : و روى هذا المعنى في التهذيب عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام ، و قال في المجمع بعد نقل الرواية السابقة : و قال جميع الفقهاء : هم يتامى الناس عامة و كذلك المساكين و أبناء السبيل و قد روي ذلك أيضا عنهم عليه السلام .

و في الكافي بإسناده عن زرارة أنه سمع أبا جعفر و أبا عبد الله عليه السلام يقولان :

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَوَّضَ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَمْرَ خَلْقِهِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ طَاعَتُهُمْ ثُمَّ^(١) تَلَاهُذِهِ
الْآيَةَ «مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» .

أَقُولُ : و الروايات عنهم عليهم السلام في هذا المعنى كثيرة و المراد بتفويضه أمر خلقه
كما يظهر من الروايات إمضاؤه تعالى ما شرَّعه النبي ﷺ لهم و اقتراض طاعته في
ذلك ، و ولايته أمر الناس و أمَّا التفويض بمعنى سلبه تعالى ذلك عن نفسه و تقليده ﷺ
لذلك فمستحيل .

و فيه باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث : الإيمان بعضه من بعض و هو دار
و كذلك الإسلام دار و الكفر دار .

و في المحاسن باسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : يا زياد
ويحك و هل الدين إلَّا الحب . ألا ترى إلى قول الله : «إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» أَوْ لَا تَرَوْنَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ : «حُبِّبْ إِلَيْكُمْ
الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِكُمْ» وَقَالَ : «يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» وَقَالَ : الدِّينُ هُوَ الْحُبُّ
و الحب هو الدين .

و في المجمع و في الحديث : لا يجتمع الشح و الإيمان في قلب رجل مسلم ، ولا
يجتمع غبار في سبيل الله و دخان جهنم في جوف رجل مسلم .

و في الفقيه روى الفضل بن أبي قرّة السمندي قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام :
أتدري من الشحيح ؟ قلت : هو البخيل . قال : الشح أشد من البخل إن البخيل يبخل
بما في يده ، و الشحيح يشح بما في أيدي الناس و على ما في يده حتَّى لا يرى في أيدي
الناس شيئاً إلَّا تمنَّى أن يكون له بالحل و الحرام ، و لا يقنع بما رزقه الله عزَّ وجلَّ .



أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَ إِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢) لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ
مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا
وَ بَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ
اسْكُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)
فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)

﴿ بَيَان ﴾

إشارة إلى حال المنافقين و وعدهم لبني النضير بالنصر إن قوتلوا و الخروج معهم
إن أخرجوا و تكذيبهم فيما وعدوا .
قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِأَخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

الكتاب ، المخ الإخوان كالأخوة جمع أخ والأخوة الاشتراك في الانتساب إلى أب و يتوسّع فيه فيستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقة و نحو ذلك ، و يكثر استعمال الإخوة في المشتركين في النسبة إلى أب و استعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد و نحوه على ما قيل .

والاستفهام في الآية للتعجب ، والمراد بالذين نافقوا عبدالله بن أبي وأصحابه ، والمراد بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنوا النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات أنهم كانوا قوماً من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج والقتال بعد قوم آخر كذلك و ليس إلا بني النضير بعد بني قينقاع .

وقوله : «لئن أخرجتم لنخرجن» معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم» مقول قول المنافقين ، واللام في «لئن أخرجتم» للقسم أي نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجن من ديارنا معكم ملازمين لكم ولا نطيع فيكم أي في شأنكم أحداً يشير علينا بمفارقتكم أبداً ، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم . وقوله : « و الله يشهد إنهم لكاذبون » تكذيب لوعده المنافقين ، و تصريح بأنهم لا يفون بوعدهم .

قوله تعالى : «لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم» تكذيب تفصيلي لوعدهم بعد تكذيبه الإجمالي بقوله : « و الله يشهد إنهم لكاذبون » وقد كرر فيه لام القسم والمعنى أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون ، و أقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم .

قوله تعالى : « و لئن نصرهم ليولن الأديار ثم لا ينصرون » إشارة إلى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم - و لن يقع أبداً - لا يدوم ولا ينفعهم بل يولون الأديار فراراً ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد .

قوله تعالى : «لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله» المخ ضمائر الجمع للمنافقين ، والرهبة الخشية ، و الآية في مقام التعليل لقوله : « و لئن نصرهم ليولن الأديار » أي ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتم ولا يثبتون لكم .

و علّل ذلك بقوله : « ذلك بأنّهم قوم لا يفقهون » و الإشارة بذلك إلى كون رهبتهم للمؤمنين أشدّ من رهبتهم لله أي رهبتهم لكم كذلك لأنّهم قوم لا يفقهون حقّ الفهم و لو فقهوا حقيقة الأمر بأن لهم أن الأمر إلى الله تعالى و ليس لغيره من الأمر شيء سواء في ذلك المسلمون و غيرهم ، و لا يقوى غيره تعالى على عمل خير أو شرّ أو نافع أو ضارّ إلّا بحول منه تعالى و قوّة فلا ينبغي أن يهرب إلّا هو عزّ و جلّ .

قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعاً إلّا في قرى محصنة أو من وراء جدر » بيان لأنّ رهبتهم و جنبهم جميعاً و المعنى لا يقاتلكم بنو النضير و المنافقون جميعاً بأن يبرزوا بل في قرى حصينة محكمة أو من وراء جدر من غير بروز .

و قوله : « بأسهم بينهم شديد » أي هم فيما بينهم شديداً بالبش غير أنّهم إذا برزوا لحربكم و شاهدوكم يجنبون بما ألقى الله في قلوبهم من الرعب .

و قوله : « تحسبهم جميعاً و قلوبهم شتى » أي تظنّ أنّهم مجتمعون في ألفة و اتّحاد و الحال أنّ قلوبهم متفرقة غير متّحدة و ذلك أقوى عامل في الخزي و الخذلان . ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون و لو عقلوا لا اتّحدوا و وحدوا الكلمة .

قوله تعالى : « كمثّل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم و لهم عذاب أليم » الوبال العاقبة السيئة و قوله : « قريباً » قائم مقام الظرف منصوب على الظرفيّة أي في زمان قريب .

و قوله : « كمثّل » الخ خبر مبتدئ محذوف و التقدير « مثلهم كمثّل » الخ و المعنى مثلهم أي مثل بني النضير من اليهود في نقضهم العهد و وعد المنافقين لهم بالنصر كذبا ثمّ الجلاء مثل الذين من قبلهم في زمان قريب و هم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينة نقضوا العهد بعد غزوة بدر فأجلاهم رسول الله ﷺ إلى أذرعات و قد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبي ﷺ فيهم و يمنعوه من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع و بال أمرهم و لهم في الآخرة عذاب أليم و قيل : المراد بالذين من قبلهم كفّار مكّة يوم بدر و ما تقدّم أنسب للسياق .

و المثل على أيّ حال مثل لبني النضير لالمنافقين على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للإِنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك » الخ ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين في غرورهم بني النضير بوعده النصر ثم خذلانهم عند الحاجة .

و ظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان والإِنسان الجنس والإشارة إلى غرور الشيطان للإِنسان بدعوته إلى الكفر بتزيين أمتعة الحياة له وتسويل الإغراض عن الحق بمواعيده الكاذبة والأمانى السرابية حتى إذا طلعت له طلائع الآخرة وعاین أن ما اغتر به من أمانى الحياة الدنيا لم يكن إلا سراباً يغره وخيالا يلعب به تبرء منه الشيطان و لم يف بما وعده وقال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . و بالجملة مثل المنافقين في دعوتهم بني النضير إلى مخالفة النبي ﷺ و وعدهم النصر ثم الغدر بهم وخلف الوعد كمثل هذا الشيطان في دعوة الإِنسان إلى الكفر بمواعيده الكاذبة ثم تبرء به منه بعد الكفر عند الحاجة .

وقيل : المراد بالتمثيل الإشارة إلى قصة برصيصا العابد الذي زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأة ثم كفر و سيأتي القصة في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقيل : المثل السابق المذكور في قوله : « كمثل الذين من قبلهم قريبا » مثل كفار مكة يوم بدر - كما تقدم - و المراد بالإِنسان في هذا المثل أبو جهل و بقول الشيطان له اكفر ما قصه الله تعالى بقوله في القصة : « و إن زين لهم الشيطان أعمالهم و قال لا غالب لكم اليوم من الناس و إني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه و قال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله و الله شديد العقاب » الأ نفال : ٤٨ .

و على هذا الوجه فقول الشيطان : « إني أخاف الله رب العالمين » قول جدي لأنه كان يخاف تعذيب الملائكة النازلين لنصرة المؤمنين ببدر وأما على الوجهين الأولين فهو نوع من الاستهزاء والإخزاء .

قوله تعالى : « فكان عاقبتهما أنهم في النار خالدين فيها و ذلك جزاء الظالمين » المظاهر أن ضمائر التثنية للشيطان والإِنسان المذكورين في المثل ففي الآية بيان عاقبة

الشیطان في غروره الإنسان وإضلاله و الإنسان في اغتراره به و ضلاله ، و إشارة إلى أن ذلك عاقبة المنافقين في وعدهم لبني النضير و غدرهم بهم و عاقبة بني النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب و إصرارهم على المشاققة و المخالفة ، و معنى الآية ظاهر .

﴿بحث روائی﴾

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن رجلاً من بني عوف بن الحارث منهم عبدالله بن أبي بن سلول و ودیعة بن مالك و سويد و داعس بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا و تمنعوا فإننا لا نسلمكم وإن قوتلتهم قاتلنا معكم ، و إن خرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا و قذف الله العرب في قلوبهم .

فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم و يكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر و منهم من سار إلى الشام .

أقول : و الرواية تخالف ما في عدة من الروايات أن النبي ﷺ هو الذي عرض لهم أن يخرجوا بما تحمله الإبل من الأموال فلم يقبلوا ثم رضوا بذلك بعد أيام فلم يقبل النبي ﷺ إلا أن يخرجوا بأنفسهم و أهلهم من غير أن يحملوا شيئاً فخرجوا كذلك و جعل النبي ﷺ لكل ثلاثة منهم بعيراً و سقاء .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس « ألم تر إلى الذين نافقوا » قال : عبدالله بن أبي بن سلول و رفاعه بن تابوت و عبدالله بن ثبيل و أوس بن قيطي . و إخوانهم بنو النضير .

أقول : المراد به عد بعضهم فلا يتأني ما في الرواية السابقة .

و فيه أخرج ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن رفاعه الدارمي يبلغ به النبي ﷺ قال : كان راهب في بني

إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فحنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فكانت عنده .

فأتاه الشيطان فوسوس له و زين له فلم يزل به حتى وقع عليها فلمّا حملت وسوس له الشيطان فقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل : ماتت فقتلها و دفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم و ألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها فأتاه فسألوه فقال : ماتت فأخذوه .

فأتاه الشيطان فقال : أنا الذي ألقى في قلوب أهلها ، و أنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنج واسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله : « كمثل الشيطان إن قال للإنسان اكفر ، الآية .

أقول : والقصة مشهورة رويت مختصرة و مفصلة في روايات كثيرة .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدِمَتْ لِغَدٍ وَ
 اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا
 اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ
 النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا
 هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ
 الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
 الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ
 وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) .

﴿بيان﴾

الذي تضمنته الآيات الكريمة كالنتيجة المأخوذة مما تقدم من آيات السورة
 فقد أشر فيها إلى مشاققة بني النضير من اليهود و نقضهم العهد و ذاك الذي أوقعهم في
 خسران دنياهم و أخرهم ، و تحريض المنافقين اِهم على مشاققة الله و رسوله و هو الذي

أهلكهم ، و حقيقة السبب في ذلك أنهم لم يراقبوا الله في أعمالهم ونسوه فأنساهم أنفسهم فلم يختاروا ما فيه خير أنفسهم وصلاح عاجلهم وآجلهم فقاهاوا و هلكوا .
فعلى من آمن بالله ورسوله و اليوم الآخر أن يذكر ربه و لا ينسأ و ينظر فيما يقدمه من العمل ليوم الرجوع إلى ربه فإن ما عمله محفوظ عليه يحاسبه به الله يومئذ فيجازيه عليه جزاء لازماً لا يفارقه .

و هذا هو الذى يرومه قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و لتنظر نفس ما قدمت لعد » الآيات فتندب المؤمنين إلى أن يذكروا الله سبحانه و لا ينسوه و ينظروا في أعمالهم التى على صلاحها و طلاحها يدور رحى حياتهم الآخرة فيراقبوا أعمالهم أن تكون صالحة خاصة لوجهه الكريم مراقبة مستمرة ثم يحاسبوا أنفسهم فيشكروا الله على ما عملوا من حسنة و يوبخوها و يزجروها على ما اقترفت من سيئة و يستغفروا .

و ذكر الله تعالى بما يليق بساحة عظمته و كبريائه من أسمائه الحسنى و صفاته العليا التى بينها القرآن الكريم في تعليمه هو السبيل الوحيد الذى ينتهى بسالكه إلى كمال العبودية و لا كمال للإنسان فوقه .

و ذلك أن الإنسان عبد محض و مملوك طلق لله سبحانه فهو مملوك من كل جهة مفروضة لاستقلال له من جهة كما أنه تعالى مالكه من كل جهة مفروضة له الاستقلال من كل جهة ، و كمال الشيء محوضته في نفسه و آثاره فكمال الإنسان في أن يرى نفسه مملوكاً لله من غير استقلال و أن يتصف من الصفات بصفات العبودية كالخضوع و الخشوع و الذلة و الاستكانة و الفقر بالنسبة إلى ساحة العظمة و العزة و الغنى و أن تجري أعماله و أفعاله على ما يريده الله لا ما يهواه نفسه من غير غفلة في شيء من هذه المراحل : الذات و الصفات و الأفعال .

و لا يتم له النظر إلى ذاته و أفعاله بنظرة التبعية المحضة و المملوكية المطلقة إلا مع التوجه الباطني إلى ربه الذى هو على كل شيء شهيد و بكل شيء محيط و هو القائم على كل نفس بما كسبت من غير أن يغفل عنه أو ينسأ .

و عندئذ يطمئن قلبه كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » الرعد :

٢٨ ويعرف الله سبحانه بصفات كماله التي تتضمنها أسماؤه الحسنى ، ويظهر منه قبال ذلك صفات عبوديته و جهات نقصه من خضوع و خشوع و ذلّة و فقر و حاجة .

و يتعقّب ذلك أعماله الصالحة بدوام الحضور و استمرار الذكر قال تعالى : « و اذكر ربّك في نفسك تضرّعاً و خيفة و دون الجهر من القول بالغدو و الآصال ولا تكن من الغافلين إنّ الذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته و يسبحونه و له يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ و قال : « فإن استكبروا فالذين عند ربّك يسبحون له بالليل والنهار و هم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

و إلى ما ذكرنا من معرفته تعالى بصفات كماله و معرفة النفس بما يقابلها من صفات النقص و الحاجة يشير بمقتضى السياق قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن » إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله و لتنظر نفس ما قدمت لغد » إلى آخر الآية أمر للمؤمنين بتقوى الله و بأمر آخر و هو النظر في الأعمال التي قدمت ليوم الحساب أي صالحة فليرج بها ثواب الله أو طالحة فليخش عقاب الله عليها و يتدارك بالتوبة و الإجابة و هو محاسبة النفس .

أمّا التقوى وقد فسّر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات والمحرمات جميعاً كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات و فعل المحرمات .

و أمّا النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته إلى التقوى كنسبة النظر إلى إصلاحه ثانياً من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله و رفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل و الصنع .

فعلى المؤمنين جميعاً أن يتقوا الله فيما وجه إليهم من التكليف فيطيعوه ولا يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا إلى الله و يستغفروه .

و هذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجة الجميع إلى إصلاح العمل وعدم كفاية نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهاية القلّة بحيث

يكاد يلحق بالعدم وإلى ذلك يلوح لفظ الآية «و لتنظر نفس» .

فقوله : «و لتنظر نفس ما قدمت لغد» خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غاية القلة بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا واستغراق أوقاتهم في تدبير المعيشة وإصلاح أمور الحياة ألقى الخطاب في صورة الغيبة و غلقه بنفس ما منكرة فقال : «و لتنظر نفس» وفي هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاما بحسب الطبع عتاب و تقييد للمؤمنين مع التلويح إلى قلة من يصلح لامتهاله منهم .

وقوله : «ما قدمت لغد» استفهام من ماهية العمل الذي قدمت لغد وبيان للنظر، ويمكن أن تكون «ما» موصولة وهي وصلتها متعلقا بالنظر .

و المراد بغد يوم القيامة و هو يوم حساب الأعمال و إنما عبّر عنه بغد للإشارة إلى قربته منهم كقرب الغد من أمس قال تعالى : «إنهم يرونه بعيدا و نراه قريباً» المعارج : ٦ .

و المعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به و ينهاكم عنه ، و لتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل و لترما الذي قدّمته من عملها ليوم الحساب أهو عمل صالح أو طالح وهل عمله الصالح صالح مقبول أو مردود .

و قوله : « و اتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » أمر بالتقوى ثانيا و « إن الله خبير » الخ تعليل له و تعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيرا بالأعمال يعطي أن المراد بهذه التقوى المأمور بها ثانيا هي التقوى في مقام المحاسبة و النظر فيها من حيث إصلاحها وإخلاصها لله سبحانه و حفظها عما يفسدها ، و أمّا قوله في صدر الآية : « اتقوا الله » فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها بالطاعات و تجنب المعاصي .

و من هنا تبين أن المراد بالتقوى في الموضوعين مختلف فالأولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال ، و الثانية هي التقوى في الأعمال المأثية من حيث إصلاحها و إخلاصها .

و ظهر أيضا أن قول بعضهم : « إن الأولى للتوبة عما مضى من الذنوب والثانية

لانتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد و مثله ما قيل : إن الأولى في أداء الواجبات و الثانية في ترك المحرمات ، و مثله ما قيل : إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فيحسب .

قوله تعالى : «و لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم» الخ النسيان زوال صورة المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها و يتوسّع فيه فيطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى : «و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا و ما واكم النار و مالكم من ناصرين» الجاثية : ٣٤ .

و الآية بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآية السابقة كأنه قيل : قدّما ليوم الحساب و الجزاء عملاً صالحاً تحيى به أنفسكم و لا تنسوه . ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إن بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنی و صفاته العليا التي ترتبط بها صفات الإنسان الذاتية من الذلّة و الفقر و الحاجة فيتموّه الإنسان نفسه مستقلة في الوجود و يخيّل إليه أن له لنفسه حياة و قدرة و علماً و سائر ما يترأى له من الكمال ، و نظراؤه في الاستقلال سائر الأسباب الكونية الظاهرية تؤثر فيه و تتأثر عنه .

و عند ذلك يعتمد على نفسه و كان عليه أن يعتمد على ربه و يرجو و يخاف الأسباب الظاهرية و كان عليه أن يرجو و يخاف ربه ، يطمئن إلى غير ربه و كان عليه أن يطمئن إلى ربه .

و بالجملة ينسى ربه و الرجوع إليه و يعرض عنه بالإقبال إلى غيره ، و يتفرّع عليه أن ينسى نفسه فإن الذي يخيّل إليه من نفسه أنه موجود مستقلّ الوجود يملك ما ظهر فيه من كمالات الوجود و إليه تدبير أمره مستمدّ مما حوله من الأسباب الكونية و ليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلّق الوجود جهل كلّ عجز كلّ ذلّة كلّ فقر كلّ و هكذا ، و ماله من الكمال كالوجود و العلم و القدرة و العزّة و الغنى و هكذا فلربه و إلى ربه انتهائه و نظراؤه في ذلك سائر الأسباب الكونية .

و الحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهي عن نسيان

النفس في الآية إلى النهي عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ وأكّد ، ولم يقنع بمجرد النهي الكلي عن نسيانه بأن يقال : ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ في التأثير وأقرب إلى القبول فمنهاهم أن يكونوا كالذين نسوا الله مشيراً به إلى من تقدم ذكرهم من يهود بني النضير و بني قينقاع و من حاله حالهم في مشاقّة الله ورسوله .

فقال : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله » ثم فرّع عليه قوله : « فأنساهم أنفسهم » تفریع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله : « أولئك هم الفاسقون » فدل على أنهم فاسقون حقاً خارجون عن زي العبوديّة .

والآية وإن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرّع عليه نسيان النفس لكنّها بورودها في سياق الآية السابقة تأمر بذكر الله ومراقبته .

فقد بان من جميع ما تقدم في الآيتين أن الآية الأولى تأمر بمحاسبة النفس و الثانية تأمر بالذكر و المراقبة .

قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » قال الراغب : الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة انتهى ، و السياق يشهد بأن المراد بأصحاب النارهم الناسون لله و بأصحاب الجنة هم الذاكرون لله المراقبون .

و الآية حجة تامة على وجوب اللّحوق بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين تقريرها أن هناك قبيلين لاثالث لهما و هما الذاكرون لله و الناسون له لا بدّ للإنسان أن يلحق بأحدهما و ليسا بمساويين حتّى يتساوى اللّحوقان ولا يبالى الإنسان بأيهما لحق ؟ بل هناك راجح و مرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح و الرجحان لقبيل الذاكرين لأنّهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبهم فمن الواجب لكلّ نفس أن يختار اللّحوق بقبيل الذاكرين .

قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » الخ في المجمع : التصدّع التفرّق بعد التلاؤم و مثله التفتّح انتهى .

والكلام مسوق سوق المثل مبني على التخمين والدليل عليه قوله في ذيل الآية :

«و تلك الأمثال نضربها للناس» الخ .

والمراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف و أصول الشرائع و العبر و المواعظ و الوعد و الوعيد و هو كلام الله العظيم ، و المعنى لو كان الجبل ممّا يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيتّه - مع ما فيه من الغلظة و القسوة و كبر الجسم و قوّة المقاومة قبال النوازل - متأثراً متفرقاً من خشية الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحقّ بأن يخشع لله إذا تلاه أو تلي عليه ، وما أعجب حال أهل المشاقّة و العناد لاتلين قلوبهم له ولا يخشعون ولا يخشون .

والالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : «من خشية الله» للدلالة على علّة الحكم فإنّما يخشع و يتصدّع الجبل بنزول القرآن لأنّه كلام الله عزّ اسمه . و قوله : «و تلك الأمثال نضربها للناس لعلمهم يتفكرون» من وضع الحكم الكليّ موضع الجزئيّ للدلالة على أنّ الحكم ليس بيدع في مورد بل جارٍ في موارد أخرى كثيرة .

فقوله : «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل» الخ مثل ضربه الله للناس في أمر القرآن لتقريب عظمتّه و جلالته قدره بما أنّه كلام الله تعالى و بما يشتمل عليه من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقّوا القرآن بما يليق به من التلقّي و يتحقّقوا بما فيه من الحقّ الصريح و يهتدوا إلى ما يهتدي إليه من طريق العبوديّة التي لا طريق إلى كمالهم وسعادتهم وراءها ، و من ذلك ما ذكر في الآيات السابقة من المراقبة و المحاسبة .

قوله تعالى : «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة هو الرحمن الرحيم» هذه الآية و الآيتان بعدها و إن كانت مسوقة لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنی و الإشارة إلى تسميته تعالى بكلّ اسم أحسن و تنزّهه بشهادة ما في السماوات و الأرض لكنّها بانضمامها إلى ما مرّ من الأمر بالذكر تفيد أنّ على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنی فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص فافهم ذلك .

و بانضمامها إلى الآية السابقة و ما فيها من قوله : «من خشية الله» تفيد تعليل خشوع الجبل و تصدّعّه من خشية الله كأنّه قيل : و كيف لا وهو الله الذي لا إله إلا هو

عالم الغيب و الشهادة إلى آخر الآيات .

و قوله : « هو الله الذي لا إله إلا هو » يفيد الموصول و الصلة معنى اسم من أسمائه وهو وحدانيته تعالى في ألوهيته ومعبوديته ، و قد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل في تفسير قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو » البقرة : ١٦٣ .

و قوله : « عالم الغيب و الشهادة » الشهادة هي المشهود الحاضر عند المدرك و الغيب خلافها و هما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شيء شهادة بالنسبة إلى شيء و غيباً بالنسبة إلى آخر و يدور الأمر مدار نوع من الإحاطة بالشيء حساً أو خيالاً أو عقلاً أو وجوداً و هو الشهادة و عدمها و هو الغيب ، و كل ما فرض من غيب أو شهادة فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب و الشهادة وغيره لا علم له بالغيب لمحدودية وجوده و عدم إحاطته إلا ما علمه تعالى كما قال : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ و أمّا هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل إلى الإحاطة به لشيء أصلاً كما قال : « و لا يحيطون به علماً » . و قوله : « هو الرحمن الرحيم » قد تقدم الكلام في معنى الاسمين في تفسير سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الخ الملك هو المالك لتدبير أمر الناس والحكم فيهم ، والقدوس مبالغة في القدس و هو النزاهة و الطهارة ، و السلام من يلاقيك بالسلامة و العافية من غير شر و ضر ، و المؤمن الذي يعطي الأمن ، و المهيمن الفائق المسيطر على الشيء . و العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس ، و الجبار مبالغة من جبر الكسر أو الذي تنفذ إرادته و يجبر على ما يشاء ، و المتكبر الذي تلبس بالكبرياء و ظهر بها .

و قوله : « سبحان الله عما يشركون » ثناء عليه تعالى كما في قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » البقرة : ١١٦ .

قوله تعالى : « هو الله الخالق البارئ المصور » إلى آخر الآية . الخالق هو

الموجد للأشياء عن تقدير ، والبارى بالمنشيء للأشياء ممتازاً بعضها من بعض ، والمصور المعطي لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض ، و الأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفة و بينها ترتب فالنصوير فرع البرء و البرء فرع الخلق و هو ظاهر .

و إنما صدر الآيتين السابقتين بقوله : «الذي لا إله إلا هو» فوصف به «الله» و عقبه بالأسماء بخلاف هذه الآية إذ قال : «هو الله الخالق» الخ .

لأن الأسماء الكريمة المذكورة في الآيتين السابقتين و هي أحد عشر اسماً من لوازم الربوبية و مالكية التدبير التي تنفرع عليها الألوهية و المعبودية بالحق و هي على نحو الأصاله و الاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له في ذلك فانتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الألوهية و استحقاق المعبودية به تعالى .

فالأسماء الكريمة بمنزلة التعليل لاختصاص الألوهية به تعالى كأنه قيل لا إله إلا هو لأنه عالم الغيب و الشهادة هو الرحمان الرحيم ، ولذا أيضاً ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه : « سبحانه الله عما يشركون » ردّاً على القول بالشركاء كما يقوله المشركون .

و أمّا قوله : « هو الله الخالق البارىء المصور » فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق و الإيجاد و اختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الألوهية به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق و الإيجاد به تعالى و هم مع ذلك يدعون من دونه أرباباً و آلهة و يشبّون له شركاء .

و أمّا وقوع اسم الجلالة في صدر الآيات الثلاث جميعاً فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به و يجري عليه جميع الأسماء و في التكرار مزيد تأكيد و تثبيت للمطلوب .

وقوله : « له الأسماء الحسنى » إشارة إلى بقية الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعاً محلى بالآم وهو يفيد العموم .

وقوله : « يسبح له ما في السماوات والأرض » أي جميع ما في العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات والأرض وقد تقدّم توضيح معنى الجملة مراراً .

ثم ختم الآيات بقوله : «وهو العزيز الحكيم» أي الغالب غير المغلوب الذي فعله متقن لامجازفة فيه فلا يعجزه فيما شرعه ودعا إليه معصية العاصين ولا مشاققة المعاندين ولا يضيع عنده طاعة المطيعين وأجر المحسنين .

و العناية إلى ختم الكلام بالاسمين والاشارة بذلك إلى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذي دعا إلى تكرار اسمه العزيز و ذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء .

وقد وصف القرآن أيضا بالعزة والحكمة كما قال : «وإنه لكتاب عزيز» حم السجدة : ٤١ ، وقال : «والقرآن الحكيم» يس : ٢ .

﴿بحث روائي﴾

في المجمع في قوله تعالى : «عالم الغيب والشهادة» عن أبي جعفر عليه السلام قال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

اقول : وهو تفسير ببعض المصاديق ، وقد أوردنا أحاديث عنهم عليهم السلام في معنى اسم الجلالة والاسمين الرحمان الرحيم في ذيل تفسير البسملة من سورة الفاتحة .
و في التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : لم يزل حياً بلا حياة و ملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً و ملكاً جباراً بعد إنشائه للكون .

اقول : قوله : لم يزل حياً بلا حياة أي بلا حياة زائدة على الذات ، وقوله : لم يزل ملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً إرجاع للملك و هو من صفات الفعل إلى القدرة وهي من صفات الذات ليستقيم تحققه قبل الإيجاد .

و في الكافي بإسناده عن هشام الجواليقي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله : «سبحان الله» ما يعني به ؟ قال : تنزيهه .

و في نهج البلاغة : و الخالق لا بمعنى حركة و نصب .

اقول : و قد أوردنا عدة من الروايات في الأسماء الحسنى و إحصائها في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب .

و في النبوي المشهور : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و زنوا قبل أن توزنوا و تجهّزوا للعرض الأكبر .

و في الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي عليه السلام قال : ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم فإن عمل حسناً ازداد الله شكراً و إن عمل سيئاً استغفر الله و تاب إليه .
أقول : و فيما يقرب من هذا المعنى روايات أخر ، و قد أوردنا روايات عنهم عليهم السلام في معنى ذكر الله في ذيل تفسير قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم » الآية البقرة : ١٥٢ ، و قوله : « يا أيّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » الأحزاب : ٤١ فليراجعها من شاء .



﴿سورة الممتحنة مدنية و هي ثلاث عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي
وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ
الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَ
أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَالسِّنَنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَ
لَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)
قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ الْإِقْوَلُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا
عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ

يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ
 بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مودةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧)
 لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
 دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا
 يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
 وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ (٩) .

﴿بيان﴾

تذكر السورة موالة المؤمنين لأعداء الله من الكفار و موادتهم و تشدد النهي
 عن ذلك تفتتح به و تختتم و فيها شيء من أحكام النساء المهاجرات و بيعة المؤمنين و
 كونها مدينة ظاهر .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ
 إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ » الخ سياق الآيات يدل على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا
 يسرون المواد إلى المشركين بمكة ليحموا بذلك من بقي من أرحامهم و أولادهم
 بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجرة إلى المدينة فنزلت الآيات و نهاهم الله عن
 ذلك ، و يتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة أسر كتاباً إلى
 المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله ﷺ على الخروج إليها لفتحها فعل ذلك
 ليكون بداً له عليهم بقي بها من كان بمكة من أرحامه و أولاده فأخبر الله بذلك نبيته
 صلى الله عليه وآله و نزلت ، و ستوافيك قصته في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .
 فقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ » العدو معروف
 و يطلق على الواحد و الكثير و المراد في الآية هو الكثير بقرينة قوله : « أَوْلِيَاءَ » و

«إليهم» و غير ذلك ، و هم المشركون بمكة ، و كونهم عدوً من جهة اتّخاذهم له شركاء يعبدونهم و لا يعبدون الله و يردّون دعوته و يكذّبون رسوله ، و كونهم أعداء للمؤمنين لا يمانهم بالله و تفديتهم أموالهم و أنفسهم في سبيله فمن يعادي الله يعاديهم .

و ذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفاية ذكر عداوتهم لله في سوق النهي لتأكيد التحذير و المنع كأنّه قيل : من كان عدوًّا لله فهو عدوٌّ لكم فلا تتخذوه وليًّا .

و قوله : « تلقون إليهم بالمودّة » بالمودّة مفعول « تلقون » و الباء زائدة كما في قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٥ والمراد بإلقاء المودّة إظهارها أو إيصالها ، و الجملة صفة أو حال من فاعل « لا تتخذوا » .

و قوله : « و قد كفروا بما جاءكم من الحق » وهو الدين الحق الذي يصفه كتاب الله و يدعو إليه النبي ﷺ ، و الجملة حالية .

و قوله : « يخرجون الرسول و إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » الجملة حالية و المراد بإخراج الرسول و إخراجهم اضطرارهم الرسول و المؤمنين إلى الخروج من مكة و المهاجرة إلى المدينة ، و « أن تؤمنوا بالله ربكم » بتقدير اللام متعلق بـ « يخرجون » ، و المعنى يجبرون الرسول و إياكم على المهاجرة من مكة لا يمانكم بالله ربكم .

و توصيف الله بقوله : « ربكم » للإشارة إلى أنّهم يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإنّ إيمان الإنسان بربه مفروض عليه و ليس من الجرم في شيء . و قوله : « إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي و ابتغاء مرضاتي » متعلق بقوله : « لا تتخذوا » و جزاء الشرط محذوف يدلّ عليه المتعلق ، و « جهاداً » مصدر مفعول له ، و « ابتغاء » بمعنى الطلب و « المرضاة » مصدر كالرضى ، و المعنى لا تتخذوا عدوِّي و عدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة في سبيلي و لطلب رضي .

و تقييد النهي عن ولائهم و اشتراطه بخروجهم للجهاد و ابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيداً له و إيذاناً بالملزمة بين الشرط و الحكم كقول الوالد لولده : إن كنت ولدي فلا تفعل كذا .

و قوله : «تسرون إليهم بالموودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم» أسررت إليهم حديثاً أي أفضيت إليهم في خفية فمعنى «تسرون إليهم بالموودة» تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم - على ما قاله الراغب - والإعلان خلاف الإخفاء ، و «أنا أعلم» الخ حال من فاعل «تسرون» ، و «أعلم» اسم تفضيل ، واحتمل بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعدياً بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها .

وجملة : «تسرون إليهم» الخ استئناف بيانية كأنه قيل بعد استماع النهي السابق : ماذا فعلنا فأجيب : تطلعونهم سرّاً على مودتهم كما أنهم لم يعلموا بما أخفيتم وما أظهرتم أي أنا أعلم بقولكم وفعلكم علماً يستوي بالنسبة إليهم إخفاؤكم وإظهاركم .
ومنه يعلم أن قوله : «بما أخفيتم وما أعلنتم» معاً يفيدان معنى واحداً وهو استواء الإخفاء والإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر وما بطن فلا يرد أن ذكر «ما أخفيتم» يغني عن ذكر «ما أعلنتم» لأن العالم بما خفي عالم بما ظهر بطريق أولى .

وقوله : «و من يفعل ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل» الإشارة بذلك إلى إسرار الموودة إليهم وهو الموالاة ، و «سواء السبيل» من إضافة الصفة إلى الموصوف أي السبيل السوي والطريق المستقيم وهو مفعول «ضلّ» أو منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد ضلّ عن سواء السبيل ، والسبيل سبيل الله تعالى .

قوله تعالى : «إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء» الخ قال الراغب : الثقف - بالفتح فالتحقيق - الحذق في إدراك الشيء وفعله . قال : و يقال : ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة . انتهى وفسره غيره بالظفر ولعله بمعونة مناسبة المقام ، والمعنيان متقاربان .

والآية مسوقة لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالموودة للمشركين في جلب محبتهم ورفع عداوتهم شيئاً وأن المشركين على الرغم من إلقاء الموودة إليهم إن بدر كوههم و يظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغيّر ما في قلوبهم من العداوة .

وقوله : «و يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفروا» بمنزلة

عطف التفسير لقوله : « يكونوا لكم أعداء » و بسط الأيدي بالسوء كناية عن القتل و السبي و سائر أنحاء التعذيب و بسط الألسن بالسوء كناية عن السب و الشتم .

و الظاهر أن قوله : « و ودّوا لو تكفرون » عطف على الجزاء و الماضي بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط و الجزاء ، والمعنى أنهم يبسطون إليكم الأيدي والألسن بالسوء و يودّون بذلك لو تكفرون كما كانوا يقتنون المؤمنين بمكّة و يعدّونهم يودّون بذلك أن يرتدّوا عن دينهم . والله أعلم .

قوله تعالى : « لن ينفعكم أرحامكم و لا أولادكم يوم القيامة » دفع لما ربّما يمكن أن يتوهم عذراً لا لقاء المودة إليهم أن في ذلك صيانة لأرحامهم و أولادهم الذين تركوهم بمكّة بين المشركين من أذاهم .

و الجواب أن أمامكم يوماً تجازون فيه على معصيتكم و طالح عملكم و منه موالاة الكفار و لا ينفعكم اليوم أرحامكم و لا أولادكم الذين قدّمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانة أنفسكم من عذاب الله بترك موالاة الكفار .

وقوله : « يفصل بينكم » أي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيوية كما قال تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ و ذلك أن القرابة و هي انتهاء إنسانين أو أكثر إلى رحم واحدة إنّما تؤثر آثارها من الرحمة و المودة و الألفة و المعاونة و المعاوضة و العصبية و الخدمة و غير ذلك من الآثار في ظرف الحياة الاجتماعية التي تسوق الإنسان إليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء و العقائد الاعتبارية التي أوجدها فيه فهمه الاجتماعي ، ولا خبر عن هذه الآراء في الخارج عن ظرف الحياة الاجتماعية .

و إذا برزت الحقائق و ارتفع الحجاب و انكشف الغطاء يوم القيامة ضلّت عن الإنسان هذه الآراء و المزايم و انقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب و مسبباتها كما قال تعالى : « لقد تقطّع بينكم و ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ ، وقال : « و رأوا العذاب و تقطّعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ .

فيومئذ تنقطع رابطة الأنساب و لا ينتفع ذو قرابة من قرابته شيئاً فلا ينبغي

لأنّ نسان أن يخون الله ورسوله بموالاة أعداء الدين لأجل أرحامه و أولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ .

وقيل : المراد أنّه يفرق الله بينكم يوم القيامة بما فيه من الهول المحوج لقرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل أمرء منهم يومئذ شأن يغنيه » عبس : ٣٧ والوجه السابق أنسب للمقام .

وقيل : المراد أنّه يميّز بعضكم يومئذ من بعض فيدخل أهل الإيمان والطاعة الجنة ، وأهل الكفر والمعصية النار ولا يرى القريب المؤمن في الجنة قريبه الكافر في النار .

وفيه أنّه وإن كان لأبأس به في نفسه لكنّه غير مناسب للمقام إذ لا دلالة في المقام على كفر أرحامهم و أولادهم .

وقيل : المراد بالفصل فصل القضاء والمعنى أن الله يقضى بينكم يوم القيامة . وفيه ما في سابقه من عدم المناسبة للمورد فإن فصل القضاء إنّما يناسب الاختلاف كما في قوله تعالى : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٠ ولا ارتباط في الآية بذلك .

وقوله : « والله بما تعملون بصير » متمم لقوله : « لن تنفعكم » كالمؤكد له والمعنى لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعه هذه الخيانة وأمثالها والله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ماهي هذه الخيانة فيؤاخذكم عليها لامحالة . قوله تعالى : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والأذين معه » إلى آخر الآيتين ، الخطاب للمؤمنين ، والأسوة الاتّباع والاقتداء ، وفي قوله : « والأذين معه » بظاهره دلالة على أنّه كان معه من آمن به غير زوجته ولوط .

وقوله : « إذ قالوا لقومهم إنّنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، أي إنّنا بريئون منكم ومن أصنامكم بيان لما فيه الأسوة والاقتداء .

وقوله : « كفرنا بكم وبدء بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا

بالله وحده» بيان لمعنى البراءة بأثرها وهو الكفر بهم وعداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحّدوا الله سبحانه .

والمراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله : «حتى تؤمنوا بالله وحده» ، والكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملاً كما أن العداوة بينونة ومخالفة قلباً .

فقد فسّروا براءتهم منهم بأمر ثلاثة : مخالفتهم لشركهم عملاً ، و العداوة والبغضاء بينهم قلباً ، واستمرار ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده . وقوله : «إلا قول إبراهيم لأبيه لا أستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء» استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمة أن إبراهيم والأذين معه تبرّأوا من قومهم المشركين قولاً مطلقاً . وقطعوا أى رابطة تربطهم بالقوم وتصل بينهم إلا ما قال إبراهيم لأبيه : «لا أستغفرن لك» الخ .

و لم يكن قوله : «لا أستغفرن لك» تولياً منه بل وعداً وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك ويؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرّأ منه» التوبة : ١١٤ حيث يفيد أنه ﷺ إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شركه فكان يرجو أن يرجع عن شركه ويطمع في أن يتوب ويؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته ويش من إيمانه تبرّأ منه .

على أن قوله تعالى في قصة حاجته أباه في سورة مريم : «قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيظاً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله» مريم : ٢٨ يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار تولياً منه لأبيه لكان من الحري أن يقول : وأعتزل القوم، لا أن يقول : وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبرّي .

فلاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبرّي والمحصل من المعنى أنهم إنما ألقوا إليهم القول بالتبرّي إلا قول إبراهيم لأبيه : لا أستغفرن لك فلم يكن تبرّياً ولا تولياً بل وعداً وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله .

و ههنا شيء وهو أن مؤدى آية التوبة «فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه» أن تبرأ به الجازم إنما كان بعد الوعد و بعد تبين عداوته لله ، و قوله تعالى في الآية التي نحن فيها : « إن قال لقومهم إننا برا آء منكم » إخبار عن تبرأ بهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعداً واقعاً قبل تبرأ به الجازم و من غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعاً لا متصلاً .

و على تقدير كون الاستثناء منقطعاً يجوز أن يكون الاستثناء من قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم و الذين معه » بما أنه مقيّد بقوله : « إن قالوا لقومهم إننا برا آء منكم » و المعنى قد كان لكم اقتداء حسن بتبرأي إبراهيم و الذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا و كذا وعداً .

و أمّا على تقدير كون الاستثناء متصلاً فالوجه ما تقدم ، و أمّا كون المستثنى منه هو قوله : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » و المعنى لكم في إبراهيم أسوة في جميع خصاله إلا في قوله لأبيه : لا ستغفرن لك فلا أسوة فيه .

ففيه أن قوله : « لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الخ غير مسوق لا يجاب الناسي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار - وذلك من خصاله - مستثنى منها بل إنما سبق لا يجاب الناسي به في تبرأ به من قومه المشركين و الوعد بالاستغفار رجاء للتوبة و الإيمان ليس من التبرأي و إن كان ليس توكيلاً أيضاً .

و قوله : « و لا أملك لك من الله شيئاً » تتمّة قول إبراهيم عليه السلام ، و هو بيان لحقيقة الأمر من أن سؤاله المغفرة و طلبها من الله ليس من نوع الطلب الذي يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه ، و إنما هو سؤال يدعو إليه فقر العبوديّة و ذلّها قبال غنى الربوبيّة و عزّها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب و يرحم ، و له أن يعرض و يمسك الرحمة فانّه لا يملك أحد منه تعالى شيئاً وهو المالك لكل شيء قال تعالى : « قل فمن يملك من الله شيئاً » المائدة : ١٧ .

و بالجملة قوله : « لا أملك » الخ نوع اعتراف بالعجز استدراكاً لما يستشعر من

قوله : «لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» من شائبة إنبات القدرة لنفسه نظير قول شعيب عليه السلام : «و ما توفيقى إلا بالله» استدراكاً لما يشعر به قوله لقومه : «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» هود : ٨٨ من إنبات القوة والاستطاعة لنفسه بالأصالة والاستقلال .

و قوله : «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» الخ من تمام القول المنقول عن إبراهيم والذين معه المذنبون إلى التأسّي بهم فيه ، وهو دعاء منهم لربهم و ابتهاج إليه إثر ما تبرّأوا من قومهم ذاك التبرّي العنيف ليحفظهم من تبعاته ويغفر لهم فلا يخيبهم في إيمانهم .

و قد افتتحوا دعاءهم بتقدمة يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبرّي من أعداء الله فقالوا : «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا» يعنون به أننا كنا في موقف من الحياة تمكّن فيه أنفسنا و ندبّر فيه أمورنا أمّا أنفسنا فأنبأنا و رجعنا بها إليك و هو الإنباء ، و أمّا أمورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك و جعلنا مشيتك مكان مشيتنا فأنت و كملنا فيها تدبيرها بما تشاء و كيف تشاء و هو التوكّل .

ثم قالوا : «وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل إليك فقد جرينا في توكّلنا عليك و إنبأتنا إليك مجرى ما عليه حقيقة الأمر من مصير كل شيء إليك حيث هاجرنا بأنفسنا إليك و تركنا تدبير أمورنا لك .

وقوله : «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا» متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيدهم من تبعه تبرّيهم من الكفار و يغفر لهم .

و الفتنة ما يمتحن به ، و المراد بجعلهم فتنة للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم و تبرّأوا منهم و ممّا يعبدون .

و قد كرّروا نداءه تعالى - ربّنا - في دعائهم مرّة بعد مرّة لا تارة الرحمة الإلهية .

وقوله : «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أي غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه و يعلم بأيّ طريق يحفظ .

و للمفسرين في تفسير الآيتين أنظار مختلفة أخرى أغمضنا عن إيرادها رعاية للاختصار من أرادها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»
الخ تكرار حديث الأسوة لتأكيد الإيجاب و لبيان أن هذه الأسوة لمن كان يرجو الله
و اليوم الآخر ، و أيضا أنهم كما يتأسى بهم في تبرّ بهم من الكفار كذلك يتأسى بهم
في دعائهم و ابتهاهم .

و الظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به و برجاء اليوم الآخر
رجاء ما وعد الله و أعد للمؤمنين من الثواب ، و هو كناية عن الإيمان .

و قوله : « ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » استغناء منه تعالى عن امتثالهم
لأمره بتبرّ بهم من الكفار و أنهم هم المنتفعون بذلك و الله سبحانه غني في ذاته
عنهم و عن طاعتهم حميد فيما يأمرهم و ينهاهم إن ليس في ذلك إلا صلاح حالهم و سعادة
حياتهم .

قوله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة » و الله
قدير و الله عفور رحيم ، ضمير « منهم » للكفار الذين أمروا بمعاداتهم و هم كفار مكّة ،
و المراد بجعل المودة بين المؤمنين و بينهم جعلها بتوفيقهم للإسلام كما وقع ذلك لما
فتح الله لهم مكّة ، وليس المراد به نسخ حكم المعادة والتبرّي .

و المعنى مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين و بين الذين عاديتم من
الكفار و هم كفار مكّة مودة بتوفيقهم للإسلام فتقلب المعادة مودة و الله قدير و الله
غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا و أسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدل
معاداتهم مودة بقدرة و مغفرته و رحمته .

قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم
من دياركم أن تبرّوهم و تقسطوا إليهم » الخ في هذه الآية و التي تتلوها توضيح للنهي
الوارد في أول السورة ، و المراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدين و لم يخرجوهم غير
أهل مكّة ممن لم يقاتلوهم و لم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهدة ،

و البرّ الإحسان ، و الإقساط المعاملة بالعدل ، و « أن تبرّوهم » بدل من « الذين » الخ ، و قوله : « إن الله يحبّ المقسطين » تعليل لقوله : « لا ينهاكم الله » الخ .
و المعنى لا ينهاكم الله بقوله : « لا تتخذوا عدوّي و عدوّكم أولياء » عن أن تحسنوا و تعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأنّ ذلك منكم إقساط و الله يحبّ المقسطين .

قيل : إنّ الآية منسوخة بقوله : « اقاتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٥ و فيه أنّ الآية التي نحن فيها لا تشمل باطلاقها إلّا أهل الذمّة و أهل المعاهدة و أمّا أهل الحرب فلا ، و آية التوبة إنّما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهدة فكيف تنسخ ما لا يزاحمها في الدلالة .

قوله تعالى : « إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين و أخرجوكم من دياركم و ظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم » الخ المراد بالذين قاتلوكم الخ مشركو مكّة ، و المظاهرة على الإخراج المعاونة و المعاوضة عليه ، و قوله : « أن تولّوهم » بدل من الذين قاتلوكم ، الخ .

و قوله : « و من يتولّهم فأولئك هم الظالمون » قصر أفراد أي المتولّون لمشركي مكّة و من ظاهروهم على المسلمين هم الظالمون المتمرّون دون عن النهي دون مطلق المتولّين للكفّار أو تأكيد للنهي عن تولّيهم .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي و عدوّكم أولياء » الآية : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، و لفظ الآية عام و معناها خاصّ و كان سبب ذلك أنّ حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم و هاجر إلى المدينة و كان عياله بمكّة ، وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فصاروا إلى عيال حاطب و سألوهم أن يكتبوا إلى حاطب و يسألوه عن خبر محمّد هل يريد أن يغزو مكّة؟

فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك فكتب إليهم حاطب أن رسول الله ﷺ يريد ذلك ، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية فوضعت في قرونها ومرت فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك .

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين والزبير بن العوام في طلبها فلحقوها فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام : أين الكتاب ؟ فقالت : ما معي شيء ففتشها فلم يجدوا معها شيئاً فقال الزبير : ما نرى معها شيئاً فقال أمير المؤمنين عليه السلام : والله ما كذبنا رسول الله ﷺ ، ولا كذب رسول الله ﷺ على جبرئيل ، ولا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه ، والله لتظهرن الكتاب أو لا تردن رأسك إلى رسول الله ﷺ فقالت : تنحياً عنّي حتى أخرجه فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين وجاء به إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله .

وقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ فقال حاطب : والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت ، وإنّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله حقاً ولكن أهلي وعيالي كتبوا إليّ بحسن صنع قريش إليهم فأحببت أن أجازي قريشا بحسن معاشرتهم ، فأنزل الله على رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوتكم أولياء - إلى قوله - والله بما تعملون بصير » .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن عليّ قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة ^(١) خاخ فإن بها ظعينة ^(٢) معها كتاب فخذوه منها وأتوني به .

فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب . قالت :

(١) موضع في طريق مكة .

(٢) الظعينة المسافرة .

ما معي كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لانهجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرءً ملصقاً من قريش و لم أكن من أنفسها و كان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطع إليهم يداي يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني فقال النبي ﷺ : صدق .

فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه فقال : إنه شهد بدرًا و ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، و نزلت فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » .

اقول : وهذا المعنى مروي في عدة من الروايات عن نفر من الصحابة كأُس و جابر و عمر و ابن عباس و جمع من التابعين كحسن وغيره .

و الرواية من حيث متنها لا تخلو من بحث :

أما أولاً فلا ن ظاهرها بل صريحها أن حاطب بن أبي بلتعة كان يستحق بصناعة ما صنع القتل أو جزاء دون ذلك ، و إنما صرف عنه ذلك كونه بدرياً فالبدري لا يؤخذ بما أتى به من معصية كما يصرح به قوله ﷺ لعمر في هذه الرواية : « إنه شهد بدرًا » وفي رواية الحسن : إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر .

و يعارضه ما في قصة الإفك أن النبي ﷺ بعد ما نزلت براءة عائشة حدّ مسطح بن أثانة و كان من الآفكين ، و كان مسطح بن أثانة هذا من السابقين الأولين من المهاجرين و ممن شهد بدرًا كما في صحيح البخاري و مسلم و حده النبي ﷺ كما نطقت به الروايات الكثيرة الواردة في تفسير آيات الإفك .

و أمّا ثانياً فلا ن ما يشتمل عليه من خطابه تعالى لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » الدال على كون كل ما أتوا به من ذنب مغفوراً لهم لا يتم بالبداهة

إلا بارتفاع عامة التكليف الدينية عنهم من واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه ، ولا معنى لتعلق التكليف المولوي بأمر مع إلغاء تبعة مخالفته و تسوية الفعل و الترك بالنسبة إلى المكلف كما يدل عليه قوله : « اعملوا ما شئتم » على بداهة ظهوره في الإباحة العامة .

و لازم ذلك :

أو لا شمول المغفرة من المعاصي لما يحكم بداهة العقل على عدم شمول العفولة لولا التوبة كعبادة الأصنام والرد على الله و رسوله و تكذيب النبي و الافتراء على الله و رسوله و الاستهزاء بالدين و أحكامه الثابتة بالضرورة ، فإن الآيات المتعرضة لها الناهية عنها تأبى شمول المغفرة لها من غير توبة ، و مثلها قتل النفس المحترمة ظلما و الفساد في الأرض و إهلاك الحرث و النسل ، و استباحة الدماء و الأعراض و الأموال .

و من المعلوم أن المحذور إمكان تعلق المغفرة بأمثال هذه المعاصي و الذنوب لا- فعليّة تعلقها بها فلا يدفع بأن الله سبحانه يحفظ هذا المكلف المغفور له من اقتراف أمثال هذه المعاصي و الذنوب وإن كان غفر له لو اقترف .

و ثانياً أن يخصّص قوله : « اعملوا ما شئتم » عمومات جميع الأحكام الشرعية من عبادات و معاملات من حيث المتعلق فلا يعم شيء منها البدرين ولا يتعلق بهم ، و لو كان كذلك لكان معروفاً عند الصحابة مسلماً لهم أن هؤلاء العصاة محررون من كل تكليف ديني مطلقون من قيد وظائف العبوديّة و كان البدريون أنفسهم أحق برعاية معنى التحرير فيما بينهم أنفسهم على ما له من الأهميّة ، ولا شاهد يشهد بذلك في المروي من أخبارهم والمحموظ من آثارهم بل المستفاد من سيرهم و خاصّة في خلال الفتن الواقعة بعد رحلة النبي ﷺ خلاف ذلك بما لا يسع لأحد إنكاره .

على أن تحرير قوم ذوي عدد من الناس و إطلاقهم من قيد التكليف لهم أن يفعلوا ما يشاؤون و أن لا يبالوا بمخالفة الله و رسوله وإن عظمت ما عظمت يناقض مصلحة الدعوة الدينية و فريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و بث المعارف الإلهية

التي جاء بها الرسول بالرواية عنه إذ لا يبقى للناس بهم وثوق فيما يقولون و يروون من حكم الله ورسوله أن لاضير عليهم و لو أتوا بكل كذب و افتراء أو اقترفوا كل منكر و فحشاء و الناس يعلمون منهم ذلك .

و يجري ذلك في النبي ﷺ وهو سيد أهل بدر و قد أرسله ^(١) الله شاهداً و مبشراً و نذيراً و داعياً إلى الله باذنه و سراجاً منيراً فكيف تطمئن القلوب إلى دعوة من يجوز تلبسه بكل كذب و افتراء و منكر و فحشاء ؟ وأننى تسلم النفوس له الاتصاف بتلك الصفات الكريمة التي مدحه الله بها ؟ بل كيف يجوز في حكمته تعالى أن يقلد الشهادة و الدعوة من لا يؤمن في حال أو مقال ، و يعدّه سراجاً منيراً و هو تعالى قدأباح له أن يحيي الباطل كما ينير الحق و أذن له في أن يضلّ الناس و قد بعثه ليهديهم و الآيات المتعترضة لعصمة الأنبياء و حفظ الوحي تأبى ذلك كله .

على أن ذلك يفسد استقامة الخطاب في كثير من الآيات التي فيها عتاب الصحابة و المؤمنين على بعض تخلفاتهم كالآيات النازلة في وقعة أحد و الأحزاب و حنين وغيرها المعاتبة لهم على انهزامهم و فرارهم من الزحف و قد أوعد الله عليه النار .

ومن أوضح الآيات في ذلك آيات الإفك وفي أهل الإفك مسطح بن أثانة البديري وفيها قوله تعالى : « لكل أمرء منهم ما اكتسب من الإثم » ولم يستثن أحداً منهم ، وقوله : « و هو عند الله عظيم » ، و قوله : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين » .

و من أوضح الآيات في عدم ملازمة معناها للرواية نفس هذه الآيات التي تذكر الرواية سبب نزولها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » الآيات وفيها مثل قوله تعالى : « ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل » وقوله : « ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فمن المعلوم أن الآيات إنما وجهت الخطاب والعتاب إلى عامة الذين آمنوا تنسب إلقاء المودة و إسرار مودة الكفار إلى المؤمنين بما أن بعضهم و هو حاطب بن أبي بلتعة اتخذ الكفار أولياء وخان الإسلام والمسلمين فنسبت الآيات فعل البعض إلى

الكلّ وجّهت العتاب والتهديد إلى الجميع .

فلو كان حاطب و هو بدري محرّر مرفوع عنه القلم مخاطباً بمثل قوله : اعمل ما شئت فقد غفرت لك لا إثم عليه فيما يفعل ولا ضلال في حقه ولا يتصف بظلم ولا يتعلق به عتاب ولا تهديد فأى وجه لنسبة فعل البعض بماله من الصفات غير المرضية إلى الكلّ ولا صفة غير مرضية لفعل هذا البعض على الفرض .

فيؤل الأمر إلى فرض أن يأتي البعض بفعل مأذون له فيه لاعتاب عليه ولالوم يعتربه ويعاتب الكلّ ويهدّوا عليه و بعبارة أخرى أن يؤذن لفاعل في معصية ثم يعاتب عليها غيره ولا صنع له فيها ويجلّ كلامه تعالى عن مثل ذلك .

و فيه أخرج البخاري وابن المنذر والنحاس والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي رغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت النبي ﷺ أصلها ؟ فأنزل الله « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين » فقال : نعم صلى .

وفيه أخرج أبو داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين » نسختها « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .
أقول : قد عرفت الكلام فيه .

و في الكافي بإسناده عن سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله جل وعز .
و في تفسير القمي بإسناده إلى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ
 لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ
 الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكِمُ
 بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى
 الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَانْقُوا
 اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ
 يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ
 أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا
 يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنْسُوا مِنْ
 الْآخِرَةِ كَمَا يَنْسَى الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) .

﴿بيان﴾

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ »
 الآية سياق الآية يعطي أنها نزلت بعد صاح الحديثية ، و كان في العهد المكتوب بين

النبي ﷺ و بين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردّوه إليهم و إن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردّوه إليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت و هاجرت إلى المدينة فجاء زوجها يستردّها فسأل النبي ﷺ أن يردّها إليه فأجابها النبي ﷺ أن الذي شرطوه في العهد ردّ الرجال دون النساء و لم يردّها إليهم و أعطاه ما أنفق عليها من المهر و هو الذي تدلّ عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهنّ .

فقوله : « يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » سمّاهنّ مؤمنات قبل امتحانهنّ و العلم بإيمانهنّ لتظاهرنّ بذلك .

وقوله : « فامتحنوهنّ » أي اختبروا إيمانهنّ بما يظهر به ذلك من شهادة و حلف يفيد العلم و الوثوق و في قوله : « الله أعلم بإيمانهنّ » إشارة إلى أنه يجزي في ذلك العلم العادي و الوثوق دون اليقين بحقيقة الإيمان الذي هو تعالى أعلم به علماً لا يتخلف عنه معلومه .

و قوله : « فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعهنّ إلى الكفار » ذكرهم بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب للحكم و انقطاع علاقة الزوجيّة بين المؤمنة و الكافر . و قوله : « لاهنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ » مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علاقة الزوجيّة ، وليس من توجيه الحرمة إليهنّ و إليهم في شيء .

و قوله : « وآتوهنّ ما أنفقوا » أي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر . و قوله : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتوهنّ أجورهنّ » رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهنّ و الأجر المهر .

و قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » العصم جمع عصمة وهي النكاح الدائم يعصم المرأة و يحصنها ، و إمساك العصمة إبقاء الرجل - بعد ما أسلم - زوجته الكافرة على زوجيّةها فعليه بعد ما أسلم أن يخلّي عن سبيل زوجته الكافرة سواء كانت مشركة أو كنيانية .

وقد تقدّم في تفسير قوله : « ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمنن » البقرة : ٢٢١ ،

و قوله : « و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ أن لا نسخ بين الآيتين و بين الآية التي نحن فيها .

و قوله : « و اسألوا ما أنفقتم و ليسألوا ما أنفقوا » ضمير الجمع في « و اسألوا » للمؤمنين و في « ليسألوا » للكفار أي إن لحقت امرأة منكم بالكفار فاسألوهم ما أنفقتم لها من مهر و لهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائهم .

ثم تتم الآية بالإشارة إلى أن ما تضمنته الآية حكم الله الذي شرع لهم فقال : « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

قوله تعالى : « و إن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا » الخ قال الراغب : الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه قال تعالى : « و إن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار » انتهى و فسر المعاينة و العقاب بمعنى الوصول و الانتهاء إلى عقبي الشيء و المراد عاقبتهم من الكفار أي أصبتم منهم غنيمة و هي عقبي الغزو ، و قيل : عاقب بمعنى عقب ، و قيل : عاقب مأخوذ من العقبة بمعنى النوبة .

و الأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و « من » في « من أزواجكم » لابتداء الغاية و « إلى الكفار » متعلق بقوله : « فاتكم » و المراد بالذين ذهب أزواجهم ، بعض المؤمنين و إليهم يعود ضمير « أنفقوا » .

و المعنى و إن ذهب و انفلت منكم إلى الكفار مهر من أزواجكم بلحقن بهم و عدم ردّهم ما أنفقتم من المهر إليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمة فأعطوا المؤمنين الذين ذهب أزواجهم إليهم مما أصبتم من الغنيمة مثل ما أنفقوا من المهر . و فسرت الآية بوجه أخرى بعيدة عن الفهم أغمضنا عنها .

و قوله : « و اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » أمر بالتقوى ، و توصيفه تعالى بالموصول و الصلة لتعليل الحكم فإن من مقتضى الإيمان بالله تقواه .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك ، الخ تتضمن الآية حكم بيعة النساء المؤمنات للنبي ﷺ ، وقد شرطت عليهن في « على أن لا يشركن »

الخ أموراً منها ما هو مشترك بين الصنفين : الرجال والنساء كالتحرّز من الشرك ومن معصية الرسول في معروف ومنها ما هو أمسّ بهنّ من حيث أنّ تدبير المنزل بحسب الطبع إليهنّ و هنّ السبيل إلى حفظ عفة البيت والحصول على الأنسال وطهارة مواليدهم ، وهى التجنّب من السرقة والزنا وقتل الأولاد وإلحاق غير أولاد أزواجهنّ بهم ، وإن كانت هذه الأمور بوجه من المشتركات.

فقوله : «يا أيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك» شرط جوابه قوله : «فبأيعهنّ واستغفرلهنّ الله» .

وقوله : «على أن لا يشركن بالله شيئاً» أي من الأصنام والأوثان والأرباب ، و هذا شرط لاغنى عنه لانسان في حال .

وقوله : «و لا يسرقن» أي لامن أزواجهنّ ولا من غيرهم وخاصة من أزواجهنّ كما يفيد السياق ، وقوله : «ولا يزني» أي باتخاذ الأخدان وغير ذلك وقوله : «و لا يقتلن أولادهنّ» بالوعد وغيره وإسقاط الأجنّة .

وقوله : «ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ» وذلك بأن يحملن من الزنا ثم يضعنه وينسبنه إلى أزواجهنّ فألحاقهنّ الولد كذلك بأزواجهنّ ونسبته إليهم كذباً بهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ لأنّ الولد إذا وضعته أمّه سقط بين يديها ورجليها ، ولا يغني عن هذا الشرط شرط الاجتناب عن الزنا لأنّهما متغايران وكلّ مستقلّ بالنهي والتحريم .

وقوله : «و لا يعصينك في معروف» نسب المعصية إلى النبيّ ﷺ دون الله مع أنّها تنتهي إليه تعالى لأنّ المراد أن لا يتخلّفن بالمعصية عن السنّة التي يستنبها النبيّ ﷺ و ينفذها في المجتمع الإسلاميّ فيكون ما سنّه هو المعروف عند المسلمين وفي المجتمع الإسلاميّ .

ومن هنا يظهر أنّ المعصية في المعروف أعمّ من ترك المعروف كترك الصلاة والزكاة وفعل المنكر كتبرّج الجاهليّة الأولى .

وفي قوله «إنّ الله غفور رحيم» بيان لمقتضى المغفرة وتقوية للرجاء .

قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم» الخ المراد بهم اليهود المغضوب عليهم و قد تكرر في كلامه تعالى فيهم « و باءوا بغضب من الله » البقرة : ٦١ و يشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار .
 وقوله : «يثسوا من الآخرة كما يشس الكفار من أصحاب القبور» المراد بالآخرة ثوابها ، و المراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث ، و قيل : المراد مشركو أمكة واللام للعهد ، و«من» في «من أصحاب القبور» لابتداء الغاية .
 و الجملة بيان لشقائهم الخالد و هلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم و موادتهم و الاختلاط بهم و المعنى قديش اليهود من ثواب الآخرة كما يشس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور .
 وقيل : المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى و يوارونهم في الأرض - من الكفر بمعنى السر .

و قيل : المراد بهم كفار الموتى و «من» بيانية و المعنى يثسوا من ثواب الآخرة كما يشس الكفار المدفونون في القبور منه لقوله : «إن الذين كفروا و ماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله» البقرة : ١٦١ .

﴿بحث روائى﴾

في المجمع عن ابن عباس صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة ردّه عليهم ، و من أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردّه عليه و كتبوا بذلك كتابا و ختموا عليه .
 فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب و النبي ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بنى مخزوم - و قال مقاتل : هو صيفي بن الراهب . في طلبها و كان كافراً فقال : يا محمد اردد عليّ أمر أمتي فإنك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أهلك منا و هذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتنحنوهن » .

قال ابن عباس : امتحانهم أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج ، و لا رغبة عن أرض إلى أرض ، و لا التماس دنيا ، و ما خرجت إلا حباً لله و لرسوله فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضاً لزوجها ، و لا عشقاً لرجل منها ، و ما خرجت إلا رغبة في الإسلام فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يردّها عليه فتزوجها عمر بن الخطاب .

فكان رسول الله ﷺ يردّها من جاءه من الرجال و يحبس من جاءه من النساء إذا امتحن و يعطي أزواجهن مهورهن .

قال : قال الزهري : و لما نزلت هذه الآية و فيها قوله : « و لا تمسكوا بعصم الكوافر » طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا له بمكة مشركتين : قرينة ^(١) بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان و هما على شركهما بمكة ، و الأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قومها و هما على شركهما .

و كانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، و كان طلحة قد هاجر و هي بمكة عند قومها كافرة ثم تزوجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، و كانت ممن فرّت إلى رسول الله ﷺ من نساء الكفار فحبسها و تزوجها خالداً .

و أميمة بنت بشر كانت عند الثابت بن الدحداحة ففرّت منه - و هو يومئذ كافر - إلى رسول الله ﷺ فتزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف فولدت عبد الله بن سهل . قال : قال الشعبي : و كانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت و لحقت بالنبي ﷺ في المدينة و أقام أبو العاص مشركاً بمكة ثم أتى المدينة فأمنته فآمنت زينب ثم أسلم فردّها عليه رسول الله ﷺ .

قال : وقال الجبائي : لم يدخل في شرط صالح الحديبية إلا لارد الرجال دون النساء ولم يجر للنساء ذكر ، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخوها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ رداها عليهما فقال رسول الله ﷺ : إن الشرط بيننا في الرجال لاني النساء فلم يرداها عليهما .

أقول : وهذه المعاني مروية في روايات أخرى من طرق أهل السنة أورد كثيرا منها السيوطي في الدر المنثور ، وروى امتحان المهاجرات كما تقدم ثم عدم رد هن على الكفار وإعطائهم المهر القمي في تفسيره .

وفيه وقال الزهري : فكان جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعات عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري ، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدية بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمرو بن عبدود ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر فأعطاهم رسول الله ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : لا ينبغي نكاح أهل الكتاب قلت : جعلت فداك وأين تحريمه ؟ قال : قوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : و الرواية مبنية على عموم الإمساك بالعصم للنكاح الدائم إحداثا وإبقاء . وفيه بإسناده أيضاً إلى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم » فقال : هذه منسوخة بقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ولعل المراد بنسخ آية الإمساك بالعصم لآية حليمة محصنات أهل الكتاب إختصاص آية الممتحنة بالنكاح الدائم وتخصيص آية المائدة بالنسبة إلى النكاح الدائم بها ، وإختصاص ما تدل عليه من الحليمة بالنكاح المنقطع ، وليس المراد به النسخ المصطلح كيف ؟ و آية الممتحنة سابقة نزولاً على آية المائدة ولا وجه لنسخ

السابق للآحق . على أن آية المائدة مسوقة سوق الامتنان ، و ما هذا شأنه يأبى النسخ .

و في المجمع في قوله تعالى : « و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب » و روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام أنه منسوخ بقوله : « و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » و بقوله : « و لا تمسكوا بعصم الكوافر » .

أقول : ويضعف الرواية - مضافاً إلى ضعف راويها - أن قوله : « و لا تنكحوا المشركات » الخ إنما يشمل المشركات من الوثنيين ، و قوله : « و المحصنات » الخ يفيد حلية نكاح أهل الكتاب فلا تدافع بين الآيتين حتى تنسخ إحداها الأخرى ، و قد تقدم أنفاً الكلام في نسخ آية الممتحنة لقوله : « و المحصنات » الخ و قد تقدم في تفسير قوله : « و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » المائدة : ٥ ما ينفع في هذا المقام .

و في تفسير القمى في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام « و إن فاتكم شيء من أزواجكم » فالحقن بالكفر من أهل عهدكم فأسألوهم صداقها ، و إن لحقن بكم من نسائهم شيء فأعطوهم صداقها ذلكم حكم الله يحكم بينكم .
أقول : ظاهره تفسير « شيء » بالمرأة .

و في الكافي بإسناده عن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يباعنه فأنزل الله عز و جل « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباعنك » إلى آخر الآية .

قالت هند : أما الولد فقد ربيناهم صغاراً و قتلتهم كباراً ، و قالت أم حكيم بنت الحارث بن هشام و كانت عند عكرمة بن أبي جهل : يا رسول الله ما ذاك المعروف الكذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه ؟ قال : لا تلطمن خدّاً ، و لا تخمشن وجهها ، و لا تنتفن شعراً ، و لا تشقن جيباً ، و لا تسودن ثوباً ، و لا تدعين بويل فبايعهن رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا .

فقلت : يا رسول الله كيف نبايعك ؟ قال : إننى لا أصفح النساء فدعا بقدح

من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال : أدخلن أيديكن في هذا الماء .

أقول : و الروايات مستفيضة في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة .

و في تفسير القمي : بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله : «ولا يعصينك في معروف» قال : هو ما فرض الله عليهن من الصلاة و الزكاة وما أمرهن به من خير .

أقول : و الرواية تشهد بأن ما ورد في الروايات من تفسير المعروف بمثل قوله : لا تظلمن خدأ الخ و في بعضها أن لا تتبرجن تبرج الجاهلية الأولى من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .



﴿سورة الصف مدنية وهي أربع عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لَنَا نَبِيُّ رَسُولُ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)
وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي
اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ
نُورِهِ وَتُؤْكِرُهُ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) .

﴿بيان﴾

السورة ترغّب المؤمنين و تحرّضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله و يقاتلوا أعداء
دينه ، و تنبّؤهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن

يُطْفِؤُهُ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مَتَمِّمُهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَ مَظْهَرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

وَأَنَّ هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي آمَنُوا بِهِ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ ، وَ بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَى إِسْرَائِيلَ .

فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَشُدُّوا الْعَزْمَ عَلَى طَاعَتِهِ وَ امْتِثَالِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ وَ نَصْرَةِ اللَّهِ فِي دِينِهِ حَتَّى يَسْعُدَهُمُ اللَّهُ فِي آخِرَتِهِمْ وَ يَنْصُرَهُمْ وَ يَفْتَحَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَ يُؤَيِّدَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ .

وَعَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَقُولُوا مَا لَا يَفْعَلُونَ وَلَا يَنْكُصُوا فِيمَا يَعِدُونَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ مَقْتًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَ إِذْنَاءَ الرَّسُولِ وَ فِيهِ خَطَرٌ أَنْ يَزِيغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا آذَوْهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

و السورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»
تقدم تفسيره ، و افتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون
و إنذارهم بمقت الله و إزاعته قلوب الفاسقين .

قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ» «لَمْ، مُخَفَّفٌ لِمَا ،
و «مَا» استفهامية ، و اللام للتعليل ، و الكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على
قولهم ما لا يفعلون ولا يصفى إلى قول بعض المفسرين: أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْمُنَافِقُونَ
و التوبيخ لهم دون المؤمنين لجلالة قدرهم .

و ذلك لوفور الايات المتضمنة لتوبيخهم و معاتبهم و خاصة في الآيات النازلة
في الغزوات و ما يلحق بها كأحد و الأحزاب و حنين و صلح الحديبية و تبوك و الا نفاق
في سبيل الله و غير ذلك ، و الصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفساً و جلاً و اقدرأ
بالترية الالهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات و العتابات المتوجهة إليهم تدريجاً
و لم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم .

و مورد التوبيخ و إن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول و خلف

الوعد و نقض العهد وهو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن و هو النفاق لكن سياق الآيات و فيها قوله : « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** » وما سيأتي من قوله : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ يَفِيدُ أَنْ مُتَعَلِّقُ التَّوْبِيخِ كَانَ هُوَ تَخَلَّفَ بَعْضُهُمْ عَمَّا وَعَدَهُ مِنَ الثَّبَاتِ فِي الْقِتَالِ وَ عَدَمِ الْإِنْهَازِ وَ الْفِرَارِ أَوْ تَنَاقُلِهِمْ أَوْ تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ أَوْ عَدَمِ الْإِنْفَاقِ فِي تَجَهُّزِ أَنْفُسِهِمْ أَوْ تَجَهُّزِ غَيْرِهِمْ .** **قَوْلُهُ تَعَالَى :** « **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** » المقت البغض الشديد ، و الآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول ما لا يفعله لأنَّه من النفاق ، و أن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأوَّل من النفاق و الثاني من ضعف الإرادة و هُن العزم و هو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإنَّ الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير و إكتساب الحسنة من طريق الاختيار و مفتاحه العزم والإرادة ، ولاتأثير إلا للراسخ من العزم و الإرادة ، و تخلف الفعل عن القول معلول و هُن العزم و ضعف الإرادة و لا يرجى للإنسان مع ذلك خير ولا سعادة .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** » كأنَّهم بنيان مرصوص ، الصف جعل الأشياء على خطٍّ مستو كالنَّاس و الأشجار . كذا قاله الراغب ، وهو مصدر بمعنى إسم الفاعل و لذا لم يجمع ، وهو حال من ضمير الفاعل في « **يُقَاتِلُونَ** » و المعنى يُقَاتِلُونَ في سبيله حال كونهم صافين .

و البنيان هو البناء ، و المرصوص من الرصاص ، و المراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام .

و الآية تعلل خصوص المورد - و هو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا - بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون ، وذلك أنَّ الله سبحانه إذا أحبَّ الذين يُقَاتِلُونَ فيلزمون مكانهم ولا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يشتبوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّي رَسُولُ**

الله إليكم» الخ في الآية إشارة إلى إيذاء بني إسرائيل رسولهم موسى ﷺ و لجأهم حتى آل إلى إزاعة الله قلوبهم . وفي ذلك نهى إلزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله ﷺ فيؤل أمرهم إلى ما آل إليه أمر قوم موسى من إزاعة القلوب و قد قال تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة و أعد لهم عذابا مهينا » الأحزاب : ٥٧ .

و الآية بما فيها من النهي الإلزامي في معنى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا و كان عند الله وحيها يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا » الأحزاب : ٧٠ .

و سياق الآيتين و ذكر تبرئة موسى ﷺ يدل على أن المراد بإيذاؤه بما برأه الله منه ليس معصيتهم لأوامره و خروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه ﷺ و قالوا فيه ما فيه عار و شين فتأذى فبرأه الله مما قالوا و نسبوا إليه ، و قوله في الآية التالية : « اتقوا الله و قولوا قولا سديدا » يؤيد هذا الذي ذكرناه .

و يؤيد ذلك إشارته تعالى إلى بعض مصاديق إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل في قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه و لكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا و لا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي - إلى أن قال - وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب - إلى أن قال - و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما » الأحزاب : ٥٣ .

فتحصل أن في قوله : « و إن قال موسى لقومه الخ تلويحا إلى النهي عن إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفا و إنذارا أنه فسق ربما أدى إلى إزاعته تعالى قلب من تلبس به .

و قوله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » الزينج الميل عن الاستقامة و لازمه الانحراف عن الحق إلى الباطل .

و إزاعته تعالى إمساك رحمته و قطع هدايته عنهم كما يفيد التعليل بقوله : « إن

الله لا يهدي القوم الفاسقين » حيث علل الإزاعة بعدم الهداية ، وهي إزاعة على سبيل المجازاة و تثبيت الزينغ الذي تلبسوا به أو لا بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى : « يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً و ما يضل به إلا الفاسقين » البقرة : ٢٦ ، و ليس بإزاعة بدئية و إضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى .

و من هنا يظهر فساد ما قيل : إنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله : « أزاع الله قلوبهم » الإزاعة عن الإيمان لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيع أحداً عن الإيمان ، و أيضا كون المراد به الإزاعة عن الإيمان يخرج الكلام عن الفائدة لأنهم إذا زاعوا عن الإيمان فقد صاروا كفاراً فلا معنى لقوله : أزاعهم الله عن الإيمان .

وجه الفساد أن قوله : « لا يجوز له تعالى أن يزيع أحداً عن الإيمان » ممنوع بإطلاقه فإن الملاك فيه لزوم الظلم و إنما يلزم فيما كان من الإزاعة و الإضلال ابتدائياً و أما ما كان على سبيل المجازاة و حقيقة إمساك الرحمة و قطع الهداية لتسبب العبد لذلك بفسقه و إعراضه عن الرحمة و الهداية فلا دليل على منعه لاعتقلا و لا نقلا .

و أما قوله : « إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة » فيدفعه أن الذي ينسب من الزينغ إلى العبد و يحصل معه الكفر تحقق ماله بالفسق و الذي ينسب إليه تعالى تثبيت الزينغ في قلب العبد و الطبع عليه به فزيع العبد عن الإيمان بسبب فسقه و حصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزينغ و الكفر في قلبه على سبيل المجازاة .

قوله تعالى : « و إذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية و التي قبلها و الآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي ﷺ رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره الكافرون من أهل الكتاب ، و ما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفئوه بأفواههم و الله متم نوره و لو كره المشركون .

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه ﷺ و هم يعلمون أنه رسول الله إليهم ، و أن ينصروه و يجاهدوا في سبيل ربهم لا إحياء دينه و نشر كلمته .

و من ذلك يعلم أن قوله : « و إذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل الخ كالنوطنة لما سيذكر من كون النبي ﷺ رسولا مبشراً به من قبل أرسله الله بالهدى و دين الحق و دينه نوره تعالى يهتدي به الناس .

و الذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم ﷺ أعني قوله : « يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداً لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ملخص دعوته و قد آذن بأصل دعوته بقوله : « إني رسول الله إليكم » فأشار إلى أنه لاشأن له إلا أنه حامل رسالة من الله إليهم ، ثم بين متن ما أرسل إليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله : « مصداً لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول الخ . فقله : « مصداً لما بين يدي من التوراة » بيان أن دعوته لاتغايردين التوراة و لا تناقض شريعتها بل تصدقها و لم تنسخ من أحكامها إلا يسيراً و النسخ بيان انتهاء أمد الحكم و ليس با بطل ، و لذا جمع ﷺ بين تصديق التوراة و نسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله : « و مصداً لما بين يدي من التوراة و لأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم » آل عمران : ٥٠ ، و لم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي : « قد جئكم بالحكمة و لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله و أطيعون » الزخرف : ٦٣ .

و قوله : « و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته ﷺ و قد أشار إلى الشطر الأول بقوله : « مصداً لما بين يدي من التوراة » . و من المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر و يفرحه و لا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه و يعود إليه ، و الخير المترقب من بعثة النبي و دعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم و عقابهم من عقيدة حقّة أو عمل صالح أو كليهما ، و البشرى بالنبي بعد النبي و بالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها و الدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور و تقضي الأزمنة و اختلاف الأيام و الليالي - إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشمل عليه من العقائد الحقّة و الشرائع المعدّة لأعمال المجتمع و أشمل لسعادة الإنسان في

دنياه و عقباه .

و بهذا البيان يظهر أن معنى قوله ﷺ : « و مبشراً برسول يأتي من بعدي » الخ يفيد كون ما أني به النبي أحمد ﷺ أرقى و أكمل مما تضمنته التوراة و بعث به عيسى ﷺ و هو ﷺ متوسط رابط بين الدعوتين .

و يعود معنى كلامه : « إني رسول الله إليكم مصداً » الخ إلى أنني رسول من الله إليكم أدعو إلى شريعة التوراة ومنهاجها - و لأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم - وهي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد .

و هو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو إليها الإسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة و خاصة ما يندب إليه من التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي يتبني عليه كل حكم و يعود إليه كل من المعارف الحقيقية و قد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب .

و كذا الشرائع و القوانين العملية التي لم تدع شيئاً مما دق و جل من أعمال الإنسان الفردية و الاجتماعية إلا عدّته وحدّته حدوده وقرّنه على أساس التوحيد و وجهته إلى غرض السعادة .

و إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : «الذين يتبعون النبي الأُمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحلّ لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم» الأعراف : ١٥٧ ، و آيات أخرى يصف القرآن .

و الآية أعني قوله : « و مبشراً برسول يأتي من بعدي » و إن كانت مصرحة بالبشارة لكنّها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه ﷺ غير أن آية الأعراف المنقولة آنفاً : « يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل » و كذا قوله في صفة النبي ﷺ : « ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل » الآية الفتح : ٢٩ ، يدلّان على ذلك .

و قوله : « اسمه أحمد » دلالة السياق على تعبير عيسى ﷺ عنه ﷺ بأحمد و على كونه اسماً له يعرف به عند الناس كما كان يسمّى بمحمد ظاهرة لاسترة عليها .

و يدلّ عليه قول حسّان :

صلّى الإله و من يحفّ بعرشه
و من أشعار أبي طالب قوله :

و قالوا لأحمد أنت امرء
ألا إن أحمد قد جاءهم

و قوله مخاطباً للعبّاس و حمزة و جعفر و عليّ يوصيهم بنصر النبي ﷺ :

كونوا فدى لكم أمّى و ما ولدت
و من شعره فيه عليه السلام و قد سمّاه باسمه الآخر محمد :

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً
نبياً كموسى خطّ في أوّل الكتب

و استفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به عليه السلام في الكتب السماوية

التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذلك .

و يؤيّدّه أيضاً إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود و النصارى و فيهم قوم
من علمائهم كعبدالله بن سلام و غيره و قد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي
تذكر البشارة به عليه السلام و ذكره في التوراة و الإنجيل فتلقّوه بالقبول و لم يكذبوه و لا
أظهروا فيه شيئاً من الشكّ و التردد .

وأما خلوّ الأنجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى عليه السلام بما فيها من الصراحة
فالقرآن - و هو آية معجزة باقية - في غنى عن تصديقها ، و قد تقدّم البحث عن سندها
و اعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب .

و قوله : « فلمّا جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » ضمير « جاء » لأحمد -
صلّى الله عليه وآله ، و ضمير « هم » لبني إسرائيل أولهم و لغيرهم ، والمراد بالبينات البشارة
و معجزة القرآن و سائر آيات النبوة .

و المعنى فلمّا جاء أحمد المبشّر به بني إسرائيل أو أتاهم و غيرهم بالآيات
البيّنة التي منها بشارة عيسى عليه السلام قالوا هذا سحر مبين ، و قرىء هذا ساحر مبين .
وقيل : ضمير « جاء » لعيسى عليه السلام ، و السياق لا يلائمه .

قوله تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب و هو يدعى إلى الإسلام»
 الخ الاستفهام للإِنْكار و هو ردّ لقولهم : «هذا سحر مبين» فإنّ معناه أنّ النبي ﷺ
 ليس برسول و أنّ ما بَلّغه من دين الله ليس منه تعالى .

و المراد بالإسلام الدين الذي يدعو إليه رسول الله بما أنّه تسليم لله فيما يريد
 و يأمر به من اعتقاد و عمل ، ولا ريب أنّ مقتضى ربوبيّته و ألوهيّته تعالى تسليم عباده
 له تسليمًا مطلقًا فلا ريب أنّ الدين الذي هو الإسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان
 به فدعوى أنّه باطل ليس من الله افتراء على الله .

و من هنا يظهر أنّ قوله : «و هو يدعى إلى الإسلام» يتضمّن الحجّة على كون
 قولهم : «هذا سحر مبين» افتراء على الله .

و الافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلماً و ينهى عنه الشرع و يعظم الظلم
 بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على
 الله الكذب .

و المعنى و لا أظلم ممن افترى على الله الكذب - بنفي نسبة دين الله إليه - و
 الحال أنّه يدعى إلى دين الإسلام الذي لا يتضمّن إلّا التسليم لله فيما أراد ولا ريب أنّه
 من الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

قوله تعالى : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » الخ إطفاء النور إبطاله و
 إذهاب شروقه ، وإطفاء النور بالأفواه إنّما هو بالنفخ بها .

و قد وقعت الآية في سورة التوبة و فيها : « يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم »
 قال الراغب : قال تعالى : « يريدون أن يطفؤا نور الله » « يريدون ليطفؤا نور الله » و
 الفرق بين الموضعين أنّ في قوله : « يريدون أن يطفؤا » يقصدون إطفاء نور الله ، و في
 قوله : « ليطفؤا » يقصدون أمراً يتوصلون به إلى إطفاء نور الله انتهى ، ومحصّله أنّ متعلّق
 الإرادة في قوله : « يريدون أن يطفؤا نور الله » نفس الإطفاء ، و في قوله : « يريدون
 ليطفؤا نور الله » السبب الموصل إلى الإطفاء و هو النفخ بالأفواه و الإطفاء غرض
 و غاية .

و الآية و ما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر و عدم هدايته تعالى لهم بما أنتم ظالمون ، و المحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم إلى مقصدهم بل يتم نوره و يظهر دينه على الدين كله .

فقوله : «يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم» أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله و هو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فم فرموه بالسحر و انقطاع نسبه إلى الله .

و قد أخطأوا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ و قد شاء أن يتمه و لو كره الكافرون و الله بالغ أمره ، وهو قوله : «و الله متم نوره ولو كره الكافرون» .

قوله تعالى : «هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» الإضافة في «دين الحق» بيانية كما قيل ، و الظاهر أنها في الأصل إضافة لامية بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق و الباطل ديناً يقتضيه و يختص به ، و قد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق - و هو الحق تعالى - فأرسل رسوله .

و إظهار شيء على غيره نصرته و تغليب عليه ، والمراد بالدين كله كل سبيل مسلوك غير سبيل الله الذي هو الإسلام و الآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة : «و الله متم نوره» و المعنى والله متم نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى و دين الحق ليجعله غالباً على جميع الأديان و لو كره المشركون من أهل الأوثان .

و يستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله : «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» الآية النور : ٣٥ و قد تقدم في تفسير الآية .



(بحث روائی) ❁

في تفسير القمي في قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانُوا»
بنيان مرصوص، قال : يصطفون كالبنيان الذي لا يزول .

و في المجمع في قوله تعالى : «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا حَيَاةَ لَهُمْ وَلَا إِلَهَ بَعْدَهُ وَتَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ الْأَوَّلِينَ » روي في قصة فارون أنه دس إليه امرأة و زعم أنه زنى بها ، و رموه بقتل هارون .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : «و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» الآية قال : وسأل بعض اليهود لعنهم الله رسول الله ﷺ : لم سميت أحمد ومجداً وبشيراً ونذيراً ؟ فقال : أما محمد فأنمي في الأرض محمود ، وأما أحمد فأنمي في السماء أحمد مني في الأرض ، وأما البشير فأبشر من أطاع الله بالجنة ، وأما النذير فأبذر من عصي الله بالنار .

وفي الدر المنثور في الآية أخرج ابن مردويه عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته و سوف أنبئكم تأويل ذلك ، أنا دعوة إبراهيم ، و بشارة عيسى قومه و رؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام .

وفي العمود بالسند إلى صفوان بن يحيى صاحب السابري قال : سألني أبو
قرّة صاحب الجائليق أن أوصله إلى الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك ، قال : أدخله
عليّ فلمّا دخل عليه قبل بساطه وقال : هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل
زماننا .

ثم قال : أصلحك الله ما تقول في فرقة ادعت دعوى فشهدت لهم فرقة أخرى معدون ؟ قال : الدعوى لهم ، قال : فادعت فرقة أخرى فلم يجدوا شهوداً من غيرهم ؟ قال : لا شيء لهم .

قال : فإنا نحن أديننا أن عيسى روح الله و كلمته فوافقنا على ذلك

المسلمون ، و ادعى المسلمون أن محمدًا نبيًا فلم نتابعهم عليه ، و ما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه .

فقال أبو الحسن عليه السلام : ما اسمك ؟ قال : يوحنا قال : يا يوحنا إنا آمننا بعيسى روح الله و كلمته الذي كان يؤمن بمحمد و يبشر به و يقر على نفسه أنه عبد مروب فان كان عيسى الذي هو عندك روح الله و كلمته ليس هو الذي آمن بمحمد و بشر به و لا هو الذي أقر الله بالعبودية فنحن منه براء فأين اجتمعنا ؟ فقام و قال لصفوان بن يحيى : قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس .

اقول : كأنه يريد بقوله : « قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس » أن دخوله عليه السلام لم يفده فائدة حيث لم ينجح ما أتى به من الحجّة .

و في كمال الدين با سنده إلى يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان بين عيسى و محمد صلى الله عليه وسلم عليهما خمس مائة عام منها مائتان و خمسون عاما ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر ، قلت : فما كانوا ؟ قال : كانوا متمسكين بدين عيسى عليه السلام ، قلت : فما كانوا ؟ قال : كانوا مؤمنين . ثم قال : ولا يكون إلا و فيها عالم .

اقول : المراد بالعالم الإمام الذي هو الحجّة ، و هناك روايات واردة في قوله تعالى : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم » ، و قوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق » تذكر أن النور و الهدى و دين الحق ولاية أمير المؤمنين عليه السلام و هي من الجري و التطبيق أو من البطن و ليست بمفسرة ، و عد الفصل بين المسيح و بين محمد عليه السلام خمس مائة عام يخالف ما عليه مشهور التاريخ لكن المحققين ذكروا أن في التاريخ الميلادي اختلالا و قد مرّت إشارة ما إلى ذلك في الجزء الثالث من الكتاب .



* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تَوْفُونُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يَدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) .

﴿بيان﴾

دعوة للمؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله و وعد جميل بالمغفرة و الجنة في الآخرة و النصر و الفتح في الدنيا ، و دعوة لهم إلى أن يثبتوا على نصرهم لله و وعد جميل بالتأييد .

و المعنيان هما الغرض الأقصى في السورة و الآيات السابقة كالتوطئة و التمهيد بالنسبة إليهما .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ

أليم، الاستفهام للعرض و هو في معنى الأمر .

والتجارة - على ما ذكره الراغب - التصرف في رأس المال طلباً للربح ، ولا يوجد في كلام العرب تاء بعده جيم إلا هذه اللفظة .

فقد أخذ الإيمان والجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس وربحها النجاة من عذاب أليم ، والآية في معنى قوله : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - إلى أن قال - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » النبوة : ١١١ .

و قد فحّم تعالى أمر هذه التجارة حيث قال : « على تجارة » أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن ، وجعل الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره .

و مصداق هذه النجاة الموعودة المغفرة والجنة ، ولذا بدل ثانياً النجاة من العذاب من قوله : « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنّات » الخ ، وأما النصر والفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة ، ولذا فصلهما عن المغفرة والجنة فقال : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » فلا تغفل .

قوله تعالى : «تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» الخ استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ فقيل : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون » الخ ، وقد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلا فلا إيمان إلا بعد إيماننا بالله إلا مع الإيمان برسالة الرسول قال تعالى : إن الذين يكفرون بالله ورسوله يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله - إلى أن قال - أولئك هم الكافرون حقاً » النساء : ١٥١ .

و قوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم . وقيل : المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم أهل العلم والفقه .

قوله تعالى : « يغفر لكم ذنوبكم و يدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار »
 الخ جواب للشرط المقدّم المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله و رسوله و تجاهدوا
 في سبيله يغفر لكم ، الخ .

وقد أُلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب و الاعتبار يساعده
 إن هذه المغفرة مقدّمة الدخول في جنّة الخلد و لامعنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب
 على حاله ، و لعلّه للإشارة إلى هذه النكتة عقّبها بقوله : « و مساكن طيبة في جنّات
 عدن » أي جنّات ثبات و استقرار فكونها محلّ ثبات و موضع قرار يلوّح أن المغفرة
 تتعلق بجميع الذنوب .

مضافاً إلى ما فيه من مقابلة النفس المبدولة و هي متاع قليل معجّل بجنّات عدن
 التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن و تقوى إرادته لبذل النفس و تضحياتها واختيار
 البقاء على الفناء .

ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله : « ذلك الفوز العظيم » .

قوله تعالى : « و أخرى تحبونها نصر من الله و فتح قريب » الخ عطف على
 قوله : « يغفر لكم » الخ و « أخرى » وصف قائم مقام الموصوف و هو خير لمبتدئ محذوف ،
 و قوله : « نصر من الله و فتح قريب » بيان لأخرى ، والتقدير ولكم نعمة أو خلة أخرى
 تحبونها و هي نصر من الله و فتح قريب عاجل .

و قوله : « و بشر المؤمنين » معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنّه
 قيل : قل يا أيّها الذين آمنوا هل أدلكم » الخ و بشر المؤمنين .

و تحاذي هذه البشري ما في قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم
 بأن لهم الجنّة - إلى أن قال - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » التوبة : ١١١ ، و
 به يظهر أن الذي أمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة و
 الدنيا لا خصوص النصر و الفتح .

هذا كلّ ما يعطيه السياق في معنى الآية و إعراب أجزائها ، و قد ذكر فيها أمور

أُخْرَى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها ، واحتمل أن يكون قوله :
« و بشر » الخ استثناء .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ » الخ أي اتسموا بهذه
السمّة ودوموا و اثبتوا عليها فالآية في معنى الترقّي بالنسبة إلى قوله السابق : « هل
أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » و مآل المعنى اتجروا بأنفسكم و أموالكم
فانصروا الله بالإيمان والجهاد في سبيله ودوموا و اثبتوا على نصره .
و المراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيّه في سلوك السبيل الذي يسلكه إلى الله
على بصيرة كما قال : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني »
يوسف : ١٠٨ .

و الدليل على هذا المعنى تنظيره تعالى قوله : « كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ » بقوله بعده :
« كما قال عيسى بن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار
الله » فكون الحواريّين أنصار الله معناه كونهم أنصاراً لعيسى بن مريم عليه السلام في سلوكه
سبيل الله و توجّهه إلى الله و هو التوحيد و إخلاص العبادة لله سبحانه فمحاذاة قولهم :
« نحن أنصار الله » لقوله : « من أنصاري إلى الله » و مطابقته له تقتضي اتحاد معنى الكلمتين
بحسب المراد فكون هؤلاء المخاطبين بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ »
أنصاراً لله معناه كونهم أنصاراً للنبي صلّى الله عليه وآله في نشر الدعوة و إعلاء كلمة الحق بالجهاد ،
و هو الإيمان بالنبي صلّى الله عليه وآله و طاعته فيما يأمر وينهى عن قول جازم و عمل صادق - كما
هو مؤدّى سياق آيات السورة .

و قوله : فَأَمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ و كفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على
عدوّهم فأصبحوا ظاهرين « إشارة إلى ما جرى عليه و انتهى إليه أمر استنصار عيسى
و تلبية الحواريّين حيث تفرق الناس إلى طائفة مؤمنة و أخرى كافرة فأيد الله المؤمنين
على عدوّهم و هم الكفّار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين .

و فيه تلويح إلى أن أمة النبي صلّى الله عليه وآله يجري فيهم ما جرى في أمة عيسى عليه السلام

تؤمن منهم طائفة وتكفر طائفة فإن أجاب المؤمنون استنصاره - وقد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاماً لأمره وإعزازاً له - أيدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى والمؤمنون به .

وقد أشار تعالى إلى هذه القصة في آخر قصص عيسى عليه السلام من سورة آل عمران حيث قال : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » آل عمران : ٥٢ إلى تمام ست آيات و بالتدبر فيها يتضح معنى الآية المبحوث عنها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » فقالوا : لو نعلم ماهي لنبدلن فيه الأموال والأفانفس والأولاد فقال الله : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم - إلى قوله - ذلك الفوز العظيم .

اقول : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفيه في قوله تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » يعني في الدنيا بفتح القائم عليه السلام ، وأيضاً قال : فتح مكة .

و في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه و متعلم على سبيل نجاة أولئك هم الأقلون عدداً ، و قد بين الله ذلك من أمم الأنبياء ، و جعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله في حواريتي عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل : « من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمناً بالله و اشهد بأننا مسلمون » يعني مسلمون لأهل الفضل فضلهم و لا يستكبرون عن أمر ربهم فما أجابه منهم إلا الحواريون .

اقول : الرواية وإن وردت في تفسير آية آل عمران لكنّها مفيدة فيما نحن فيه .

و في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق و ابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر و بن حزم قال : قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لاقوه بالعقبة : أخرجوا إليّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم .



﴿سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ
رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا
بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا
يَتَمَنَوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) .

﴿بيان﴾

غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب
أمرها فهي من شعائر الله المعظمة التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أخريهم و
دنياهم ، وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيح و الثناء عليه بما من

على قوم اُمّيين برسول منهم اُمّي يتلو عليهم آياته و يزكّيهم بالصالحات الأعمال و الزاكيات من الأُخلاق و يعلمهم الكتاب و الحكمة فيحملهم كتاب الله و معارف دينه أحسن التحميل هم و من يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل ، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حملوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها و أحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفارا .

ثم تخلص إلى الأمر بترك البيع و السعي إلى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، و قرّعهم على ترك النبي ﷺ قائماً يخطب و الانفضاض و الانسلاخ إلى التجارة و اللهو ، و ذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله و أحكامه ، و السورة مدنيّة .

قوله تعالى : « يسبح لله في السماوات و ما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » التسبيح تنزيه الشيء و نسبته إلى الطهارة و النزاهة من العيوب و النقائص ، و التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار ، و الملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع ، و القدوس مبالغة في القدس و هو النزاهة و الطهارة ، و العزيز هو الذي لا يغلبه غالب ، و الحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف .

و في الآية توطئة و تمهيد برهاني لما يتضمّنه قوله : « هو الذي بعث » الخ من بعثة الرسول لتكميل الناس و إعادتهم و هدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين .

و ذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية و الأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممّه و الحاجة التي هو قاضيها فما من نقيصة أو حاجة إلا و هو المرجو في تمامها و قضائها فهو المسبّح المنزه عن كل نقص و حاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء ، و في نظام التشريع في عباده بما أراد كيف لا ؟ و هو ملك له أن يحكم في أهل مملكته و عليهم أن يطيعوه .

و إذا حكم و شرّع بينهم ديناً لم يكن ذلك منه حاجة إلى تعبيدهم و نقص فيه يتمّمه بعبادتهم لأنّه قدّوس منزّه عن كل نقص و حاجة .

ثم إذا حكم و شرّع و بلغه إيتاهم عن غنى منه و دعاهم إليه بواسطة رسله فلم

يستجيبوا دعوته وتمرّ دوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزاً منهم له تعالى لأنّه العزيز لا يغلبه فيما يريد غلب .

ثمّ إنّ الذي حكم به وشرّعه من الدّين بما أنّه الملك القدّوس العزيز ليس يذهب لغى لا أثر له لأنّه حكيم على الإِطلاق لا يفعل ما يفعل إلّا لمصلحة ولا يريد منهم ما يريد إلّا لنفع يعود إليهم وخير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم وأخراهم .

وبالجملة فتشريعه الدين وإنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته، ويزكيهم ويعلمهم منّ منه تعالى وفضل كما قال : « هو الذي بعث النّح .

قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأمّيين رسولا منهم » النّح الأمّيون جمع أمّي وهو الذي لا يقرء ولا يكتب ، والمراد بهم - كما قيل - العرب لقلة من كان منهم يقرء و يكتب وقد كان الرسول ﷺ منهم أي من جنسهم وهو غير كونه مرسلًا إليهم فقد كان منهم وكان مرسلًا إلى الناس كافّة .

واحتمل أن يكون المراد بالأمّيين غير أهل الكتاب كما قال اليهود - على ما حكى الله عنهم - : « ليس علينا في الأمّيين سبيل » آل عمران : ٧٥ .

وفيه أنّه لا يناسب قوله في ذيل الآية : « يتلو عليهم آياته » النّح فإنّه ﷺ لم يخصّ غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه إليهم .

واحتمل أن يكون المراد بالأمّيين أهل مكّة لكونهم يسمّونها أمّ القرى . وفيه أنّه لا يناسب كون السورة مدنيّة لا يهامه كون ضمير « يزكيهم ويعلمهم » راجعا إلى المهاجرين ومن أسلم من أهل مكّة بعد الفتح وأخلافهم وهو بعيد من مذاق القرآن .

ولا منافاة بين كونه ﷺ من الأمّيين مبعوثا فيهم وبين كونه مبعوثا إليهم وإلى غيرهم وهو ظاهر ، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتاب والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أوّل مراحل دعوته ولذا لما استقرّت الدعوة بعض الاستقرار أخذ صلى الله عليه وآله وسلم يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك .

وكذا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على ما حكى الله تعالى : « ربّنا واجعلنا

مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك - إلى أن قال - ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم « البقرة: ١٢٩ تشمل جميع آل إسماعيل من عرب مضراعهم من أهل مكة وغيرهم ، ولا ينافي كونه ﷺ مبعوثا إليهم وإلى غيرهم .

وقوله : « يتلو عليهم آياته » أي آيات كتابه مع كونه أمياً . صفة للرسول .
وقوله : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلزم الخير والبركة فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحا بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسايتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء .

وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك ، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها - كما قيل-

وقد قدم التزكية ههنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم عليه السلام لأن هذه الآية تصف تربيته ﷺ لمؤمني أمته ، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقّة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم عليه السلام فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذرّيته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة ، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقيق والانصاف من الزكاة الراجعة إلى الأعمال والأخلاق .

وقوله : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » « إن » مخففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال مبين ، والآية تحميد بعد تسبيح ومسوقة للامتنان كما سيأتي .

قوله تعالى « و آخرين منهم لمنا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » عطف على الأميين و ضمير « منهم » راجع إليهم و « من » للتبويض والمعنى بعث في الأميين و في آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي

لا يبلغوا ولا يجازف في فعله .

قوله تعالى : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » الإشارة بذلك إلى بعث الرسول ﷺ - وقد فُتِحَ أمره بالإشارة البعيدة - فهو والله ﷻ المخصوص بالفضل ، والمعنى ذلك البعث و كونه يتلو آيات الله و يزكي الناس و يعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله وعطاؤه يعطيه من تعلقت به مشيئته وقد شاء أن يعطيه محمدًا ﷺ والله ذو الفضل العظيم كذا قال المفسرون .

و من الممكن أن تكون الإشارة بذلك إلى البعث بماله من النسبة إلى أطرافه من المرسل والمرسل إليهم ، والمعنى ذلك البعث من فضل الله يؤتيه من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمدًا ﷺ فاختاره رسولاً ، وأُمِّته فاختارهم لذلك فجعله منهم وأرسله إليهم .

والآية والآيتان قبلها أعني قوله : « هو الذي بعث - إلى قوله - العظيم » مسوقة سوق الامتنان .

قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الخ قال الراغب : السفر - بالفتح فالسكون - كشف الغطاء و يختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه - إلى أن قال - والسفر - بالكسر فالسكون - الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا » انتهى .

والمراد بتحميل التوراة تعليمها ، والمراد بحملها العمل بها على ما يؤيد به السياق ويشهد به ما في ذيل الآية من قوله : « بشئ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » ، والمراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى ﷺ فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائع فتركوها ولم يعملوا بها فحملوها و لم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفارا وهو لا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها .

و وجه اتصال الآية بما قبلها أنه تعالى لما افتتح الكلام بما من به على المسلمين

من بعث نبيّ "أُمِّي" من بين "الْأُمِّيِّينَ" يتلو عليهم آيات كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى ومن حضيض الجهل إلى أوج العلم والحكمة وسيشير تعالى في آخر السورة إشارة عتاب وتوبيخ إلى ما صنعوه من الانفضاض والانسلال إلى اللهو والتجارة والنبي "ﷺ" قائم يخطبهم يوم الجمعة وهو من الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزّلوها منزلتها .

فاعترض الله سبحانه بهذا المثل وذكرهم بحال اليهود حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كالحمار يحمل أسفاراً ولا ينتفع بما فيها من المعرفة والحكمة ، فعليهم أن يهتموا بأمر الدين ويراقبوا الله في حركانهم وسكانهم ويعظموا رسوله "ﷺ" ويوقروه ولا يستهينوا بما جاء به ، وليحذروا أن يحل بهم من سخطة تعالى ما حل باليهود حيث لم يعملوا بما علموا فعدّهم الله جهلة ظالمين وشبّهم بالحمار يحمل أسفاراً .

وفي روح المعاني : وجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعت به في التورات وعلى السنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل : هو الذي بعث المبشّر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي "الْأُمِّي" المبعوث إلى أمة "أُمِّيِّينَ" ، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار . انتهى . وأنت خير بأنّه تحكّم لا دليل عليه من جهة السياق .

قوله تعالى : « قل يا أيّها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين » احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحبّاءه ، وقد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاءه » المائدة : ١٨ ، وقوله : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس » البقرة : ٩٢ ، وقوله : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » البقرة : ١١١ .

وحصل المعنى قل لليهود مخاطباً لهم يا أيّها الذين تهوّدوا إن كنتم اعتقدتم

أنكم أولياء لله من دون الناس إن كنتم صادقين في دعوكم فتمتوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه ومن أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها إلا الموت أحب الموت وتمنى أن يحل به فيدخل دار الكرامة ويتخلص من هذه الحياة الدنية التي ما فيها إلا الهم والغم والمحنة والمصيبة .

قيل : وفي قوله : أولياء لله من غير إضافة إشارة إلى أنه دعوى منهم من غير حقيقة .

قوله تعالى : « ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » أخبر تعالى نبيه ﷺ أنهم لا يتمنونه أبدا بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمنى الموت . وقد علل عدم تمنى الموت بما قدمت أيديهم وهو كناية عن الظلم والفسوق فمعنى الآية ولا يتمنون الموت أبدا بسبب ما قدمت أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة .

والآيتان في معنى قوله تعالى : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمتوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » البقرة : ٩٥ .

قوله تعالى : « قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملائكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » الفاء في قوله : « فإنّه ملائكم » في معنى جواب الشرط ، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنّه سيلاقهم لا محالة ثم تردّون إلى ربهم الذي خرجوا من زي عبوديته بمظالمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنّه عالم الغيب والشهادة فينبئهم بحقيقة أعمالهم وتبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب .

ففي الآية إيذانهم أو لا أن فرارهم من الموت خطأ منهم فإنّه سيدركهم ويلاقهم و ثانيا أن كراهتهم لقاء الله خطأ آخر فإنّهم مردودون إليه محاسبون على أعمالهم السيئة ، وثالثا أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها ولا يحيق به

مكرهم فإنه عالم الغيب والشهادة .

ففي الآية إشارة أو لا إلى أن الموت حق مقضى كما قال : « كل نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ وقال : « نحن قد رنا بينكم الموت وما نحن به مسبوقين » الواقعة : ٦٠ .

و ثانياً أن الرجوع إلى الله لحساب الأعمال حق لا ريب فيه .

و ثالثاً أنهم سيوقفون على حقيقة أعمالهم فيوقفونها .

ورابعاً أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وللاشارة إلى ذلك بدل اسم الجلالة من قوله : « عالم الغيب والشهادة » .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم » عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسول فنسبهم الله إلى الأميين . وفيه في قوله تعالى : « و آخرين منهم لمنا يلحقوا بهم » قال : دخلوا الإسلام بعدهم .

وفي المجمع وروي أن النبي صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية فقبل له : من هؤلاء ؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال : لو كان الإيمان بالثريا لثالثه رجال من هؤلاء .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من جوامع الحديث منها صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وفيه فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال : والذي نفسي بيده لو كان العلم بالثريا لثالثه رجال من هؤلاء .

و روي أيضا عن سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لو أن الإيمان بالثريا لثالثه رجال من أهل فارس .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها »

كمثل الحمار ، قال : الحمار يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها ولا يعمل به كذلك بنو - إسرائيل قد حملوا مثل الحمار لا يعلمون ما فيه ولا يعملون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا والذي يقول له : أنصت ليس له جمعة .

أقول : وفيه تأكيد لما قد مناه في وجه اتصال الآية بما قبلها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « قل يا أيها الذين هادوا ، الآية قال : إن في التوراة مكتوب : أولياء الله يمتنون الموت .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء رجل إلى أبي ذر فقال : يا أباذر ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمرتم الدنيا وخرتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب .

﴿ كلام في معنى تعليم الحكمة ﴾

لا محيص للإنسان في حياته المحدودة التي يعمرها في هذه النشأة من سنة يستن بها فيما يريد ويكره ، ويجري عليها في حركانه وسكناته وبالجملة جميع مساعيه في الحياة .

وتتبع هذه السنة في نوعها ما عند الإنسان من الرأي في حقيقة الكون العام وحقيقة نفسه وما بينهما من الربط ، ويدل على ذلك ما نجد من اختلاف السنن والطرائق في الأمم باختلاف آرائهم في حقيقة نشأة الوجود والإنسان الذي هو جزء منها .

فمن لا يرى لما وراء المادة وجوداً ، ويقصر الوجود في المادي ، وينتهي الوجود إلى الانتفاك ، و يرى الإنسان مركباً مادياً محدود الحياة بين التولد والموت لا يرى لنفسه من السعادة إلا سعادة المادة ولا غاية له في أعماله إلا المزايا المادية من مال وولد

وجاء وغير ذلك ، ولا بغية له إلا التمتع بأمّعة الدنيا والظفر بلذائذها المادّية أو ما يرجع إليها وتنتهي جميعاً إلى الموت الذي هو عنده انحلال للتركيب و بطلان .
و من يرى كينونة العالم عن سبب فوقه منزّه عن المادّة ، وأن وراء الدارداراً و بعد الدنيا آخره نجده يخالف في سنته و طريقته الطائفة المتقدّم ذكرها فيتوخى في أعماله وراء سعادة الدنيا سعادة الأخرى و يختلف صور أعمالهم و غاياتهم و آراؤهم مع الطائفة الأولى .

و يختلف سنن هؤلاء باختلافهم أنفسهم فيما بينهم كاختلاف سنن الوثنيين من البرهميين والبوذيين وغيرهم والملّيين من المجوسيّة والكليميّة والمسيحيّة والمسلمين فللكل وجهة هو مولّيا .

و بالجملة الملّكي يراعي في مساعيه جانب ما يراه لنفسه من الحياة الخالدة المؤبّدة و يذعن من الآراء بما يناسب ذلك كدّعائه أنّه يجب على الإنسان أن يمهد لعالم البقاء وأن يتوجّه إلى ربّه ، وأن لا يفرط في الاشتغال بعرض الحياة الدنيا الفانية وغير الملّكي الخاضع للمادّة يلوي إلى خلاف ذلك ، هذا كلّ ممّا لا ريب فيه .

غير أن الإنسان لمّا كان بحسب طبعه المادّي رهيناً للمادّة متردّاً بين الأسباب الظاهريّة فاعلاً بها منفعلاً عنها لا يزال يدفعه سبب إلى سبب لافراغ له من ذلك ، يرى - بحسب ما يخيّل إليه - أن الأصالة لحياته الدنيويّة المنقطعة ، وأنّها و ما ينتهي إليه من المقاصد والمزايا هي الغاية الأخيرة والغرض الأقصى من وجوده الذي يجب عليه أن يسعى لتحصيل سعادته .

فالحياة الدنيا هي الحياة و ما عند أهلها من القنيّة والنعمة والمنية والقوّة والعزّة هي هي بحقيقة معنى الكلمة ، و ما يعدّونه فقراً ونقمة و حرماناً و ضعفاً وذلك ورزيّة و مصيبة و خسراناً هي هي و بالجملة كلّ ما تهواه النفس من خير معجّل أو نفع مقطوع فهو عندهم خير مطلق و نفع مطلق ، و كلّ ما لا تهواه فهو شرّ أوضر .
فمن كان منهم من غير أهل الملّة جرى على هذه الآراء ولا خبر عنده عمّا وراء ذلك ، و من كان منهم من أهل الملّة جرى عليها عملاً و هو معترف بخلافها قولاً فلا يزال

في تدافع بين قوله و فعله قال تعالى : « كلما أضاء لهم مشوا فيه و إذا أظلم عليهم قاموا » البقرة : ٢٠ .

والذي تنذب إليه الدعوة الإسلامية من الاعتقاد والعمل هو ما يطابق مقتضى الفطرة الإنسانية التي فطر عليها الإنسان و تثبت عليه خلقته كما قال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : ٣٠ .

و من المعلوم أن الفطرة لا تهتدي علماً ولا تميل عملاً إلا إلى ما فيه كما لها الواقعي و سعادتها الحقيقية فما تهتدي إليه من الاعتقادات الأصلية في المبدء والمعاد وما يتفرع عليها من الآراء والعقائد الفرعية علوم و آراء حقة لا تتعدى سعادة الإنسان و كذا ما تميل إليه من الأعمال .

و لذا سمى الله تعالى هذا الدين المبني على الفطرة بدين الحق في مواضع من كلامه كقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق » الصف : ٩ . و قال في القرآن المتضمن لدعوته : « يهدي إلى الحق » الأحقاف : ٣٠ .

و ليس الحق إلا الرأي والاعتقاد الذي يطابقه الواقع و يلزمه الرشد من غير غي ، و هذا هو الحكمة - الرأي الذي أحكم في صدقه فلا يتخلله كذب ، و في نفعه فلا يعقبه ضرر - و قد أشار تعالى إلى اشتغال الدعوة على الحكمة بقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » النساء : ١١٣ و وصف كلامه المنزل به فقال : « والقرآن الحكيم » يس : ٢ ، و عد رسول الله ﷺ معلماً للحكمة في مواضع من كلامه كقوله : « و يعلمهم الكتاب والحكمة » الجمعة : ٢ .

فالتعليم القرآني الذي تصداه الرسول ﷺ المبين لما نزل من عند الله من تعليم الحكمة و شأنه بيان ما هو الحق في أصول الاعتقادات الباطلة الخرافية التي دبّت في أفهام الناس من تصور عالم الوجود و حقيقة الإنسان الذي هو جزء منه - كما تقدّمت الإشارة إليه - و ما هو الحق في الاعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الأصول مما كان مبدء للأعمال الإنسانية و عناوين لغاياتها و مقاصدها .

فالناس - مثلاً - يرون أن الأصلة لحياتهم المادية حتى قال قائلهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الجائبة : ٢٤ ، والقرآن ينبئهم بقوله : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » العنكبوت : ٦٤ ، و يرون أن العلل والأسباب الحاكمة فيها من حياة وموت وصحة ومرض وغنى وفقر ونعمة ونقمة ورزق وحرمان « بل مكر الليل والنهار » سبأ : ٣٣ والقرآن يذكرهم بقوله : « ألا له الخلق والأمر » الأعراف : ٥٤ وقوله : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٦٧ وغير ذلك من آيات الحكمة ، و يرون أن لهم الاستقلال في المشيئة يفعلون ما يشاؤون والقرآن يخطبهم بقوله : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٣٠ ، و يرون أن لهم أن يطيعوا ويعصوا ويهدوا ويهتدوا والقرآن ينبئهم بقوله : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » القصص : ٥٦ .

و يرون أن لهم قوة والقرآن ينكر ذلك بقوله : « أن القوة لله جميعا » البقرة : ١٦٥ . و يرون أن لهم عزة بمال وبنين وأنصار والقرآن يحكم بخلافه بقوله : « أيبستون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » النساء : ١٣٩ . وقوله : « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٦٣ .

و يرون أن القتل في سبيل الله موت وانعدام والقرآن يعدّ حياة إذ يقول : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » البقرة : ١٥٤ إلى غير ذلك من التعاليم القرآنية التي أمر النبي ﷺ أن يدعو بها الناس قال : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة » النحل : ١٢٥ .

وهي علوم وآراء جمّة صورت الحياة الدنيا خلافها في نفوس الناس وزينته فنبّه تعالى لها في كتابه وأمر بتعليمها رسوله وندب المؤمنين أن يتواصوا بها كما قال « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق » العصر : ٣ وقال : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الأبواب » البقرة : ٢٦٩ .

فالقرآن بالحقيقة يقلب الإنسان في قالب من حيث العلم والعمل حديث ويصوغه صوغاً جديداً فيحيى حياة لا يتعقبها موت أبداً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ وقوله : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

وقد بيننا وجه الحكمة في كل من آياتها عند التعرض لتفسيرها على قدر مجال البحث في الكتاب .

ومما تقدم يتبين فساد قول من قال : إن تفسير القرآن تلاوته ، وإن التعمق في مداليل آيات القرآن من التأويل الممنوع فما أبعد من قول .



* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا
إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١).

﴿بيان﴾

تأكيد إيجاب صلاة الجمعة وتحريم البيع عند حضورها وفيها عتاب لمن انفض
إلى اللهو والتجارة عند ذلك واستهجان لفعلهم .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » الخ المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في
قوله : « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا » المائدة : ٥٨ .

والجمعة بضمّتين أو بالضمّ فالسكون أحد أيام الأسبوع و كان يسمّى أوّل
يوم العروبة ثمّ غلب عليه اسم الجمعة ، والمراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة
المشرّعة يومها ، والسعي هو المشي بالإسراع ، والمراد بذكر الله الصلاة كما في قوله :
« وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ » العنكبوت : ٣٥ على ما قيل وقيل : المراد به الخطبة قبل الصلاة
وقوله : « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أمر بتركه ، والمراد به على ما يفيد السياق النهي عن الاشتغال

بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان يبيعاً أو غيره وإنما علق النهى بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة .

والمعنى يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاة الجمعة يومها فجدوا في المشي إلى الصلاة واركبوا البيع وكل ما يشغلكم عنها .

وقوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » حث و تحريض لهم لما أمر به من الصلاة و ترك البيع .

قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » الخ المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة ، والانتشار في الأرض التفرق فيها ، وابتغاء فضل الله طلب الرزق نظراً إلى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة ، و على هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع والشرى ، و طلب ثوابه بعبادة مريض والسعي في حاجة مسلم و زيارة أخ في الله ، و حضور مجلس علم و نحو ذلك .

وقوله : « فانتشروا في الأرض » أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز والاباحة دون الوجوب و كذا قوله : « وابتغوا » واذكروا .

وقوله : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلباً بالتوجه إليه باطنا ، والفلاح النجاة من كل شقاء وهو في المورد بالنظر إلى ما تقدم من حديث التزكية والتعليم و ما في الآية التالية من التوبيخ والعتاب الشديد ، الزكاة والعلم و ذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس و انتقاشه في الذهن فتقطع به منابت الغفلة و يورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » آل عمران : ٢٠٠ .

قوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها و تركوك قائما » الخ الانفضاض - على ما ذكره الراغب - استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء وتفرق بعضه من بعض .

و قد اتفقت روايات الشيعة و أهل السنة على أنه ورد المدينة غير معها تجارة

و ذلك يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب ف ضربوا بالطليل والدف لاعلام الناس فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبي ﷺ قائما يخطب فنزلت الآية . فالمراد باللّهو استعمال المعازف وآلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة ، و ضمير « إليها » راجع إلى التجارة لأنها كانت المقصودة في نفسها واللّهو مقصود لأجلها ، و قيل : الضمير لأحدهما كأنه قيل : انفضوا إليه و انفضوا إليها و ذلك أن كلا منهما سبب لانفضاض الناس إليه و تجمّعهم عليه ، و لذا ردّد بينهما و قال : « تجارة أو لهو » ولم يقل : تجارة و لهو والضمير يصلح للرجوع إلى كل منهما لأن اللّهو في الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير والتأنيث .

و لذا أيضاً عدّ « ما عند الله » خيراً من كل منهما بحياله فقال : « من اللّهو و من التجارة » ولم يقل : من اللّهو والتجارة .

و قوله : « قل ما عند الله خير من اللّهو و من التجارة والله خير الرازقين » أمر للنبي أن ينبّههم على خطيئهم فيما فعلوا - وما أفطعه - والمراد بما عند الله الثواب الذي يستعقبه سماع الخطبة والموعظة .

و المعنى قل لهم : ما عند الله من الثواب خير من اللّهو و من التجارة لأن ثوابه تعالى خير حقيقي دائم غير منقطع ، و ما في اللّهو والتجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل و ربّما استتبع سخطه تعالى كما في اللّهو .

و قيل : خير مستعمل في الآية مجرّداً عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : « أرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار » يوسف : ٣٩ و هو شائع في الاستعمال . و في الآية أعني قوله : « و إذا رأوا » التفات من الخطاب إلى الغيبة ، و النكتة فيه تأكيد ما يفيد السياق من العتاب واستهجان الفعل بالإعراض عن تشریفهم بالخطاب و تركهم في مقام الغيبة لا يواجههم ربّهم بوجه الكريم .

و يلوح إلى هذا الإعراض قوله : « قل ما عند الله خير » حيث لم يشر إلى من يقول له ، ولم يقل : قل لهم كما ذكرهم بضميرهم أو لا من غير سبق مرجعه فقال : « و إذا رأوا » و اكتفى بدلالة السياق .

و خير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزاق وقد تقدم الكلام في معنى الرزق فيما تقدم .

﴿بحث روائى﴾

في الفقيه روي أنه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن يوم الجمعة نادى مناد : حرّم البيع لقول الله عزّ وجلّ : « يا أيّها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن ميمون بن مهران و لفظه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق : حرّم البيع حرّم البيع .

و تفسير القميّ و قوله : « فاسعوا إلى ذكر الله » قال : الإسراع في المشى ، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقال : فاسعوا أي امضوا ، و يقال : اسعوا اعملوا لها و هو قصّ الشارب و نتف الإبط و تقليم الأظفار والغسل و لبس أنظف الثياب والتطيّب للجمعة فهو السعي يقول الله : « و من أراد الآخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن » .

أقول : يريد أن السعي ليس هو الإسراع في المشى فحسب .

و في المجمع و روى أنس عن النبي ﷺ قال في قوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » الآية ليس بطلب الدنيا و لكن عيادة مريض و حضور جنازة و زيارة أخ في الله .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن ابن جرير عن أنس عن النبي ﷺ و عن ابن مردويه عن ابن عباس عنه عليه السلام .

و فيه و روي عن أبي عبد الله عليه السلام : أنه قال : الصلاة يوم الجمعة والانتشار يوم السبت .

أقول : و في هذا المعنى روايات أخر .

وفيه و روى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنني لأركب في الحاجة ألتى كفها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال أما تسمع قول الله عز اسمه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ؟ أرايت لو أن رجلا دخل بيتاً وطيس عليه بابه ثم قال : رزقي ينزل علي أكان يكون هذا ؟ أما إنه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم .

قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له لأن عصمتها في يده لو شاء أن يخلّي سبيلها ، والرجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجحد حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به ، والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته فلا ينتشر ولا يطلب ولا يلتمس حتى يأكله ثم يدعو فلا يستجاب له .

وفيه قال جابر بن عبد الله : أقبل غير ونحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله فأنفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً أنا فيهم فنزلت الآية « وإذا رأوا تجارة أو لهوا » .

وعن عوالي اللثالي روى مقاتل بن سليمان قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة إذا قدم دحية الكلبي من الشام بتجارة ، وكان إذا قدم لم يبق في المدينة عاتق^(١) إلا أنه ، و كان يقدم - إذا قدم - بكل ما يحتاج إليه الناس من دقيق و بر وغيره ثم ضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج الناس فيبتاعون منه .

فقدم ذات جمعة ، و كان قبل أن يسلم ، و رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب على المنبر فخرج الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر فقال النبي صلى الله عليه وآله : لو لا هؤلاء اسوأت عليهم الحجارة من السماء و أنزل الله الآية في سورة الجمعة .

اقول : والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق الشيعة و أهل السنة و اختلفت الأخبار في عدد من بقي منهم في المسجد بين سبعة إلى أربعين .

وفيه « انفضوا » أي تفرقوا ، و روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : انصرفوا

(١) العاتق الجارية أوائل ما أدركت .

إليها و تركوك قائما تخطب على المنبر .

قال جابر بن سمرة : ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب إلا وهو قائم فمن حدثك أنه خطب وهو جالس فكذب به .

اقول : وهو مروي أيضاً في روايات أخرى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال : خطب رسول الله ﷺ قائما و ابوبكر و عمر و عثمان ، و إن أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان .



﴿سورة المنافقون مدنية وهي إحدى عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)
 اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَءٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنْبَى يُؤَفِّكَونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْزَ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨).

﴿بيان﴾

تصف السورة المنافقين وتسمهم بشدة العداوة وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم وتعظ المؤمنين أن يتحذروا من خصائص النفاق فلا يقعوا في مهلكته ولا يجرهم إلى

النار ؛ والسورة مدنية .

قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » المنافق اسم فاعل من النفاق وهو في عرف القرآن إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق وربما اعتبرت مطابقة الخبر ولا مطابقته بالنسبة إلى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقاً منه وعدم مطابقته له كذباً فيقال : فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج و فلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده و يسمى النوع الأول صدقاً وكذباً خبريين ، والثاني صدقاً وكذباً مخبريين .

فقوله : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيماناً بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله ويتضمن الإيمان بواحدانيته تعالى وبالمعاد ، وهو الإيمان الكامل .

و قوله : « والله يعلم إنك لرسوله » تثبت منه تعالى لرسالته ﷺ ، وإنما أورده مع أن وحى القرآن ومخاطبته ﷺ كان كافياً في تثبيت رسالته ، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقاً فهم كاذبون في قولهم كذباً مخبرياً لا خبرياً فقوله : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » أريد به الكذب المخبري لا الخبري .

قوله تعالى : « اتّخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله » الخ الإيمان جمع يمين بمعنى القسم ، والجنة الترس والمراد بها ما يتقى به من باب الاستعارة ، والصد يجهىء بمعنى الإعراض وعليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله وهو الدين وبمعنى الصرف وعليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين وهم في وقاية من أيمانهم الكاذبة .

والمعنى اتّخذوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل

الله ودينه - أو فصرفوا العامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الأمور و إفساد العزائم .

وقوله : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تفبيح لأعمالهم التي استمرّوا عليها منذ نافقوا إلى حين نزول السورة .

قوله تعالى : « ذاك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »
الظاهر أن الإشارة بذلك إلى سوء ما عملوا كما قيل ، وقيل : الإشارة إلى جميع ما تقدم من كذبهم واستجنانهم بالإيمان الفاجرة وصدّهم عن سبيل الله و هساة أعمالهم .

والمراد بأيمانهم - على ما قيل - أيماهم بألسنتهم ظاهرا بشهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون » البقرة : ١٤ .

ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتدّ وكتّم ارتداده فلهحق بالمنافقين يتربص بالنبي ﷺ و بالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه » التوبة : ٧٧ و قد عبّر تعالى عمّن لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله : « وكفروا بعد إسلامهم » التوبة : ٧٤ .

فالظاهر أن المراد بقوله : « آمنوا ثم كفروا » إظهارهم للشهادتين أعمّ من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين وردّ بعض الأحكام .

وقوله : « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » تفريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آس من الإيمان محروم من الحق .

والطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى

كما قال تعالى : « طبع الله على قلوبهم و اتبعوا أهواءهم » سورة محمد : ١٦ ، فلا يفقه ولا يسمع ولا يعلم كما قال تعالى : « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » التوبة : ٨٧ ، وقال : « و طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » الأعراف : ١٠٠ ، وقال : « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » التوبة : ٩٣ والطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلا مجازاة لآفته إضلال والذي ينسب إليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي وقد مرّ مراراً .

قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » الخ الظاهر أن الخطاب في « رأيتم » و « تسمع » خطاب عام يشمل كل من رآهم و سمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة و بلاغة من الكلام ، و ليس خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ ، والمراد أنهم على صباحة من المنظر و تناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبه أجسامهم ، وفصاحة و بلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره و حسن نظمه .

وقوله : « كأنهم خشب مسندة » ذم لهم بحسب باطنهم والخشب بضمّتين جمع خشبة ، والتسديد نصب الشيء معتمداً على شيء آخر كحائط و نحوه .
والجملة مسوقة لذمهم وهي متممة لسابقتها ، والمراد أن لهم أجساماً حسنة معجبة و قولاً رائعاً ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعتريها لكونهم لا يفقهون .

وقوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » ذم آخر لهم أي إنهم لا يبطّونهم الكفر و كتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف و وجل و وحشة يخافون ظهور أمرهم و اطلاع الناس على باطنهم و يظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم و أنهم المقصودون بها .

وقوله : « هم العدو فاحذرهم » أي هم كاملون في العداوة بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك .

وقوله : « قاتلهم الله أتى يؤفكون » دعاء عليهم بالقتل و هو أشدّ شذائد الدنيا

و كأن استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة .

وقيل : المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة ، وقيل : المراد به الإخبار دون الدعاء والمعنى أن شمول اللعن والطرد لهم مقرر ثابت ، وقيل : الكلمة مفيدة للتعجب كما يقال : قاتله الله ما أشعره ، والظاهر من السياق ما تقدم من الوجه .
وقوله : « أننى يؤفكون » مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق ؟ وقيل : هو توبيخ و تريع وليس باستفهام .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لو رؤسهم » الخ التلوية تفعل من لوى يلوي لياً بمعنى مال .

والمعنى وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله - وذلك عند ما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم - أما لو رؤسهم إعراضاً واستكباراً و رأيهم الرائي يعرضون عن القائل و هم مستكبرون عن إجابة قوله .

قوله تعالى : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » الخ أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم و تساوى الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه فالمعنى لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم .

وقوله : « لن يغفر الله لهم » دفع دخل كأن سائلاً يسأل : لماذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه ؟ فأجيب : لن يغفر الله لهم .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » تعليل لقوله : « لن يغفر الله لهم » والمعنى لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هداية لهم إلى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لإبطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين .

قوله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » الخ الانفضاض النفر ، والمعنى المنافقون هم الذين يقولون : لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى ينفروا عنه فلا يتحكم علينا .

وقوله : « و لله خزائن السماوات والأرض » جواب عن قولهم : لا تنفقوا الخ أي إن الدين دين الله ولا حاجة له إلى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها و يرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنّه تعالى يختار ما هو الأصح فيمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجراً كريماً ويهديهم صراطاً مستقيماً والمنافقون في جهل من ذلك .

وهذا معنى قوله : « و لكن المنافقين لا يفقهون » أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك ، و احتمال أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على أولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقاً يرزقهم .

قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ولله العزة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون » القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول ، و كذا قائل الجملة السابقة : لا تنفقوا الخ و إنما عبر بصيغة الجمع تشريفاً لأصحابه الراضين بقوله معه .

و مراده بالأعز نفسه و بالأذل رسول الله ﷺ و يريد بهذا القول تهديد النبي ﷺ بإخراجه من المدينة بعد المراجعة إليها وقد رد الله عليه و على من يشاركه في نفاقه بقوله : « ولله العزة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون » فقصر العزة في نفسه و رسوله و المؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذلّة و نفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذلّة والجهالة .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق و أصحابه و ذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن بنى المصطلق يجتمعون لحربه و قائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو - جويرية زوج النبي ﷺ .

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونزل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم .
 فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه و سنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني " يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري " يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له : جعال وكان فقيرا فقال عبد الله بن أبي " لجعال : إنك لتهتك فقال : و ما يمعني أن أفعل ذلك ؟ واشتد لسان جعال على عبد الله . فقال عبد الله : و الذي يحلف به لأزرتك و يهتك غير هذا .

و غضب ابن أبي " وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن " فقال ابن أبي " قد نافرونا و كاثرونا في بلادنا ، والله ما مثلنا و مثلهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعر منها الأذل يعني بالأعر نفسه و بالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما جعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم و قاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم و لا وشكوا أن يتجولوا من بلادكم و يلحقوا بعشائركم و مواليهم .

فقال زيد بن أرقم : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك و محمد ﷺ في عز من الرحمن و مودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب .

فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ و ذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل و أرسل إلى عبد الله فأتاه فقال : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ فقال عبد الله والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك قط و إن زيدا لكاذب ، و قال من حضر من الأنصار : يا رسول الله شيخنا و كبيرنا لا تصدق عليه كلام

غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه .
فعدّره رسول الله ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد .

ولما استقل رسول الله ﷺ فسار لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحيةة النبوة
ثم قال : يا رسول الله لقد رحمت في ساعة منكرا ما كنت تروح فيها فقال رسول الله
صلى الله عليه وآله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة
أخرج الأعرز منها الأذل . فقال أسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت .
هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك و
إن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه وإنه يرى أنك قد استلبته ملكا .

و بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ
فقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به
فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإنني
أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن
يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : بل ترفق به وتحسن
صحبته ما بقي معنا .

قالوا : و سار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى و ليلتهم حتى
أصبح و صدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا
مس الأرض وقعوا نياماً ، إنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من
عبد الله بن أبي .

ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال له : بقعاء
فهاجت ريح شديدة آذتهم و نخو فوها و ضلّت ناقة رسول الله ﷺ و ذلك ليلا فقال:
مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة قيل : من هو ؟ قال : رفاعة . فقال رجل من
المنافقين : كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي ؟
فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق و بمكان الناقة ، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك أصحابه
و قال : ما أزعج أني أعلم الغيب و ما أعلمه و لكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق و

بمكان ناقتي . هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها وآمن ذلك المنافق .

فلما قدموا المدينة وجدوا رفاة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع و كان من عظماء اليهود مات ذلك اليوم .

قال زيد بن أرقم : فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقون في تصديق زيد و تكذيب عبد الله بن أبي . ثم أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قال : يا غلام صدق فوك ، ووعت أذنك ، و وعى قلبك ، و قد أنزل الله فيما قلت قرآنا .

و كان عبد الله بن أبي يقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي حتى أناخ على مجامع طرق المدينة فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تدخلها إلا بأذن رسول الله ﷺ و لتعلمن اليوم من الأعز ؟ و من الأذل ؟ فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن خل عنه يدخل فقال : أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياماً قللاً حتى اشتكى و مات .

فلما نزلت هذه الآيات و بان كذب عبد الله قيل له : نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوئى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت و أمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزل « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لو رؤيتم - إلى قوله - لا يعلمون » .

اقول : ما أورده من القصة مأخوذ من روايات مختلفة مروية عن زيد بن أرقم و ابن عباس و عكرمة و محمد بن سيرين و ابن إسحاق و غيرهم دخل حديث بعضهم في بعض .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون » الآية قال : قال : نزلت في غزوة المريسيع و هي غزوة بنى المصطلق في سنة خمس من الهجرة ، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله خرج إليها فلما رجع منها نزل على بئر و كان الماء قليلاً فيها . و كان أنس بن سيار حليف الأنصار ، و كان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيراً لعمر بن الخطاب فاجتمعوا على البئر فتعلق دلو سيار بدلو جهجاه فقال سيار : دلوي

وقال جهجاه : دلوي فضرب جهجاه على وجه سيّار فسال منه الدم فنأدى سيّار بالخزرج و نادى جهجاه بقریش و أخذ الناس السلاح و كاد أن تقع الفتنة .

فسمع عبدالله بن أبي النداء فقال : ما هذا ؟ فأخبروه بالخبر فغضب غضباً شديداً ثم قال : قد كنت كارهاً لهذا المسير إني لأذلّ العرب ما ظننت أني أبقي إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندي تغيير .

ثم أقبل على أصحابه فقال : هذا عملكم أنزلتموهم منازلكم وواسيتموهم بأموالكم ووقيتموهم بأنفسكم وأبرزتم زحوركم للقتل فأرمل نساؤكم وأيتم صبيانكم و لو أخرجتموهم لكانوا عيالا على غيركم . ثم قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذلّ .

و كان في القوم زيد بن أرقم و كان غلاماً قد راهق ، و كان رسول الله ﷺ في ظلّ شجرة في وقت الهجرة و عنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأعرار فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي فقال رسول الله ﷺ : لعلك وهمت يا غلام قال : لا والله ما وهمت . قال : فلعلك غضبت عليه ؟ قال : لا والله ما غضبت عليه ، قال : فلعلك سفته عليك فقال : لا والله .

فقال رسول الله ﷺ لشقران مولاه : أخرج فأحرج راحلتك وركب و تسامع الناس بذلك فقالوا : ما كان رسول الله ﷺ ليرحل في مثل هذا الوقت فرحل الناس و لحقه سعد بن عبادة فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله و بركانه فقال : و عليك السلام فقال : ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت فقال : أو ما سمعت قولاً قال صاحبكم ؟ قال : وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذلّ فقال : يا رسول الله فإنك و أصحابك الأعرز وهو و أصحابه الأذلّ .

فسار رسول الله ﷺ يومه كله لا يكلمه أحد فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي يعدلونه فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئاً من ذلك فقالوا : فقم بنا إلى رسول الله حتى يعتذر إليه فلوّى عنقه .

فلما جن الليل سار رسول الله ﷺ ليله كله فلم يزلوا إلا للصلاة فلما كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه وقد أمهدهم ^(١) الأرض من السفر الذي أصابهم فجاء عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فحلف عبد الله له أنه لم يقل ذلك ، وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله وإن زيدا قد كذب علي فقبل رسول الله ﷺ منه وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون له : كذبت على عبد الله سيدنا .

فلما رحل رسول الله ﷺ كان زيد معه يقول : اللهم إنك لتعلم أنني لم أكذب على عبد الله بن أبي فما سار إلا قليلا حتى أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء ^(٢) عند نزول الوحي فثقل حتى كادت تافته أن تبرك من ثقل الوحي فسري عن رسول الله ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه من الرحل ثم قال : يا غلام صدق قولك وعي قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآنا .

فلما نزل جمع أصحابه و قرء عليهم سورة المنافقين : « بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاءك المنافقون - إلى قوله - ولكن المنافقين لا يعلمون » فضح الله عبد الله بن أبي .

وفي تفسير القمي أيضا في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : كأنهم خشب مسندة ، يقول : لا يسمعون ولا يعقلون « يحسبون كل صيحة عليهم » يعني كل صوت « هم العدو » فاحذرهم قاتلهم الله أنتمي يؤفكون .

فلما أنبأ الله رسوله خبرهم مشي إليهم عشائهم وقالوا افتضحتم وبلكم فأتوا رسول الله ﷺ يستغفر لكم فلووا رؤسهم وزهدوا في الاستغفار يقول الله : « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لووا رؤسهم وأرأيهم يصدون وهم مستكبرون » .

وفي الكافي بإسناده إلى سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى

(١) أمهدهم الأرض أي سارت لهم مهادا فناموا .

(٢) البرحاء حالة شبه الأغماء كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله عند نزول الوحي .

فَوْضَ إِلَى الْمُؤْمِنِ أُمُورَهُ كُلَّهَا ، وَلَمْ يَفَوْضْ إِلَيْهِ أَنْ يَذُلَّ نَفْسَهُ أَلَمْ تَرَ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَهُنَا «لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا وَلَا يَكُونَ ذَلِيلًا .

اقول : و روى هذا المعنى بإسناده عن داود الرقي والحسن الأحمسي وبطريق آخر عن سماعة .

وفيه بإسناده عن مفضل بن عمر قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قلت : بما يذل نفسه ؟ قال : يدخل فيما يعتذر منه .

﴿ كلام حول النفاق في صدر الاسلام ﴾

يهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً ويكرر عليهم كرامة عنيقة بذكر مساوي أخلاقهم وأكاذيبهم وخدائهم و دسائسهم والفتن التي أقاموها على النبي صلى الله عليه وآله وعلى المسلمين ، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأفقال والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتحريم .

وقد أوعدهم الله في كلامه أشد الوعيد ففي الدنيا بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهب نورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وفي الآخرة بجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

وليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم فلم يذل المشركون واليهود والنصارى من دين الله ما نالوه ، و ناهيك فيهم قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله يشير إليهم : « هم العدو فاحذرهم » المنافقون : ٤ .

وقد ظهر آثار دسائسهم و مكائدهم أوائل ما هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة فورد ذكرهم في سورة البقرة وقد نزلت - على ما قيل - على رأس ستة أشهر من الهجرة ثم في السور الأخرى النازلة بعد بالإشارة إلى أمور من دسائسهم وفنون من مكائدهم كانسلاهم من الجند الإسلامي يوم أحد وهم ثلثهم تقريباً ، وعقدهم الحلف مع اليهود

واستنهاضهم على المسلمين و بنائهم مسجد الضرار و إشاعتهم حديث الإفك ، وإثارتهم الفتنة في قصة السقاية وقصة العقبة إلى غير ذلك مما تشير إليه الآيات حتى بلغ أمرهم في الإفساد و تقلب الأمور على النبي ﷺ إلى حيث هدم الله بمثل قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » الأحزاب : ٦١ .

وقد استفاضت الأخبار و تكاثرت في أن عبد الله بن أبي بن سلول و أصحابه من المنافقين و هم الذين كانوا يقلّبون الأمور على النبي ﷺ و يترقبون به الدوائر و كانوا معروفين عند المؤمنين يقربون من تلك القوم و هم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد فامازوا منهم و رجعوا إلى المدينة قائلين لو تعلم قتالاً لاتبعناكم و هم عبد الله ابن أبي و أصحابه .

و من هنا ذكر بعضهم أن حركة النفاق بدأت بدخول الإسلام المدينة و استمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ .

هذا ما ذكره جمع منهم لكن التدبر في حوادث زمن النبي ﷺ والإمعان في الفتن الواقعة بعد الرحلة والاعتناء بطبيعة الاجتماع الفعالة يقضي عليه بالنظر :

أما أولاً فلا دليل مقنعاً على عدم تسرب النفاق في متبعية النبي ﷺ المؤمنين بمكة قبل الهجرة ، و قول القائل : إن النبي ﷺ والمسلمين بمكة قبل الهجرة لم يكونوا من القوة و نفوذ الأمر وسعة الطول بحيث يهاجمهم الناس و يتسوقهم أو يرجوا منهم خيراً حتى يظهروا لهم الإيمان ظاهراً ويتقرّبوا منهم بالإسلام ، و هم مضطهدون مفتنون معذبون بأيدي صناديد قريش و مشركي مكة المعادين لهم المعاندين للحق بخلاف حال النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة فإنه ﷺ هاجر إليها و قد كسب أنصاراً من الأوس والخزرج واستوثق من أقوياء رجالهم أن يدفعوا عنه كما يدفعون عن أنفسهم وأهليهم ، و قد دخل الإسلام في بيوت عاقرتهم فكان مستظهِراً بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمنوا به و بقوا على شركهم و لم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم و يظهروا شركهم فتوقوا الشر بظهار الإسلام فآمنوا به ظاهراً و هم على كفرهم باطنا

فدسّوا الدسائس و مكرّوا ما مكرّوا .

غير تامّ، فما القدرة والقوّة المخالفة المهيبة و رجاء الخير بالفعل والاستدرار المعجّل علّة منحصرة للنفاق حتّى يحكم بائتفاء النفاق لا تنفائها فكثيرا ما نجد في المجتمعات رجالا يتتبعون كلّ داع و يتجمعون إلى كلّ ناعق و لا يعيؤون بمخالفة القوى المخالفة القاهرة الطاحنة ، و يعيشون على خطر مصرّين على ذلك رجاء أن يوفّقوا يوما لإجراء مرامهم و يتحكّموا على الناس باستقلالهم بإدارة رحى المجتمع والعلوّ في الأرض و قد كان النبي ﷺ يذكر في دعوته لقومه أن لو آمنوا به و اتبعوه كانوا ملوك الأرض .

فمن الجائز عقلا أن يكون بعض من آمن به يتتبعه في ظاهر دينه طمعاً في البلوغ بذلك إلى أمنيته وهي التقدّم والرئاسة والاستعلاء ، والأثر المترتب على هذا النوع من النفاق ليس هو تقلب الأمور و تربص الدوائر على الإسلام والمسلمين و إفساد المجتمع الديني بل تقويته بما أمكن و تفديته بالمال والجاه لينتظم بذلك الأمور و يتهيأ لاستفادته منه و استدراجه لنفع شخصه . نعم يمكر مثل هذا المنافق بالمخالفة والمضادة فيما إذا لاح من الدين مثلاً ما يخالف أمنيّة تقدّمه و تسلّطه إرجاعاً للأمر إلى سبيل ينتهي إلى غرضه الفاسد .

و أيضاً من الممكن أن يكون بعض المسلمين يرتاب في دينه فيرتدّ ويكتم ارتداده كما مرّت الإشارة إليه في قوله تعالى : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا » الآية و كما يظهر من لحن مثل قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم » المائدة : ٥٤ .

و أيضاً الذين آمنوا من مشركي مكّة يوم الفتح لا يؤمن أكثرهم أن لا يؤمنوا بإيمان صدق و إخلاص و من البديهيّ عند من تدبّر في حوادث سني الدعوة أن كفّار مكّة و ما والاها و خاصّة صناديد قريش ما كانوا ليؤمنوا بالنبي ﷺ لو لا سواد جنود غشيتهم و بريق سيوف مصلّنة فوق رؤسهم يوم الفتح وكيف يمكن مع ذلك القضاء بأنّه حدث في قلوبهم والظرف هذا الظرف نور الإيمان وفي نفوسهم الإخلاص واليقين فآمنوا

بالله طوعاً عن آخرهم ولم يدب فيهم ديب النفاق أصلاً .

و أما ثانياً فلأن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي ﷺ وانقطاعه عند ذلك ممنوع نعم انقطع الخبر عن المنافقين بالرحلة وانعقاد الخلافة وانمحي أثرهم فلم يظهر منهم ما كان يظهر من الآثار المضادة والمكائد والدسائس المشؤمة .

فهل كان ذلك لأن المنافقين وفقوا للإسلام وأخلصوا الإيمان عن آخرهم برحلة النبي ﷺ وتأثرت قلوبهم من موته ما لم يتأثر بحياته ؟ أو أنهم صالحوا أولياء الحكومة الإسلامية على ترك المزاحمة بأن يسمح لهم ما فيه أمنيتهم مصالحة سرية بعد الرحلة أو قبلها ؟ أو أنه وقع هناك تصالح اتفاقي بينهم وبين المسلمين فوردوا جميعاً في مشرعة سواء فارتفع التصادم والتصادم ؟

ولعل التدبير الكافي في حوادث آخر عهد النبي ﷺ والفتن الواقعة بعد رحلته يهدي إلى الحصول على جواب شاف لهذه الأسئلة .

والذي أردناه في هذا الفصل إشارة إجمالية إلى سبيل البحث .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ
فَصَدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

﴿ بيان ﴾

تنبيه للمؤمنين أن يتجنبوا عن بعض الصفات التي تورث النفاق و هو التلهي
بالمال والأولاد والبخل .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ » المخ الإلهاء الإشغال ، والمراد بالهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب
بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا قال
تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف : ٢٦ والاشتغال بها يوجب خلو
القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل و تصديق قلبي
و نسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له قال تعالى : « نسوا الله فنسيهم » التوبة :
٦٧ ، وهو الخسران المبين قال تعالى في صفة المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة
بالهدى فما ربحت تجارتهم » البقرة : ١٦ .

و إليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله : « ومن يفعل ذلك فأولئك هم
الخاسرون » .

والأصل هو نهى المؤمنين عن التلهي بالأموال والأولاد وتبديله من نهى الأموال

والأولاد عن إلهائهم للتلويح إلى أن من طبعها إلا لهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهى كنهائي أكد من التصريح .

قوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت » النخ أمر بالإففاق في البرّ أعم من الإففاق الواجب كالزكاة والكفارات أو المذنب ، و تقييده بقوله : « مما رزقناكم » للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه ، وإنما هو شيء هو معطيه لهم و رزق هو رازقه و ملك هو ملكهم إتياء من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بالإففاق شيء منه فيما يريد فله المنّة عليهم في كل حال .

وقوله : « من قبل أن يأتي أحدكم الموت » أي فينقطع أمد استطاعته من التصرف في ماله بالإففاق في سبيل الله .

وقوله : « فيقول ربّ لو لا أخرتني إلى أجل قريب » عطف على قوله : « أن يأتي » النخ و تقييد الأجل بالقرب للإشعار بأنه قانع بقليل من التمديد - وهو مقدار ما يسع الإففاق من العمر - ليسهل إجابته ، ولأنّ الأجل أياً ما كان فهو قريب ، ومن كلامه ﷺ : « كلّ ما هو آت قريب » .

وقوله : « فأصدّق و أكن من الصالحين » نصب « فأصدّق » لكونه في جواب التمتني ، و جزم « أكن » لكونه في معنى جزاء الشرط والتقدير إن أصدّق أكن من الصالحين .

قوله تعالى : « و لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » إيتاس لهم من استجابة دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله والموت بعد نزوله و ظهور آيات الآخرة ، وقد تكرر في كلامه تعالى أن الأجل المسمّى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله : « فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » يونس : ٤٩ .

وقوله : « والله خير بما تعملون » حال من ضمير « أحدكم » أو عطف على أوّل الكلام و يفيد فائدة التعليل والمعنى لا تتلهتوا وأنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يجازيكم بها .

﴿بحث روائى﴾

في الفقيه وسئل عن قول الله تعالى : « فأصدّق و أكن من الصالحين » قال :
« أصدّق » من الصدقة ، و « أكن من الصالحين » أحجّ .

أقول : الظاهر أنّ ذيل الحديث من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق .

و في المجمع عن ابن عباس قال : ما من أحد يموت و كان له مال فلم يؤدّ زكاته
و أطاق الحجّ فلم يحجّ إلا سأل الرجعة عند الموت .

قالوا : يا بن عباس اتق الله فإنّما نرى هذا الكافر يسأل الرجعة فقال : أنا أقرء
به عليكم قرآنًا ثم قرء هذه الآية - يعني قوله : « يا أيّها الذين آمنوا لا تلهكم -
إلى قوله : من الصالحين » قال : الصلاح هنا الحجّ ، و روى ذلك عن أبي عبد الله
عليه السلام .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس .
و في تفسير القميّ بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « ولن
يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها » قال : إنّ عند الله كتباً موقوفة يقدر منها ما يشاء
فإذا كان ليلة القدر أنزل الله فيها كلّ شيء يكون إلى مثلها فذلك قوله : « ولن
يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها » إذا نزله الله و كتبه كتب السماوات و هو الذي
لا يؤخّر .



﴿سورة التغابن مدنيّة وهي ثمانى عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرِهِدُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ وَرَبِّي
لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ
لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَ يَدْخُلْهُ جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) .

﴿بيانات﴾

السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها و نظم كتنظيمها كأنها مخصصة منها و غرضها تحريض المؤمنين و ترغيبهم في الإِ نفاق في سبيل الله و رفع ما يهيجس في قلوبهم و يدب في نفوسهم من الأسى و الأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإِ يمان بالله و الجهاد في سبيل الله و الإِ نفاق فيها بأن ذلك كله باذن الله .

و الآيات التي أوردناها من صدر السورة مقدمة و تمهيد لبيان الغرض المذكور تبين أن أسماء تعالى الحسنى و صفاته العليا تقضي بالبعث و رجوع الكل إليه تعالى رجوعاً يساق فيه أهل الإِ يمان و العمل الصالح إلى جنة خالدة ، و أهل الكفر و التكذيب إلى نار مؤبدة فهي تمهيد للأمر بطاعة الله و رسوله و الصبر على المصائب و الإِ نفاق في سبيل الله من غير تأثير من منع مانع و لا خوف من لومة لائم .

و السورة مدنية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يسبح لله ما في السماوات و ما في الأرض له الملك وله الحمد و هو على كل شيء قدير » تقدم الكلام في معنى التسبيح و الملك و الحمد و القدرة ، و أن المراد بما في السماوات و الأرض يشمل نفس السماوات و الأرض و من فيها و ما فيها .

و قوله : « له الملك » مطلق يفيد إطلاق الملك و عدم محدوديته بحد و لا تقيده ب قيد أو شرط فلا حكم نافذاً إلا حكمه ، و لا حكم له إلا نافذاً على ما أراد .
و كذا قوله : « وله الحمد » مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد - و الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري - إليه تعالى لأن الخلق و الأمر إليه فلا ذات ولا صفة ولا فعل جميلاً محموداً إلا منه و إليه .

و كذا قوله : « و هو على كل شيء قدير » بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير محدودة و لا مقيدة ب قيد أو شرط .

و إذ كانت الآيات - كما تقدمت الإشارة إليه - مسوقة لإثبات المعاد كانت الآيات

كالمقدمة الأولى لإثباته ، و تفيد أن الله منزّه عن كل نقص و شين في ذاته و صفاته و أفعاله يملك الحكم على كل شيء و التصرف فيه كيفما شاء و أراد ، - ولا يتصرف إلا جميلاً - و قدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإبداء - الأحداث والبقاء - فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته و لا تتعلق إلا بحكمه .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن والله بما تعملون بصير » الفاء في « فمنكم » تدل على مجرد ترتب الكفر والإيمان على الخلق فلا دلالة في التفریع على كون الكفر والإيمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين ، وإنما المراد انشعابهم فرقتين : بعضهم كافر و بعضهم مؤمن ، و قدّم ذكر الكافر لكثرة الكفار و غلبتهم .

و « من » في قوله : « فمنكم و منكم » للتبعض أي فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن .

وقد نبّه بقوله : « والله بما تعملون بصير » على أن انقسامهم قسمين و تفرقهم فرقتين حق كما ذكر ، و هم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها و باطنها والله بما يعملون بصير لا تخفى عليه ولا تشبهه .

و تتضمن الآية مقدمة أخرى لإثبات المعاد و تنجزه وهي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر والإيمان و صالح العمل و طالحه .

قوله تعالى : « خلق السماوات و الأرض بالحق و صوركم فأحسن صوركم وإليه المصير » المراد بالحق خلاف الباطل وهو خلقها من غير غاية ثابتة و غرض ثابت كما قال : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا » الأنبياء : ١٧ ، وقال : « وما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق و لكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

و قوله : « و صوركم فأحسن صوركم » المراد بالتصوير إعطاء الصورة و صورة الشيء قوامه و نحو وجوده كما قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » التين : ٤

وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها البعض والمجموع لغاية وجودها، وليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر وملاحظته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى :
« الذي أحسن كل شيء خلقه » الم السجدة: ٧ .

و لعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد على ما تقدمت الإشارة إليه .

و بهذه الآية تتم المقدمات المنتجة للزوم البعث ورجوع الخلق إليه تعالى فإنه تعالى لما كان ملكاً قادراً على الإطلاق له أن يحكم بما شاء ويتصرف كيف أراد وهو منزّه عن كل نقص وشين محمود في أفعاله ، و كان الناس مختلفين بالكفر والإيمان وهو بصير بأعمالهم ، وكانت الخلقة لغاية من غير لغو و جراف كان من الواجب أن يبعثوا بعد نشأتهم الدنيا لنشأة أخرى دائمة خالدة فيعيشوا فيها عيشة باقية على ما يقتضيه اختلافهم بالكفر والإيمان وهو الجزاء الذي يسعد به مؤمنهم و يشقى به كافرهم .

و إلى هذه النتيجة يشير بقوله : « وإليه المصير » .

قوله تعالى : « يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور » دفع شبهة المنكري المعاد مبنية على الاستبعاد وهي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات وهي فانية بائدة و حوادث العالم لا تحصى والأعمال والصفات لا تعد ، منها ظاهرة علنية ومنها باطنة سرية ومنها مشهودة ومنها مغيبة ؛ فأجيب بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .

و قوله : « والله عليم بذات الصدور » قيل : إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرون وما يعلنون والمعنى أنه تعالى محيط علماً بالمضمرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه وما تعلنونه .
و في قوله : « والله عليم » الخ وضع الظاهر موضع الضمير والأصل « وهو عليم ، الخ والنكته فيه الإشارة إلى علّة الحكم ، و ليكون ضابطاً يجرى مجرى المثل .

قوله تعالى : « ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم و لهم عذاب أليم » وبال الأمر تبعته السيئة والمراد بأمرهم كفرهم و ما تفرع عليه من فسوقهم .

لما كان مقتضى أسمائه الحسنی وصفاته العليا المعدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس و مصيرهم إلى ربهم للحساب والجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه وهو الشرع ، والطريق إلى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار والتبشير بعقاب الآخرة و ثوابها و سخطه تعالى و رضاه .

ساق تعالى الكلام بالإنذار بالإشارة إلى نبا الذين كفروا من قبل و أنهم ذاقوا وبال أمرهم و لهم في الآخرة عذاب أليم ثم انتقل إلى بيان سبب كفرهم و هو تكذيب الرسالة ثم إلى سبب ذلك و هو إنكار البعث والمعاد .

ثم استنتج من ذلك كله وجوب إيمانهم بالله و رسوله والدين الذي أنزله عليه و ختم التمهيد المذكور بالتبشير والإنذار بالإشارة إلى ماهيته للمؤمنين الصالحين من الجنة خالدة و لغيرهم من الكفار المكذبين من نار مؤبدة .

فقوله : « ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل » الخطاب للمشركين وفيه إشارة إلى قصص الأمم السالفة الهالكة كقوم نوح و عاد و ثمود وغيرهم ممن أهلكهم الله بذنوبهم ، و قوله : « فذاقوا وبال أمرهم » إشارة إلى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال و قوله : « و لهم عذاب أليم » إشارة إلى عذابهم الأخروي .

قوله تعالى : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا » الخ بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال و عذاب الآخرة ، و لذلك جيء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول : لم أصابهم ما أصابهم من العذاب ؟ ف قيل : « ذلك بأنه كانت » الخ والإشارة بذلك إلى ما ذكر من العذاب .

و في التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله : « كانت تأتيهم » الدال على

الاستمرار ، و عن كفرهم و قولهم بقوله : « فقالوا و كفروا و تولّوا » الدالّ بالمقابلة على المرّة دلالة على أنّهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها و ثبتوا عليها و هو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها و لقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » الأعراف : ١٠١ ، وقوله : « ثمّ بعثنا من بعده (أي بعد نوح) رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك يطبع الله على قلوب المعتمدين » يونس : ٧٤ .

و قوله : « فقالوا أبشر يهدونا » يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله : « يهدونا » والتنكير للتحقير ، والاستفهام للإيثار أي قالوا على سبيل الإنكار : أأحد من البشر لا فضل لهم علينا يهدونا ؟

و هذا القول منهم مبنيّ على الاستكبار ، على أن أكثر هؤلاء الأهم الهالكّة كانوا وثنيّين وهم منكرون للنبوّة و هو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء ، و لذلك فرّع تعالى على قولهم : « أبشر يهدونا » قوله : « فكفروا و تولّوا » أي بنوا عليه كفرهم و إعراضهم .

و قوله : « و استغنى الله » الاستغناء طلب الغنى و هو من الله سبحانه - وهو غنيّ بالذات - إظهار الغنى و ذلك أنّهم كانوا يرون أن لهم من العلم والقوّة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم الفناء و يضمن لهم البقاء كأنّه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم : « قال ما أظنّ أن تبید هذه أبداً » الكهف : ٣٥ ، و قال : « ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي و ما أظنّ الساعة قائمة » حم السجدة : ٥٠ .

وآل هذا الظنّ بالحقيقة إلى أن لله سبحانه حاجة إليهم و فيهم - وهو الغنيّ بالذات - فإهلاكه تعالى لهم وإفنائهم إظهار منه لغناه عن وجودهم ، وعلى هذا فالمراد بقوله : « و استغنى الله » استئصالهم المدلول عليه بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم » . على أن الإنسان معجب بنفسه بالطبع يرى أن له على الله كرامة كأنّ من

الواجب عليه أن يحسن إليه أينما كان كأنَّ لله سبحانه حاجة إلى إيساعده والإحسان إليه كما يشير إليه قوله تعالى : « وما أظنَّ الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربي إنَّ لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ ، وقوله : « وما أظنَّ الساعة قائمة و لئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً » الكهف : ٣٦ .

و مآل هذا الزعم بالحقيقة إلى أنَّ من الواجب على الله سبحانه أن يسعدهم كيفما كان كأنَّ له إليهم حاجة فإذا فقه لهم وبال أمرهم و تعذيبهم في الآخرة إظهار منه تعالى لغناه عنهم فالمراد باستغنائه تعالى عنهم مجموع ما أفيد بقوله : « فذاقوا وبال أمرهم و لهم عذاب أليم » .

فهذان وجهان في معنى قوله تعالى : « و استغنى الله » والثاني منهما أشمل ، وفي الكلمة على أيَّ حال من سطوع العظمة والقدرة ما لا يخفى ، و هو في معنى قوله : « ثمَّ أرسلنا رسلنا تترأ كلِّما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحداثاً فبعداً لقوم لا يؤمنون » المؤمنون : ٤٤ .

وقيل : المراد و استغنى الله بإقامة البرهان و إتمام الحجَّة عليهم عن الزيادة على ذلك بإرشادهم و هدايتهم إلى الإيمان .

وقيل : المراد و استغنى الله عن طاعتهم و عبادتهم أزلاً و أبداً لأنَّه غنيٌّ بالذات والوجهان كما ترى .

وقوله : « والله غنيٌّ حميد » في محلِّ التعليل لمضمون الآية ، والمعنى والله غنيٌّ في ذاته محمود فيما فعل ، فما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم و تعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم و توليهم من غناه و عدله لأنَّه مقتضى عملهم المردود إليهم .

قوله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قلوبى و ربي لتبعثنَّ ثمَّ لتنبؤنَّ بما عملتم و ذلك على الله سير » ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماويَّ بإِنْكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبنيَّ على الأمر والنهي والحساب والجزاء و يصلح تعليلاً لا إنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذٍ للتبليغ والوعيد .

والمراد بالَّذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي ﷺ منهم كأهل مكة

وما والاها ، وقيل : المراد أهل مكة خاصة .

وقوله : « قل بلى و ربّي لتبعنّ » ثمّ لتنبؤنّ بما علمتم » أمر النبي ﷺ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا ، بإثبات مانفوه بما في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون .

و « ثمّ » في « ثمّ لتنبؤنّ » للتراخي بحسب رتبة الكلام ، وفي الجملة إشارة إلى غاية البعث وهو الحساب وقوله : « وذلك على الله يسير » أي ما ذكر من البعث والانباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير ، وفيه ردّ لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعادا ، وقد عبّر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ .

والدليل عليه ماعدّه في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والملاك والعلم وأنه مسبّح محمود ، وبجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال . ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله : « وذلك على الله يسير » للإيماء إلى التعليل ، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله ، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة .

وذكروا أن الآية ثالثة الآيات التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث : إحداها قوله : « ويستنبؤنك أحقّ » هو قل أي و ربّي » يونس : ٥٣ ، والثانية قوله : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى و ربّي لتأتينكم » سبا : ٣ ، والثالثة الآية التي نحن فيها .

قوله تعالى : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير » تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما عملتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع إلى مستقيم الصراط ، ويبين شرائع الدين .

وفي قوله : « والنور الذي أنزلنا » التفات من الغيبة إلى التكلّم مع الغير ولعلّ النكتة فيه تتميم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للعدركم فرق

بين قولنا : والنور الذي أنزل وهو إخبار ، وقوله : « والنور الذي أنزلنا » ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى ، والشهادة أكد من الإخبار المجرد .

لا يقال : ما ذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجّة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور .

لأنّه يقال : كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدّي المثبتة لكونه كلام الله ، والشهادة على أي حال أكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدكلاً .

وقوله : « والله بما تعملون خبير » تذكّره بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكّد به الأمر في قوله : « فآمنوا » والمعنى آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنّه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا محالة .

قوله تعالى : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » الخ « يوم » ظرف لقوله السابق : « لتبعن ثم لتنبؤن » الخ والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » الكهف : ٩٩ وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة ، ويفسّره أمثال قوله تعالى : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ ، وقوله : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ ، وقوله : « إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » السجدة : ٢٥ فالآيات تشير إلى أن جمعهم للقضاء بينهم .

وقوله : « ذلك يوم التغابن » قال الراغب : الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . قال : ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار إليها بقوله : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله » وبقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين الآية » ، وبقوله : « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً

قليلاً ، فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة و فيما تعاطوه من ذلك جميعاً .

وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدوا الاشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا . انتهى موضع الحاجة .

وما ذكره أو لا مبنى على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة خاسرة وتركهم معاملة رابحة ، وهو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض .

وما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة ، و يؤيده مثل قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين » الم السجدة : ١٧ ، وقوله : « لهم ما يشاؤون فيها و لدينا مزيد » ق : ٣٥ ، وقوله : « و بدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » الزمر : ٤٧ .

ومقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن و كافر أمّا المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل ، و أمّا الكافر فلا أنه لم يعمل أصلاً ، والوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدرا اليوم حق قدره . و يرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه .

و هناك وجه ثالث و هو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم و تابعيهم فالمتبوعون و هم المستكبرون يغبنون تابعيهم و هم الضعفاء حيث بأمر و نهم بأخذ الدنيا و ترك الآخرة فيضلّون ، و التابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتّباعهم فيضلّون ، فكل من الفريقين غابن لغيره و مغبون من غيره .

و هناك وجه رابع وردت به الرواية وهو أن لكل عبد منزلاً في الجنة لو أطاع الله لدخله ، و منزلاً في النار لو عصى الله لدخله و يوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة ، و يعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة و هم المؤمنون غابنين لأهل النار و هم الكفار و الكفارهم المغبونون .

و قال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه : و قد فسّر التغابن قوله ذيلًا : « و من يؤمن بالله - إلى قوله - و بشئ المصير » انتهى وليس بظاهر ذاك الظهور .

و قوله : « ومن يؤمن بالله و يعمل صالحاً - إلى قوله - و بئس المصير » تقدم تفسيره مراراً .

﴿ بحث روائي ﴾

في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً . و ما من عبد يدخل النار إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة .

اقول : و في هذا المعنى روايات كثيرة من طرق العامة والخاصة و قد تقدم بعضها في تفسير أول سورة المؤمنون .

و في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء والأرض ، و يوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » و يوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار ، و يوم الحسرة يوم يؤتى بالملوت فيذبح .

اقول : و في ذيل آيات صدر السورة المبحوث عنها عدة من الروايات توجه الآيات بشؤون الولاية كالذي ورد أن الإيمان والكفر هما الإيمان والكفر بالولاية يوم أخذ الميثاق ، و ما ورد أن المراد بالبينات الأئمة ، و ما ورد أن المراد بالنور الإمام و هي جميعاً ناظرة إلى بطن الآيات وليست بمفسرة البتة .



* * *

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَأَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا
لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا
اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم و يغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ (١٧)
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

﴿بيان﴾

شروع فيما هو الغرض من السورة بعد ما مر من التمهيد والتوطئة وهو النذب
إلى الإنفاق في سبيل الله والصبر على ما يصيبهم من المصائب في خلال المجاهدة في
الله سبحانه .

وقد تم ذكر المصيبة والإشارة إلى الصبر عليها ليصفوا المقام لما سيندب إليه من
الإنفاق وينقطع العذر .

قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله و من يؤمن بالله يهد قلبه والله

بكل شيء عليم ، المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر ،
والإذن الإِعلام بالرخصة وعدم المانع و يلزم علم الآذن بما أذن فيه ، وليس هو العلم
كما قيل .

فظهر بما تقدم أو لا أن إِذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه
و بين مسببه برفع الموانع التي تتخلل بينه و بين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه
بسببته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلاً لو لا الفصل بينهما والرطوبة فرفع الفصل
بينهما والرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها
أعني الإحراق .

وقد كان استعمال الإِذن في العرف العام مختصاً بما إذا كان المأذون له من
العقلاء لمكان أخذ معنى الإِعلام في مفهومه فيقال : أذنت لفلان أن يفعل كذا ولا يقال :
أذنت للنار أن تحرق ، ولا أذنت للفرس أن يعدو ، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما
يعم العقلاء وغيرهم بالتحليل كقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإِذن الله »
النساء : ٦٤ ، وقوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإِذن ربه » الأعراف : ٥٨ ، ولا
يبعد أن يكون هذا التعميم مبنياً على ما يفيد القرآن من سريان العلم والإِدراك في
الموجودات كما قد مناه في تفسير قوله : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم
السجدة : ٢١ .

و كيف كان فلا يتم عمل من عامل ولا تأثير من مؤثر إلا بإِذن من الله سبحانه
فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فأِذنه تعالى له في
أن يؤثر رفعه الموانع ، و ما كان منها تاماً لا مانع له يمنعه فأِذنه له عدم جعله له شيئاً
من الموانع فتأثيره يصاحب الإِذن من غير انفكاك .

و ثانياً أن المصائب و هي الحوادث التي تصيب الإنسان فتؤثر فيه آثاراً سيئة
مكروهة إنما تقع بإِذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إِذنه تعالى
صدور كل أثر من كل مؤثر .

و ثالثاً أن هذا الإِذن إِذن تكويني غير الإِذن التشريعي الذي هو رفع الحظر

عن الفعل فأصابه المصيبة تصاحب إذناً من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعاً غير مأذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين .

ولذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها ولا مأذوناً في تحملها ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس .

ومن هنا يظهر أن المصائب التي ندب إلى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذبح والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها ، وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجهة إلى الأعراض فللاإنسان أن يتوقاها ما استطاع .

وقوله : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » كان ظاهر سياق قوله : « ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله » يفيد أن الله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علماً ومشيةً فليست نصيبه مصيبة إلا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقة لأرب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلا بعلم منه ومشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه . وهذه هي الحقيقة التي بينها بلسان آخر في قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » الحديد : ٢٢ .

فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواء ، والنظام الجارى في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا عن إذن منه ، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه ومشية لا يخطيء علمه ومشية ولا يرد قضاءه .

فالإنسان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرة إليها دون الله سبحانه .

وهذا معنى قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وقيل : معنى الجملة و من يؤمن بتوحيد الله و يصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حتى يقول : إنا لله و إنا إليه راجعون ؛ وفيه إدخال الصبر في معنى الإيمان .

وقيل : المعنى و من يؤمن بالله يهد قلبه إلى ما عليه أن يفعل فإن ابتلى صبر و إن أُعطى شكر و إن ظلم غفر ؛ و هذا الوجه قريب مما قدّمناه .

و قوله : « والله بكلّ شيء عليم » تأكيد للاستثناء المتقدم ، و يمكن أن يكون إشارة إلى ما يفيد قوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » الحديد : ٢٢ .

قوله تعالى : « و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » ظاهر تكرار « أطيعوا » دون أن يقال : أطيعوا الله و الرسول اختلاف المراد بالاطاعة فالمراد باطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرّعه لهم من شرائع الدين والمراد باطاعة الرسول الانقياد له وامتنال ما يأمر به بحسب ولايته للأمة على ما جعلها الله له .

و قوله : « فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » التولّى الإعراض ، و البلاغ التبليغ ، والمعنى فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرّعه من الدين أو عن إطاعة الرسول فيما أمركم به بما أنه وليّ أمركم ، فلم يكرهكم رسولنا على الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك ، و إنما أمر بالتبليغ و قد بلغ .

و من هنا يظهر أن أمر النبي ﷺ فيما وراء الأحكام و الشرائع من تبليغ رسالة الله فأمره و نهيه فيما تولّى من أمر الله و نهيه ، و طاعته فيهما من طاعة الله تعالى كما يدلّ عليه إطلاق قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ . الظاهر في أن طاعة الرسول فيما يأمر وينهى مطلقاً مأذون فيه بإذن الله ، و إذنه في طاعته يستلزم علمه و مشيئته لطاعته ، و إرادة طاعة الأمر و النهي لإرادة لنفس الأمر و النهي فأمر النبي ﷺ و نهيه من أمر الله و نهيه وإن كان فيما وراء الأحكام و الشرائع المجمولة له تعالى .

و لما تقدّم من رجوع طاعة الرسول إلى طاعة الله التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « رسولنا » وفيه مع ذلك شيء من شائبة التهديد .

قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدّم أن طاعة الرسول من طاعة الله توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الانقياد والائتمار للأمر والانتفاء عن النهي من شؤون العبوديّة حيث لا أثر لملك المولى رقة عبده إلا ما لكيّته لا إرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمل فإطاعة نحو من العبودية كما يشير إليه قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » يس : ٦٠ يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنّما أطاعوه .

فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع نوع عبادة له ، وإن لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عزّ اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى أطيعوا الله سبحانه إن لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشرکوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل .

وبما مرّ يظهر وجه تخصيص صفة الألوهيّة التي تفيد معنى المعبودية ، بالذكر دون صفة الربوبية فلم يقل : الله لا ربّ غيره .

وقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله : « الله لا إله إلا هو » .

توضيحه أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره و لازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله وفعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإنّ المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقاً لإرادة المطاع صادراً منها اعتباراً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه .

فإطاعة العبد لربه إتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة أخرى إثارة إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها

من العمل .

فطاعته تعالى فيما شرع لعباده وما يتعلّق بها نوع تعلّق من التوكّل عليه ، و طاعته واجبة لمن عرفه و آمن به فعلى الله فليتوكّل المؤمنون و إيتاه فليطيعوا ، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقّق منه طاعة .

وقد بان بما تقدّم أنّ الإيمان والعمل الصالح نوع من التوكّل على الله تعالى .
قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم و أولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم » الخ « من » في « أزواجكم » للتبعض ، و سياق الخطاب بلفظ « يا أيّها الذين آمنوا » و تعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي أنّهم يعادونهم بما أنّهم مومنون ، والعداوة من جهة الإيمان لا تتحقّق إلّا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحة كالإفلاق في سبيل الله و الهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبلخل عن الإفلاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج والغصب و اكتساب المال من غير طريق حله .

فإنّ سبحانه يعدّ بعض الأولاد والأزواج عدوّاً للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الإيمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتتراف بعض الكبائر الموبقة و ربّما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم و حبّاً لهم فأمرهم الله بالاحذر منهم .
و قوله : « و إن تعفوا و تصفحوا و تغفروا فإنّ الله غفور رحيم » قال الراغب : العفو القصد لتناول الشيء يقال : عفا و اعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده - إلى أن قال- و عفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه ، و قال : الصفح ترك التثريب و هو أبلغ من العفو ، و لذلك قال تعالى : « فاعفوا و اصفحوا حتّى يأتي الله بأمره » وقد يعفوا الإنسان ولا يصفح ، و قال : الغفر إلّباس ما يصونه عن الدنس ، و منه قيل : اغفر ثوبك في الوعاء و اصبخ ثوبك فإنّه أغفر للوسخ ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال : « غفرانك ربّنا » و مغفرة من ربّكم » و من يغفر الذنوب إلّا الله » انتهى .

ففي قوله : « فاعفوا و اصفحوا واغفروا » ندب إلى كمال الإغماض عن الأولاد

والأزواج إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكورة - مع الحذر من أن يفتتن بهم - .

وفي قوله : « فإن الله غفور رحيم » إن كان المراد خصوص مغفرته ورحمته للمخاطبين إن يعفوا ويصفحوا ويغفروا كان وعداً جميلاً لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » النور : ٢٢ .
وإن أُريد مغفرته ورحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا وصفحوا وغفروا فقد اتصفوا بصفات الله وخلقوا بأخلاقه .

قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » الفتنة ما يتبلى ويمتحن به ، وكون الأموال والبنين فتنة إنما هو لكونهما زينة الحياة تنجذب إليهما النفس انجذاباً فتفتتن وتلهو بهما عما يهتفها من أمر آخرته و طاعة ربه قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الكهف : ٤٦ .

والجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما والتفريط في جنب الله باللي إليهما و يؤكده قوله : « والله عنده أجر عظيم » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » الخ أي مبلغ استطاعتكم - على ما يفيد السياق فإن السياق سياق الدعوة والندب إلى السمع والطاعة والإفناء والمجاهدة في الله - والجملة تفريع على قوله : « إنما أموالكم » الخ فالمعنى اتقوه مبلغ استطاعتكم ولا تدعوا من الانتقاء شيئاً تسمعه طاقتكم وجهدكم فتجري الآية مجرى قوله : « اتقوا الله حق تقاته » آل عمران : ١٠٢ ، وليست الآية ناظرة إلى نفي التكليف بالانتقاء فيما وراء الاستطاعة وفوق الطاقة كما في قوله : « ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به » البقرة : ٢٨٦ .

وقد بان مما مر :

أولاً أن لا منافاة بين الآيتين أعني قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » وقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وأن الاختلاف بينهما كالاختلاف بالكمية والكيفية فقوله :

« فاتقوا الله ما استطعتم » أمر باستيعاب جميع الموارد التي تسعها الاستطاعة بالتقوى ، و قوله : « اتقوا الله حق تقاته » أمر بالتلبس في كل من موارد التقوى بحق التقوى دون شبحها و صورتها .

وثانيا فساد قول بعضهم : إن قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » ناسخ لقوله : « اتقوا الله حق تقاته » وهو ظاهر .

و قوله : « واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم » توضيح و تأكيد لقوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي ، والطاعة الانقياد و هو في مقام العمل ، والإِنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله .

و « خيراً لأنفسكم » منصوب بمحذوف - على ما في الكشف - والتقدير آمنوا خيراً لأنفسكم ، و يحتمل أن يكون « أنفقوا » مضمناً بمعنى قدّموا أو ما يقرب منه بقرينة المقام ، وفي قوله : « لأنفسكم » دون أن يقال : خير ألكم زيادة تطيب لنفوسهم أي إن الإِنفاق خير لكم لا ينتفع به إلا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعة قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم .

و قوله : « و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر .

قوله تعالى : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم و يغفر لكم والله شكور حلیم » المراد بإقراض الله الإِنفاق في سبيله سماء الله إقراضاً لله وسمى المال المنفق قرضاً حسناً حشاً و ترغيباً لهم فيه .

و قوله : « يضاعفه لكم و يغفر لكم » إشارة إلى حسن جزائه في الدنيا والآخرة . والشكور والحليم و عالم الغيب والشهادة والعزیز والحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها ، ووجه مناسبتها لما أمر به في الآية من السمع والطاعة والإِنفاق ظاهر .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمى في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم» وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا : نشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك فمنهم من يطيع أهله فيقيم فحذروهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لأنفعكم بشيء أبداً .

فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله أن يتوق بحسن وصله فقال : «وإن تغفوا تصفحوا و تغفروا فإن الله غفور رحيم» .

أقول : و روي هذا المعنى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن ابن عباس .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» عن ابن مردويه عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي أوفى عن النبي ﷺ : لكل أمة فتنة و فتنة أمتي المال .

أقول : و روى مثله أيضا عنه عن كعب بن عياض عنه عليه السلام .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق واحداً من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال : صدق الله قال : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي و نزلت إليهما .

أقول : والرواية لا تخلو من شيء وأننى تنال الفتنة من النبي ﷺ وهو سيد الأنبياء المخلصين معصوم مؤيد بروح القدس .

و أفضح لحناً من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبد الله عمر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر .

فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يد رسول الله ﷺ فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لقتنه ، وألذي نفسي بيده ما دريت أنني نزلت عن منبري .

ومثله ما عن ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال : سمع النبي ﷺ بكاء حسن أو حسين فقال النبي ﷺ : الولد فتنة لقد قمت إليه وما أعقل .
فالوجه طرح الروايات إلا أن تؤول .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع حدثنا سفيان بن مرة الهمداني عن عبد خير سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » قال : والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله ﷺ . نحن ذكرنا الله فلا ننسأه ونحن شكرناه فلن نكفره ، ونحن أطعناه فلم نعصه .

فلما نزلت هذه قالت الصحابة : لا نطبق ذلك فأُنزل الله : « فاتقوا الله ما استطعتم » الحديث .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن الفضل بن أبي مرة قال : رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول : اللهم وقني شح نفسي فقلت : جعلت فداك ما رأيته يدعو بغير هذا الدعاء فقال : و أي شيء أشد من شح النفس ؟ إن الله يقول : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .



﴿سورة الطلاق مدنيّة وهي اثنتا عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ
لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ
حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)
فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلِ
مِنْكُمْ وَاقْبِمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَنْسَنَ (مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ
فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ
اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِمِ تَضَيَّقُوا عَلَيْهِنَّ
وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ

لَكُمْ فَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ
فَسْتَزِعْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَتْهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَيْهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ
عُسْرٍ يُسْرًا (٧) .

﴿بيان﴾

تتضمن السورة بيان كليّات من أحكام الطلاق تعقبه عظة وإنداز و تبشير
والسورة مدنيّة بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لَعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعَدَّةَ » إلى آخر الآية بديء الخطاب بمبدأ النبي ﷺ لَأَنَّهُ الرُّسُولُ إِلَى الْأُمَّةِ
وإمامهم فيصلح لخطابه أن يشملهم وأتباعه من أمته وهذا شائع في الاستعمال يخص
مقدم القوم وسيدهم بالنداء ويخاطب بما يعممه وقومه فلاموجب لقول بعضهم : إن
التقدير يا أيها النبي قل لأمتك : إذا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ الخ .

و قوله : « إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لَعَدَّتِهِنَّ » أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء
وأشرفتم على ذلك إن لا معنى لتحقيق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله : « إذا قمتم
إلى الصلاة فاغسلوا » الآية المائدة : ٦ .

والعدّة فعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبة شرعا، والمراد بتطبيقهن
لعدّتهن تطبيقهن لزمان عدّتهن بحيث يأخذ زمان العدّة من يوم تحقق التغطية
وذلك بأن تكون التغطية في طهر لا واقعة فيه حتى تنقضي أقرؤها .

و قوله : « وَأَحْصُوا الْعَدَّةَ » أي عدّوا الأقرء التي تعدّ بها ، وهو الاحتفاظ
عليها لأنّ للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع .
و قوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ » ظاهر السياق كون

« لا تخرجوهن » الخ بدلاً من « اتقوا الله ربكم » ويفيد ذلك تأكيد النهي في « لا تخرجوهن » والمراد ببيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أضيف إليهن بعناية السكنى .

وقوله : « ولا يخرجن » نهى عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهياً عن إخراجهن .

وقوله : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : « و تلك حدود الله و من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أي الأحكام المذكورة للطلاق حدود الله حدّها أعمالكم ومن يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها وخالفها فقد ظلم نفسه أي عصى ربه .

وقوله : « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » أي أمرا يقضي بتغيير الحال و تبدل رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلى الالتئام ويظهر في قلبه محبة حب الرجوع إلى سابق الحال .

قوله تعالى : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف - إلى قوله - واليوم الآخر » المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العدة وإشرافهن عليه ، والمراد بمسكهن الرجوع على سبيل الاستعارة ، وبمفارقتهن تركهن ليخرجن من العدة وبين .

والمراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة ورعاية ما جعل الله لهن من الحقوق ، و بكون فراقهن بمعروف أيضا احترام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع .

وقوله : « و أشهدوا ذوي عدل منكم » أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبى عدل ، و قد مرّ توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة .

وقوله : « و أقيموا الشهادة لله » تقدّم توضيحه في تفسير سورة البقرة .

وقوله : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » أي ما مرّ من

الأمر بتقوى الله وإقامة الشهادة لله والنهي عن تعدّي حدود الله أو مجموع ما مرّ من الأحكام والبعث إلى التقوى والإخلاص في الشهادة والزجر عن تعدّي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركعوا إلى الحقّ وينقلعوا عن الباطل ، وفيه إيهام أنّ في الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجاً من الإيمان .

قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب - إلى قوله - قدراً » أي « ومن يتق الله » و يتوزّع عن محارمه و لم يتعدّ حدوده واحترام لشرائعه فعمل بها « يجعل له مخرجاً » من مضائق مشكلات الحياة فإنّ شريعته فطرية يهدي بها الله الإنسان إلى ما استدعيه فطرته وتقتضي به حاجته وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة « و يرزقه » من الزوج والمال وكلّ ما يفتقر إليه في طيب عيشه وزكاة حياته « من حيث لا يحتسب » و لا يتوقع فلا يخف المؤمن أنّه إن اتقى الله واحترم حدوده حرم طيب الحياة و ابتلى بضنك المعيشة فإنّ الرزق مضمون والله على ما ضمنه قادر .

« ومن يتوكّل على الله » باعتزاله عن نفسه فيما تهواه و تأمر به و إثارة إرادة الله سبحانه على إرادة نفسه والعمل الذي يريده الله على العمل الذي تهواه وتريدته نفسه و بعبارة أخرى تدين بدين الله و عمل بأحكامه « فهو حسبه » أي كفيه فيما يريده من طيب العيش و يتمنّاه من السعادة بفطرته لا بواهمة الكاذبة .

وذلك أنّه تعالى هو السبب الأوّل على الذي تنتهي إليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله و بلغ ما أراد من غير أن تتغيّر إرادته فهو القائل : « ما يبدّل القول لديّ » ق : ٢٩ أو يحول بينه و بين ما أراد ما نفع فهو القائل : « والله يحكم لا معقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، و أمّا الأسباب الأخر التي يتشبّهت بها الإنسان في رفع حوائجه فإنّما تملك من السببية ما ملكها الله سبحانه وهو المالك لما ملكها والقادر على ما عليه أقدرها ولها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه .

فإنّ كاف لمن توكّل عليه لا غيره « إنّ الله بالغ أمره » يبلغ حيث أراد ، وهو القائل : « إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » « قد جعل الله لكلّ شيء قدراً » فما

من شيء إلا له قدر مقدور وحدّ محدود والله سبحانه لا يحدّه حدّ ولا يحيط به شيء وهو المحيط بكلّ شيء .

هذا هو معنى الآية بالنظر إلى وقوعها في سياق آيات الطلاق وانطباقها على المورّد .

و أمّا بالنظر إلى إطلاقها في نفسها مع الغضّ عن السياق الذي وقعت فيه فقوله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » مفاده أن من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ولا يتمّ ذلك إلا بمعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ثمّ تورّعه واتقائه بالاجتناب عن المحرّمات وتحرّز ترك الواجبات خالصاً لوجهه الكريم ، ولازمه أن لا يريد إلا ما يريد الله من فعل أو ترك ، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادة من الله .

ولازم ذلك أن يرى نفسه وما يترتب عليها من سمة أو فعل ملكاً طلقاً لله سبحانه يتصرّف فيها بما يشاء وهو ولاية الله يتولّى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقة معناه شيء إلا ما ملكه الله سبحانه وهو المالك لما ملكه والملك لله عزّ اسمه .

وعند ذلك ينجليه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلّق بالأسباب الظاهرية « ويجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » أمّا الرزق الماديّ فإنّه كان يرى ذلك من عطايا سعيه والأسباب الظاهرية التي كان يطمئنّ إليها وما كان يعلم من الأسباب إلا قليلاً من كثير كقبس من نار يضيء للإنسان في الليلة الظلماء موضع قدمه وهو غافل عمّا وراءه ، لكنّ الله سبحانه محيط بالأسباب وهو الناظم لها ينظمها كيف يشاء ويأذن في تأثير ما لا علم له به من خباياها .

و أمّا الرزق المعنويّ الذي هو حقيقة الرزق الذي يعيش به النفس الإنسانية تبقى فهو ممّا لم يكن يحتسبه ولا يحتسب طريق وروده عليه .

و بالجملة هو سبحانه يتولّى أمره ويخرجه من مهبط الهلاك ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولا يفقد من كماله والنعم التي كان يرجو نيلها بسعيه شيئاً لأنّه توكل على الله وفوض إلى ربّه ما كان لنفسه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » دون سائر الأسباب

الظاهرية التي تخطيء تارة وتصيب أخرى « إن الله بالغ أمره » لأن الأمور محدودة محاطة له تعالى و « قد جعل الله لكل شيء قدرا » فهو غير خارج عن قدره الذي قدره به .

و هذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآية .

وأما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازلة درجاتهم من حيث المعرفة والعمل فلهم من ولاية الله ما يلائم حالهم في إخلاص الإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى وأطلق : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال وأطلق : « والله ولي المتقين » الباقية : ١٩ .

و تدبئهم بدين الحق وهي سنة الحياة ، و ورودهم و صدورهم في الأمور عن إرادته تعالى هو تقوى الله والنوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادة أنفسهم فينالون من سعادة الحياة بحسبه ويجعل الله لهم مخرجاً ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ، وحسبهم ربهم فهو بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدرا .

و عليهم من حرمان السعادة قدر ما دب من الشرك في إيمانهم وعملهم وقد قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ و قال وأطلق : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » النساء : ٤٨ .

و قال : « وإني لفقار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً » طه : ٨٢ أي لمن تاب من الشرك وقال وأطلق : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » المزمل : ٢٠ . فلا يرقا المؤمن إلى درجة من درجات ولاية الله إلا بالتوبة من خفي الشرك الذي دونها .

والآية من غرر الآيات القرآنية و للمفسرين في جملها كلمات متشعبة أضربنا عنها .

قوله تعالى : « واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن » ثلاثة أشهر ، المراد بالارتباب الشك في يأسهن من المحيض أهو لكبر أم لعارض فالمعنى واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم و شككنكم في أمر يأسهن أهو لبلوغ سنهن

سنّ اليأس أم لعارض فعدّتهنّ ثلاثة أشهر .

و قوله : « واللائي لم يحضن » عطف على قوله : « واللائي يشنّ » الخ والمعنى واللائي لم يحضن وهو في سنّ من تحيض فعدّتهنّ ثلاثة أشهر .
و قوله : « وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ » أي منتهى زمان عدّتهنّ وضع الحمل .

و قوله : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » أي يسهّل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشايق ، وقيل : المراد أنّه يسهّل عليه أمور الدنيا والآخرة إماماً بفرج عاجل أو عوض آجل .

قوله تعالى : « ذلك أمر الله أنزله إليكم » أي ما بيّنه في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله إليكم ، وفي قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » دلالة على أن اتباع الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلزم اجتناب تركه .

وتكفير السيئات سترها بالمغفرة ، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كبائر المعاصي ، ويكون مجموع قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » في معن قوله « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » النساء : ٣١ ومن الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله **وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ** في تعريف التقوى : أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة .

و يظهر أيضاً أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق والعدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق والعدة لا محالة فهو غير السيئات المكفّرة وإلا اختل معنى الآية .

قوله تعالى : « أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم » إلى آخر الآية قال في المفردات : وقوله تعالى : « من وجدكم » أي تمكّنكم وقدر غناكم ، ويعبر عن الغنى بالوجدان والجدة ، وقد حكى فيه الوجد والوجد والوجد - بالحرركات الثلاث في الواو - انتهى .

و ضمير «هن» للمطلقات على ما يؤيده السياق والمعنى أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكّنكم و غناكم على الموسر قدره و على المعسر قدره .

وقوله : « ولا تضاروهن » لتضيّقوا عليهن » أي لا توجهوا إليهن ضرراً يشق عليهن تحمله من حيث السكنى والكسوة والنفقة لتوردوا الضيق والحرج عليهن .
وقوله : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » معناه ظاهر .

وقوله : « فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن » فلهن عليكم أجر الرضاعة وهو من نفقة الولد التي على الوالد .

وقوله : « واثمروا بينكم بمعروف » والاثمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضاً ، و هو خطاب للرجل والمرأة أي تشاوروا في أمر الولد و توافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه والمرأة بنقصته ولا الولد بنقص مدة الرضاع إلى غير ذلك .

وقوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » أي وإن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر و اختلفتم فسترضع للولد امرأة أخرى أجنبية غير والدته أي فليسترضع الوالد غير والدته الصبي .

قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته » الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق وهو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نسائهم المطلقات الممرضعات أولادهم .

وقوله : « و من قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قدر الرزق ضيقه ، والإيتاء الإعطاء ، والمعنى و من ضاق عليه رزقه و كان فقيراً لا يتمكّن من التوسّع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكّنه .

وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » أي لا يكلف الله نفساً إلا بقدر ما أعطاه من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكليف الإلهية ومنها إنفاق المطلقة .
وقوله : « سيجعل الله بعد عسر يسراً » فيه بشرى و تسلية .

﴿بحث روائى﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت سورة النساء القصرى بعد التي في البقرة بسبع سنين .

اقول : سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق .

وفيه أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بداله أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ، وقرأ النبي ﷺ : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن » .

أقول : قوله : « في قبل عدتهن » قراءة ابن عمر وما في المصحف « لعدتهن » . وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » قال : في حفصة بنت عمر طلقها النبي ﷺ واحدة فنزلت « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء - إلى قوله - يحدث بعد ذلك أمرا » قال : فراجعها .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : كل طلاق لا يكون على السنة أو على العدة فليس بشيء . قال زرارة فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فسر لي طلاق السنة و طلاق العدة فقال : أما طلاق السنة فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته فلينتظر بها حتى تطمث و تطهر فإذا خرجت من طمثها طلقها تطليقة من غير جماع و يشهد شاهدين على ذلك ثم يدعها حتى تطمث طمثين فتتقضي عدتها بثلاث حيض وقد بانث منه و يكون خاطباً من الخطاب إن شاءت تزوجته وإن شاءت لم تزوجه ، وعليه نفقتها والسكنى مادامت في مدتها ، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدة .

قال : و أما طلاق العدة الذي قال الله تعالى : « فطلقوهن لعدتهن » و أحصوا

العدة ، فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضتها ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ويشهد شاهدين عدلين ويراجعها من يومه ذلك إن أحب أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها وواقعها وتكون معه حتى تحيض فإذا حاضت وخرجت من حيضها طلقها تطليقة أخرى من غير جماع ويشهد على ذلك ثم يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها وواقعها وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة فإذا خرجت من حيضتها الطليقة الثالثة بغير جماع ويشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانت منه ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره .

قيل له : فإن كانت ممن لا تحيض ؟ قال : مثل هذه تطلق طلاق السنة .

وفي قرب الأسناد بإسناده عن صفوان قال : سمعت يعني أبا عبد الله و جاء رجل فسأله فقال : إني طلق امرأتي ثلاثاً في مجلس فقال : ليس بشيء . ثم قال : أما تقرأ كتاب الله تعالى « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . ثم قال : ألا تدري « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ثم قال : كلما خالف كتاب الله والسنة فهو يرد إلى كتاب الله والسنة .

وفي تفسير القمي في معنى قوله : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » قال : لا يحل لرجل أن يخرج امرأته إذا طلقها - وكان له عليها رجعة - من بيته وهي لا تحل لها أن تخرج من بيته إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . ومعنى الفاحشة أن تزني أو تسرق على الرجل ، ومن الفاحشة أيضاً السلاطة على زوجها فإن فعلت شيئاً من ذلك حل له أن يخرجها .

وفي الكافي بإسناده عن الوهب بن حفص عن أحدهما عليهما السلام في المطلقة تعتد في بيتها ، وتظهر له زينتها لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

أقول : وفي هذه المعاني ومعاني جعل اليتين روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

و فيه بإسناده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أُعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً من أُعطي الدعاء أُعطي الإجابة ، و من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة و من أُعطي التوكل أُعطي الكفاية .

قال : أتلت كتاب الله عز وجل ؟ « و من يتوكل على الله فهو حسبه » و قال : « ولئن شكرتم لأزيدنكم » و قال : « ادعوني أستجب لكم » .

و فيه بإسناده عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل « و من يتق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب » قال : في دنياه .

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد قال : نزلت هذه الآية : « و من يتق الله يجعل له مخرجاً » في رجل من أشجع أصابه جهد و بلاء و كان العدو أسروا ابنه فأتى النبي صلى الله عليه وآله فقال : اتق الله و اصبر فرجع ابن له كان أسيراً قد فكّه الله فأتاهم و قد أصاب أعزنا فجاء فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله و سلم فنزلت فقال النبي صلى الله عليه وآله : هي لك .

و فيه أخرج أبو يعلى و أبو نعيم و الديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : « و من يتق الله يجعل له مخرجاً » قال : من شبهات الدنيا و من غمرات الموت و من شدائد يوم القيامة .

و فيه أخرج الحاكم و صحيحه و ابن مردويه و البيهقي عن أبي ذر قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يتلو هذه الآية « و من يتق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب » فجعل يردّها حتى نعست . ثم قال : يا أباذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتمهم .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم و الطبراني و الخطيب عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من انقطع إلى الدنيا و كله الله إليها .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، و من أحب أن يكون أغنى

الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

اقول : وقد تقدم في ذيل الكلام على الآيات معنى هذه الروايات .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : عدة المرأة التي لا تحيض والمستحاضة التي لا تظهر ثلاثة أشهر ، وعدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء ، وسألته عن قول الله عز وجل : « إن ارتبتم » ما الريبة ؟ فقال : ما زاد على شهر فهو ريبة فلتمتد ثلاثة أشهر ولترك الحيض . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : عدة الحامل أن تضع حملها ، وعليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها .

وفيه بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا طلق الرجل المرأة وهي حبلى أنفق عليها حتى تضع حملها فإذا وضعت أعطها أجرها ولا تضارها إلا أن يجد من هي أرخص أجراً منها فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحق بابنها حتى تفلطمه .

وفي الفقيه بإسناده عن ربعي بن عبد الله والفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » قال : إن أنفق عليها ما يقيم ظهرها مع الكسوة وإلا فرق بينهما .

اقول : ورواه في الكافي بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام .

وفي تفسير القمي في قوله : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » قال : المطلقة الحامل أجلها أن تضع ما في بطنها إن وضعت يوم طلقها زوجها فلها أن تزوج إذا طهرت ، وإن تضع ما في بطنها إلى تسعة أشهر لم تزوج إلى أن تضع .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن عليه السلام قال : سألت عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطاً ثم أولم يتم أو وضعت مضغة ؟ قال : كل شيء وضعته يستبين أنه حمل ثم أولم يتم فقد انقضت عدتها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن مغيرة قال : قلت للشعبي : ما أصدق

أن علي بن أبي طالب كان يقول : عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين .
قال : بلى فصدق به كأشد ما صدقت بشيء كان علي يقول : إنما قوله : «وأولات
الأحمال أجلهن» أن يضعن حملهن» في المطلقة .

وفيه أخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص
ابن المغيرة خرج مع علي إلى اليمن فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطبيقه كانت
بقيت من طلاقها ، وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن أبي ربيعة بنفقة فاستقلتها
فقالا لها والله مالك نفقة إلا أن تكوني حاملا فأنت النبي ﷺ فذكرت له أمرها
فقال لها النبي ﷺ : لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها .

فأرسل إليها مروان يسألها عن ذلك فحدثته فقال مروان : لم أسمع بهذا الحديث
إلا من امرأة سناخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها فقالت فاطمة : بيني وبينكم
كتاب الله قال الله عز وجل : «ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» حتى بلغ
«لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» قالت : هذا لمن كانت له مراجعة فأمر
يحدث بعد الثلاث ؟ فكيف تقولون : لا نفقة إذا لم تكن حاملا ؟ فعلام تحبسونها ؟
و لكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة فإن كانت تحيض فعدتها
ثلاث حيض ، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا فعدتها أن
تضع حملها ، وإن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد على ذلك رجلين كما قال
الله : «وأشهدوا ذوي عدل منكم» عند الطلاق وعند المراجعة .

فإن راجعها فهي عنده على طلقين وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بان
عدتها منه بواحدة وهي أهلك لنفسها ثم تزوج من شاءت هو أو غيره .





وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) .

﴿بيان﴾

موعظة وإنذار ونبشیر تؤکد التوصیة بالنمسک بما شرع الله لهم من الأحکام و من جملتها ما شرعه من أحكام الطلاق والعدۃ ولم یوص القرآن الکریم ولا اؤکد فی التوصیة فی شیء من الأحکام المشرعة كما وصی و اؤکد فی أحكام النساء ، و لیس إلا لأن لها نبأ .

قوله تعالى : « و کأین من قرية عتت عن أمر ربها و رسله فحاسبناها حساباً شديداً و عذبناها عذاباً نكراً ، قال الراغب : العتو النبوء عن الطاعة انتهى فهو قريب

المعنى من الاستكبار ، وقال : النكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف انتهى والمراد بالنكر في الآية المعنى الثاني ، وفي المجمع النكر المنكر القطيع الذي لم ير مثله انتهى .

والمراد بالقرية أهلها على سبيل التجوز كقوله : « وأسأل القرية » يوسف : ٨٢ و في قوله : « عنت عن أمر ربها ورسله » إشارة إلى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك و كفروا كفرا آخر برسله بتكذيبهم في دعوتهم . على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائع المشرعة و كفروا برسله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مرّ نظيره في قوله : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » التغابن : ١٢ .

وشدة الحساب المناقشة فيه والاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه ، والمراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة والدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم فأنظر كيف كان عاقبة المكذبين » الأعراف : ٩٦ .

فما يصيب الإنسان من مصيبة - وهي المصيبة في نظر الدين - هو حاصل محاسبة أعماله والله يعفو عن كثير منها بالمسامحة والمساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره ورسله حساباً شديداً بالمناقشة والاستقصاء والتريب فيعذبهم عذاباً نكراً .

والمعنى وكم من أهل قرية عتوا واستكبروا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا الله ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ناقشنا فيه واستقصيناه ، وعذبناهم عذاباً صعباً غير معهود وهو عذاب الاستئصال في الدنيا .

وما قيل : إن المراد به عذاب الآخرة ، والتعبير بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع غير سديد .

وفي قوله : « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها » التفات من الغيبة إلى التكلّم

مع الغير ، ونكته الدلالة على العظمة .

قوله تعالى : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » المراد بأمرها عتوها واستكبارها ، والمعنى فأصابتهم عقوبة عتوهم وكان عاقبة عتوهم خساراً كأنهم اشتروا العتو بالطاعة فانتهى إلى أن خسروا .

قوله تعالى : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » هذا جزاؤهم في الأخرى كما كان ما في قوله : « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها » جزاءهم في الدنيا .

والفصل في قوله : « أعد الله لهم » الخ لكونه في مقام دفع الدخل كأنه لما قيل : « وكان عاقبة أمرها خسرا » قيل : ما المراد بخسرهم ؟ فقيل : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .

قوله تعالى : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا فداً أنزل الله إليكم ذكراً » استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم ويقولوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم ويطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم وخسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكه .

وقد وصف المؤمنين بأولي الألباب فقال : « اتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا » استمداداً من عقولهم على ما يريد منهم من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوماً عتوا عن أمر ربهم فحوسبوا حساباً شديداً وعذبوا عذاباً نكراً وكان عاقبة أمرهم خسرا ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة وأباد قوماً بعد قوم ، قضت عقولهم بأن العتو والاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله ومنكر عذابه فتنبههم وتبعثهم إلى التقوى وقد أنزل الله إليهم ذكراً يذكرهم به ما لهم وما عليهم ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

قوله تعالى : « رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ عطف بيان أو بدل من « ذكراً » فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمّي به لأنه وسيلة التذكير بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق ، والمراد بالرسول محمد ﷺ على ما يؤيده ظاهر

قوله : « يتلو عليكم آيات الله مبينات » الخ .

و على هذا فالمراد بأنزال الرسول بعثه من عالم الغيب وإظهاره لهم رسولا من عنده بعد ما لم يكونوا يحسبون كما في قوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ .
و قد دعى ظهور الأنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشف إلى أن يفسر « رسولا » بجبريل ويكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي ﷺ بما أنه متبوع لقومه ووسيلة الإبلأغ لهم لكن ظاهر قوله : « يتلو عليكم » الخ خلاف ذلك .

و يحتمل أن يكون « رسولا » منصوبا بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا يتلو عليكم آيات الله ، ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن أو ما بين فيه من الأحكام والمعارف .

و قوله : « ليخرج الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » تقدم تفسيره في نظائره .

وقوله : « ومن يؤمن بالله و يعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » وعد جميل و تبشير .

و قوله : « قد أحسن الله له رزقا » وصف لإحسانه تعالى إليهم فيما رزقهم به من الرزق ، والمراد بالرزق ما رزقهم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا والجنة في الآخرة ، وقيل المراد به الجنة .

قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » يتنزل الأمر بينهن » الخ بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى وبعثه الرسول و إنزاله الذكر ليطيعوه فيه و أن في تمرده ومخالفته الحساب الشديد والعذاب الأليم و في طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم .

فقوله : « الله الذي خلق سبع سماوات » تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة .

و قوله : « ومن الأرض مثلهن » ظاهره المثلية في العدد ، وعليه فالمعنى وخلق

من الأرض سبعةً كما خلق من السماء سبعةً فهل الأرضون السبع سبع كرات من نوع الأرض التي نحن عليها والتي نحن عليها إحداها ؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطة بعضها ببعض والطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه ؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسموا إليها المعمور من سطح الكرة ؟ . وجوه ذهب إلى كل منها جمع وربما لاح بالرجوع إلى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها .

وربما قيل : إن المراد بقوله : « ومن الأرض مثلهن » أنه خلق من الأرض شيئاً هو مثل السماوات السبع وهو الإنسان المركب من المادة الأرضية والروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية .

وقوله : « يتنزل الأمر بينهن » الظاهر أن الضمير للسماوات والأرض جميعاً والأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ وهو كلمة الإيجاد ، وتنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر إلى سماء بعد سماء حتى ينتهي إلى العالم الأرضي فيتكون ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى : « وأوحى في كل سماء أمرها » حم السجدة : ١٢ وقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يهرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » الم السجدة : ٥ .

وقيل : المراد بالأمر الأمر التشريعي يتنزل ملائكة الوحي به من السماء إلى النبي وهو بالأرض . وهو تخصيص من غير مخصص وذيل الآية « لتعلموا أن الله لا يلائمه »

وقوله : « أن الله على كل شيء قدير » وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع ومن الأرض مثلهن وتنزيله الأمر بينهن ، وفي ذلك انتساب الخلق والأمر إليه واختصاصهما به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء فليتنق مخالفة أمره أو لوا الألباب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره ، ومجازاة العاتين المستكبرين وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وكأين من قرية » قال : أهل قرية .

و في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السلام في حديث المأمون قال : الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أهله وذلك بين في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله عليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » قال : فالذكر رسول الله ونحن أهله .

و في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله عز وجل : « والسماء ذات الحجب » فقال : هي محبوبكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه فقلت : كيف تكون محبوبكة إلى الأرض والله يقول : رفع السماء بغير عمد ترونها ؟ فقال : سبحان الله أليس الله يقول : بغير عمد ترونها ؟ قلت : بلى . قال : فثم عمد ولكن لا ترونها .

قلت : فكيف ذلك جعلني الله فداك ؟ قال : فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثالثة فوقها قبة ، والأرض الرابعة فوق السماء الرابعة فوقها قبة ، والأرض الخامسة فوق السماء الخامسة فوقها قبة ، والأرض السادسة فوق السماء السادسة فوقها قبة ، والأرض السابعة فوق السماء السابعة فوقها قبة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق السماء السابعة وهو قول الله عز وجل : « والذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما » .

فأما صاحب الأمر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإِنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين .

قلت : فما تحتنا إلا أرض واحدة ؟ فقال : ماتحتنا إلا أرض واحدة وإن الست^١ لهن^٢ (لهن) فوقنا .

اقول : وعن الطبرسي^٣ عن العياشي^٤ عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام مثله .

والحديث نادر في بابهِ ، وهو وخاصة ما في ذيله من تنزل الأمر أقرب إلى الحمل على المعنى منه إلى الحمل على الصورة والله أعلم .



﴿سورة التحريم مدنية وهي اثنتا عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ
لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ
تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مُؤَلِّمُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ
إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ
وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُؤَلِّمُهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ
ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ أَنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ
مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) .

﴿ بيان ﴾

تبدء السورة بالإشارة إلى ماجرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم فيعاتب النبي ﷺ بتحريمه ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة بعض أزواجه ومرجهه إلى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ كما يدل عليه سياق الآيات .
ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس والحجارة وليسوا يجزون إلا بأعمالهم ولا مخلص منها إلا للنبي ﷺ والذين آمنوا معه ثم تخاطب النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين .

و تختتم السورة بضربه تعالى مثلاً من النساء للكفار ومثلاً منهن للمؤمنين . و ظهور السياق في كون السورة مديئة لا ريب فيه .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » خطاب مشوب بعتاب لتحريمه ﷺ لنفسه بعض ما أحل الله له ، ولم يصرح تعالى به ولم يبين أنه ما هو ؟ وما ذا كان ؟ غير أن قوله : « تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ » يوحي أنه كان عملاً من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي ﷺ والله ﷻ لا ترضيه أزواجه فضيقن عليه وآذينه حتى أراضهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد .
فقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ » علق الخطاب والنداء بوصف النبي ﷺ دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة .

وقوله : « لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » المراد بالتحريم التسبب إلى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله : « قد فرض الله لكم تحلة

أيما نكم ، الخ أنه ﷺ حلف على ذلك و من شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل والحرمة إن كان الحلف على الترك ، وإذ كان ﷺ حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرّم ما أحل الله له بالحلف .

وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرّع الله له فيه الحلّة فليس له ذلك

وقوله : «تبتغي مرضاة أزواجك» أي تطلب بالتحريم رضاهنّ بدل من «تحرّم» الخ أو حال من فاعله ، والجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجّه إليهنّ ، و - يؤيده قوله خطاباً لهما : «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» الخ مع قوله فيه : «والله غفور رحيم» .

قوله تعالى : «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله موليكم وهو العليم الحكيم» قال الراغب : كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه ، وما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، وقوله : «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» . انتهى والتحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة وتكرمة مصدر كالتحليل قال الراغب : وقوله عز وجل : «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم» أي بين ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة .

فالمعنى قد قدّر الله لكم - كأنه قدّره نصيباً لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقدة اليمين - تحليل أيمانكم بالكفارة والله وليكم الذي يتولى تدبير أموركم بالتشريع والهداية وهو العليم الحكيم .

وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ كان قد حلف على الترك ، وأمر له بتحلّة يمينه .

قوله تعالى : «وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير» السر هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه ، والإسرار إفشاؤك الحديث إلى غيرك مع إصاؤك باخفائه ، وضمير «نبأت» لبعض أزواجه ، وضمير «به» للحديث الذي أسره النبي ﷺ إليها ،

وضمير «أظهره» للنبي ﷺ، وضمير «عليه» لآبائها به غيرها وإفشاءها السر، وضمير «عرف» وأعرض» للنبي ﷺ، وضمير «بعضه» للحديث، والإشارة بقوله: «هذا» لآبائها غيره وإفشاءها السر.

ومحصل المعنى وإذ أفشى النبي ﷺ إلى بعض أزواجه - وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب - حديثاً وأوصاها بكتمانه فلمّا أخبرت به غيرها وأفشت السرّ خلافاً لما أوصاها به، وأعلم الله النبي ﷺ أنّها نبأت به غيرها وأفشت السرّ عرف وأعلم بعضه وأعرض عن بعض آخر فلمّا خبرها النبي ﷺ بالحديث قالت للنبي ﷺ: من أنباك وأخبرك أنّي نبأت به غيري وأفشيت السرّ قال النبي ﷺ: نبأني وخبرني العليم الخبير وهو الله العليم بالسرّ والعلانية الخبير بالسرائر.

قوله تعالى: «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولا وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير» أي إن تتوبا إلى الله فقد تحقّق منكما ما يستوجب عليكما التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولا الخ. وقد اتفق النقل على أنّهما عائشة وحفصة زوجا رسول الله ﷺ.

والصغو المليل والمراد به الميل إلى الباطل والخروج عن الاستقامة وقد كان ما كان منهما من إيذائه والتظاهر عليه ﷺ من الكبائر وقد قال تعالى: «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧ وقال: «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» التوبة: ٦١.

والتعير بقلوبكما وإرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظم في الاستعمال. وقوله: «وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولا» الخ التظاهر التعاون، وأصل «وإن تظاهرا» وإن تتظاهرا، وضمير الفصل في قوله: «فإن الله هو مولا» للدلالة على أن الله سبحانه عناية خاصة به ﷺ ينصره ويتوكّل أمره من غير واسطة من خلقه، والمولى الولي الذي يتوكّل أمره وينصره على من يريد به سوء.

و«جبريل» عطف على لفظ الجلالة، و«صالح المؤمنين» عطف كجبريل، والمراد بصالح المؤمنين علي ما قيل الصالحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به

الجمع كقولك : لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صالح منه ومثله قولك : كنت في السامر والحاضر .

وفيه قياس المضاف إلى الجمع إلى مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنين غير ظاهر « الصالح من المؤمنين » .

ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بصالح المؤمنين علي عليه أفضل السلام ، وستوافيك إن شاء الله .

وفي المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها .
وقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفاً واحداً ، وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتفخيم .

ولحن الآيات في إظهار النبي ﷺ على من يؤذيه ويريد به سوء وتشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجب ، وقد خوطب فيها النبي ﷺ أولاً و عوتب على تحريمه ما أحل الله له وأشير عليه بتحكمة يمينه وهو إظهار وتأييد وانتصار له وإن كان في صورة العتاب .

ثم التفت من خطابه إلى خطاب المؤمنين في قوله : « وإن أسر النبي إلى بعض أزواجه » يشير إلى القصة وقد أبهما إبهاما وقد كان أيّد النبي وأظهره قبل الإشارة إلى القصة وإفشائها مختوما عليها ، وفيه مزيد إظهاره .

ثم التفت من خطاب المؤمنين إلى خطابيهما وقرّر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا ولم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بيّن لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا وإما أن تظاهرا على من الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيرات منهن . ثم أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلب عليهم .

وانتهى الكلام إلى ضربه تعالى مثلين مثلاً للذين كفروا ومثلاً للذين آمنوا .

وقد أدارتعالى الكلام في السورة بعد التعرّض لحالهما بقوله : «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه» الخ بين التعرّض لحال المؤمنين والتعرّض لحال الكفار فقال : «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم» الخ و «يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا» الخ وقال : «يا أيها الذين آمنوا توبوا» الخ و «يا أيها النبي جاهد» الخ وقال : «ضرب الله مثلاً للذين كفروا» ، « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا » .

قوله تعالى : « عسى ربّه إن طلقن أن يبدله أزواجاً خيراً منكهن » ، إلى آخر الآية استغناء إلهي فانهن وإن كنّ مشرقات بشرف زوجية النبي ﷺ لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما قال تعالى : «فإن الله أعدّ للمحسنات منكم أجراً عظيماً» الأحزاب : ٢٩ - انظر إلى مكان «منكن» ، وقال : «يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يفت منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعدنا لها رزقاً كريماً» الأحزاب : ٣١ .

ولذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقن أزواجاً خيراً منهن ، وعلق الخبر بما ذكر لا زواجه الجديدة من صفات الكرامة وهي أن يكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات - أي صائمات - نيبات وأبكارا .

فمن تزوج بها النبي ﷺ وكانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيراً منهن وليس إلّا لأجل اختصاص منها بالقنوت والتوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات ، والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع .

ويتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت «وكانت من القانتين» فالقنوت هو الذي يفقده وهو لزومهن طاعة النبي ﷺ والتي فيها طاعة الله واتقاؤهن أن يعصين النبي ﷺ ويؤدينه .

وبما مرّ يظهر فساد قول من قال إن وجه خيرية أزواجه اللاحقة من أزواجه السابقة إن طلقن ، هو تزوج النبي ﷺ بهن وانفصال الأزواج السابقة وزوجيته صلى الله عليه وآله شرف لا يقدر قدره .

وذلك أنّه لو كان ملاك ما ذكر في الآية من الخير هو الزوجية كان كل من

تزوج بِالشَّعَةِ من النساء أفضل وأشرف منهن "إن طلقهن وإن لم تلبس بشيء مما ذكر من صفات الكرامة فلم يكن مورد لعداء ماعد من الصفات .

قال في الكشف : فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات . انتهى .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » الخ « قوا » أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره ، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه . والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعدن بين فيها وقوداً لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى : « ثم في النار يسجرون » المؤمن : ٧٢ . فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية « يا أيها الذين كفروا » الخ وفسرت الحجارة بالأصنام .

وقوله : « عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » أي وكل عليها لاجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد .

والغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق والأنسب للمقام كون المراد بالغلاظة خشونة العمل كما في قوله الآتي : « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » الآية ٩ من السورة والشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه وفعله .

وقوله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » كالمفسر لقوله : « غلاظ شداد » أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفة والرد و يفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد .

و بهذا يظهر أن قوله : « لا يعصون الله ما أمرهم » ناظر إلى التزامهم بالتكليف وقوله : « و يفعلون » الخ ناظر إلى العمل على طبقه فلا تكرر كما قيل .

قال في التفسير الكبير في ذيل الآية : وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في

الآخرة بما أمرهم الله تعالى به و بما ينهاهم عنه ، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي .

وفيه أن الآية وغيرها مما تصف الملائكة بمحض الطاعة من غير معصية مطلقة تشمل الدنيا والآخرة فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة .

ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني بمعنى تعليق المكلف - بالكسر - إرادته بفعل المكلف - بالفتح - تعليقا اعتباريا يستتبع الثواب والعقاب في ظرف الاختيار وإمكان الطاعة والمعصية بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يفعلون إلا ما يؤمرون قال تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ و لذلك لاجزاء لهم على أعمالهم من ثواب أو عقاب فهم مكلفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم قال تعالى : « وما منّا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ وقال عنهم : « وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا » مريم : ٦٤ .

والآية الكريمة بعد الآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدب نساء النبي ﷺ ببيان ما لا يذائهم النبي ﷺ من الأمر السيئ عمم الخطاب فخطب المؤمنين عامة أن يؤدبوا أنفسهم وأهلهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي أن أعمالهم السيئة تلزمهم و تعود نارا تعذبهم ولا مخلص لهم منها ولا مناص عنها .

قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » خطاب عام للكفار بعدما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيخطبون أن لا تعتذروا اليوم - وهو يوم الجزاء - إنما يجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيئ الذي علمتموه وقد برز لكم اليوم حقيقة وإن علمتموه فقد لزمكم أنكم علمتموه والواقع لا يتغير وما حق عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلا فهذا ظاهر الخطاب .

وقيل : المعنى لا تعتذروا اليوم - بعد دخول النار فإن الاعتذار توبة والتوبة

غير مقبولة بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة .
و في إتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمنى
و إشعار بأن معصية الله و رسوله ربما أدّى إلى الكفر .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن
يكفر عنكم سيئاتكم و يدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار ، الخ النصح تحري
فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ، ويأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته
- على ما ذكره الراغب - فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما
يخلص العبد للرجوع عن الذنوب فلا يرجع إلى ما تاب منه .

لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم و أهلهم من النار أمرهم جميعاً ثانياً بالتوبة
و فرّع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم و يدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار .
و قوله : « يوم لا يخزي الله النبي » و الذين آمنوا معه ، قال الراغب : يقال :
خزي الرجل يخزي من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه و إما من غيره
فالأذي يلحقه من نفسه و هو الحياء المفرط مصدره الخزية ، والأذي يلحقه من غيره
و يعدّ ضرباً من الاستخفاف مصدره الخزي والإخزاء من الخزية والخزي جميعاً قال :
و على نحو ما قلنا في خزي ذلّ و هان فإنّ ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له
الهون - بفتح الهاء - والذلّ و يكون محموداً ، و متى كان من غيره يقال له : الهون
- بضم الهاء - والهوان والذلّ و يكون مذموماً . انتهى ملخصاً .

فقوله : « يوم » ظرف لما تقدّمه ، والمعنى توبوا إلى الله عسى أن يكفر عنكم
سيئاتكم و يدخلكم الجنة في يوم لا يخزي ولا يكسر الله النبي ﷺ بجعلهم محرومين
من الكرامة و خلفه ما وعدهم من الوعد الجميل .

و في قوله : « النبي » و الذين آمنوا معه « اعتبار المعية في الإيمان في الدنيا ولازمه
ملازمتهم النبي ﷺ و طاعتهم له من غير مخالفة و مشاقّة .

و من المحتمل أن يكون قوله : « الذين آمنوا » مبتدئ خبره « معه » و قوله :
« نورهم يسعى » الخ خبراً ثانياً ، و قوله : « يقولون » الخ خبراً ثالثاً فيفيد أنّهم لا

يفارقون النبي ولا يفارقهم يوم القيامة ، وهذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصاً بالنبي ﷺ وسعي النور و سؤال إتمامه خاصاً بالذين معه من المؤمنين وتأييده آية الحديد الآتية . و من الممكن أن يكون « معه » متعلقاً بقوله : « آمنوا » وقوله : « نورهم يسعي » النخ خبراً أولاً وثانياً للموصول .

و قوله : « يسعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » تقدم بعض الكلام في معناه في قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الحديد : ١٢ ولا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الايمان و ما بأيمانهم نور العمل .

و قوله : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » يفيد السياق أن المغفرة المسؤلة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن نورهم نقصاً والنور نور الايمان والعمل فلهم نقائص بحسب درجات الايمان أو آثار السيئات التي خلت محالها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم و يغفر لهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم و نورهم » الحديد : ١٩ .

قوله تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبش المصير » المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم ودفع شرهم ففي الكفار بيان الحق وتبليغه فإن آمنوا وإلا فالحرب وفي المنافقين باستماتتهم وتأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الايمان وإلا فلم يقاül النبي صلى الله عليه وآله منافقا قط .

وقيل : المراد اشد عليهم في إقامة الحدود لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون . و هو كما ترى .



﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي بإسناده عن ابن سيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » قال : اطلعت عائشة و حفصة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع مارية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والله لا أقرّبها فأمر الله أن يكفر بها عن يمينه .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن رجل قال لامرأته : أنت عليّ حرام فقال : لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه و قلت : الله أحلّها لك فما حرّمها عليك ؟ إنّه لم يزد عليّ أن كذب فزعم أن ما أحلّ الله له حرام ولا يدخل عليه طلاق ولا كفارة .

فقلت : قول الله عزّ وجلّ : « يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك » فجعل فيه كفارة ؟ فقال إنّما حرّم عليه جاريته مارية القبطيّة وحلف أن لا يقرّبها ، وإنّما جعل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكفارة في الحلف ولم يجعل عليه في التحريم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت : إني أجد منك ريحا فدخل على حفصة فقالت : إني أجد منك ريحا فقال : أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فأنزل الله : « يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك » الآية .

اقول : والحديث مروى بطرق متشعبة و ألفاظ مختلفة ، وفي انطباقها على الآيات - وهي ذات سياق واحد - خفاء .

وفيه أخرج ابن سعد و ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت عائشة و حفصة متحابتين فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده فأرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جاريته فطلعت معه في بيت حفصة وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة فوجدتهما في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارت غير شديدة فأخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاريته ودخلت حفصة فقالت :

قد رأيت من كان عندك والله لقد سوأتني فقال النبي ﷺ : والله لأرضينتك وإنني مسر إليك سرّاً فاحفظيه قالت : ماهو ؟ قال : إنني أشهدك أن سرّيتي هذه عليّ حرام رضاً لك .

فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرّت إليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرّم عليه فتاته فلمّا أخبرت بسرّ النبي ﷺ أظهر الله النبي ﷺ عليه فأنزل الله : « يا أيّها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك » .

اقول : انطباق ما في الحديث على الآيات وخاصة قوله : « عرف بعضه وأعرض عن بعض » فيه خفاء .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وإن أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً » قال : دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية فقال لها رسول الله ﷺ : لا تخبري عائشة حتّى أبشرك بشاره فإنّ أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أفاقت .

فذهبت حفصة فأخبرت عائشة فقالت عائشة للنبي ﷺ : من أنباك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير فقالت عائشة : لا أنظر إليك حتّى تحرّم مارية فحرّمها فأنزل الله « يا أيّها النبي لم تحرّم » .

اقول : والآثار في هذا الباب كثيرة على اختلاف فيها ، وفي أكثرها أنّه ﷺ حرّم مارية على نفسه لقول حفصة لاقول عائشة ، وأنّ التي قالت للنبي ﷺ : « من أنباك هذا » هي حفصة تريد من أخبرك أنّي أفشيت السرّ دون عائشة .

وهي مع ذلك لا تزال إبهام قوله تعالى : « عرف بعضه وأعرض عن بعض » . نعم فيما رواه ابن مردويه عن عليّ قال : ما استقصى كريم قط لأنّ الله يقول : عرف بعضه وأعرض عن بعض ، وروي عن أبي حاتم عن مجاهد ، وابن مردويه عن ابن عباس : أنّ الذي عرف أمر مارية والذي أعرض عنه قوله : إنّ أباك وأباها يليان الناس بعدي مخافة أن يفشو .

ويتوجّه عليه أنّه ما وجه الكرم في أن يعرف ﷺ ما قاله من تحرّم مارية

ويعرض عما أخبرها من ولايتهما مع أن العكس أولى وأقرب .

وقد روي بعدة طرق عن عمر بن الخطاب سبب نزول الآيات ولم يذكر ذلك ففي عدة من جوامع الحديث منها البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله : « إن تتوبا فقد صغت قلوبكما » حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالاداة فتبرز ثم أتى فصبيت على يديه فتوضأ .

فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » فقال : واعجبا لك يا ابن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثني .

فقال : كنّا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت على امرأتي يوماً فاذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقلت : ما تنكر من ذلك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قلت : قد خابت من فعلت ذلك منهن وخسرت . قال : وكان منزلي بالعوالي وكان لي جار من الأنصار كنّا تناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوماً فيأتييني بخبر الوحي وغيره وأنزل يوماً فأتيه بمثل ذلك .

قال : وكنّا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا فجاء يوماً فضرب على الباب فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : أجاث غسان ؟ قال : أعظم من ذلك طلق رسول الله ﷺ نساءه . قلت في نفسي : قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أرى ذلك كائناً فلما صلينا الصبح شددت علي ثيابي ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ قالت : لا أدري هو ذامعتزل في المشربة فانطلقت فأتيت غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فانطلقت إلى المسجد فإذا حول المسجد نفر يبكون فجلست إليهم .

ثم غلبني ما أجد فانطلقت فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج

فقال : قد ذكرت لك له فلم يقل شيئاً فوليت منطلقاً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل فقد أذن لك فدخلت فإذا النبي ﷺ متكئ على حصيد قد رأيت أثره في جنبه فقلت : يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ قال : لا . قلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت ذلك فقالت : ما تنكر ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن ، فدخلت على حفصة فقلت : أتراجع إحداكن رسول الله ﷺ وتهجره اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم فقلت : قد خابت من فعلت ذلك منكن ؟ و خسرت أئاماً من إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله ﷺ .

فقلت لحفصة : لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني ما بدالك ولا يغرّك إن كانت جارتك أوسم منك وأحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى . فقلت : يا رسول الله أستأنس قال : نعم . فرفعت رأسي فمارأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً وقال : أو في شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجبت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، وكان قد أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهراً فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة اليمين .

اقول : وهذا المعنى مروى عنه مفصلاً ومختصراً بطرق مختلفة ، والرواية - كما ترى - لا تذكر ما أسره النبي ﷺ إلى بعض أزواجه ؟ وما هو بعض النبا الذي عرفه وما هو الذي أعرض عنه وله شأن من الشأن .

وهي مع ذلك ظاهرة في أن المراد بالتحريم في الآية تحريم عامة أزواجه وذلك لا ينطبق عليها وفيها قوله تعالى : « لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك » مضافاً إلى أنه لا يبين به وجه التخصيص في قوله : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه » الخ .

وفي تفسير القمي "باِسْناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول :
« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما و إن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل
وصالح المؤمنين » قال : صالح المؤمنين علي عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس : سمعت رسول الله
ﷺ يقول : « وصالح المؤمنين » قال : علي بن أبي طالب .

اقول : ذكر صاحب البرهان بعد إيراد رواية أبي بصير السابقة أن محمد بن
العباس أورد في هذا المعنى اثنين وخمسين حديثاً من طرق الخاصة والعامة ثم أورد
نبذة منها .

وفي الكافي باِسْناده عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما
نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا » جلس رجل من
المؤمنين يبكي وقال : أنا عجزت عن نفسي و كلت أهلي . فقال رسول الله ﷺ :
حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك ، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك .

وفيه باِسْناده عن سماعة عن أبي بصير في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم نارا » قلت :
كيف أقيهم ؟ قال : تأمرهم بما أمر الله و تنهاهم عما نهى الله فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم
وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك .

اقول : ورواه بطريق آخر عن زرعة عن أبي بصير عنه عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفراري وسعيد بن منصور وعبد بن
حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن علي بن
أبي طالب في قوله : « قوا أنفسكم وأهليكم نارا » قال : علموا أنفسكم و أهليكم الخير
وَأَذِّبُوهم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية
« قوا أنفسكم وأهليكم نارا » فقالوا : يا رسول الله كيف نقي أهلنا نارا ؟ قال : تأمروهم
بما يحبّه الله و تنهونهم عما يكره الله .

وفي الكافي باِسْناده عن أبي الصباح الكناني قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن

قول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً » قال : يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه .

قال محمد بن الفضيل سألت عنها أبا الحسن عليه السلام فقال : يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، الحديث .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة من الفريقين .

و في الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال : قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله : « يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم » أئمة المؤمنين يوم القيامة يسعى ^(١) بين أيدي المؤمنين و بأيمانهم حتى ينفز لوهم منازل أهل الجنة .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية : من كان له نور يومئذ نجا ، وكل مؤمن له نور .





ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (١٠) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَ مَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ لَهُ وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ (١٢) .

﴿ بيان ﴾

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم و لم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان باخلاصهم الايمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة ولم يضرهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى .

يمثل الحال أولاً بحال امرأتين كانتا زوجين لنبيين كريمين عدهما الله سبحانه عبيدين صالحين - ويا له من كرامة - فخانتاهما فأمرتا بدخول النار مع الداخلين فلم ينفعهما زوجيتهما للنبيين الكريمين شيئاً فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تمييز وكرامة .

و ثانياً بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال : أنا ربكم الأعلى ، فأمنت بالله وأخلصت الايمان فأنجاها الله و أدخلها الجنة ولم يضرها زوجية مثل فرعون شيئاً، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقة

القائمة أكرمها الله بكرامته و نفخ فيها من روحه .

وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي ﷺ حيث خانتاه في إفشاء سره و تظاهرها عليه و آذناه بذلك ، و خاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيانة وذكر الأمر بدخول النار .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح و امرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » الخ قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة يقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر و نقيض الخيانة الأمانة يقال : خنت فلانا وخنت أمانة فلان انتهى .

وقوله : « للذين كفروا » إن كان متعلقاً بالمثل كان المعنى ضرب الله مثلا يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين ، وإن كان متعلقاً بضرب كان المعنى ضرب الله الأمراتين و ما انتهت إليه حالهما مثلاً للذين كفروا ليعتبروا به و يعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي ﷺ و أهل النار لا محالة .

وقوله : « امرأة نوح و امرأة لوط » مفعول « ضرب » ، والمراد بكونهما تحتها زوجيتهما لهما .

وقوله : « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » ضمير التثنية الأولى للعبدين ، والثانية للأمراتين ، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين .

وقوله : « و قيل ادخلا النار مع الداخلين » أي مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله في امرأة نوح : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كن زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول » هود : ٤٠ ، و قوله في امرأة لوط : « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتكم إنه مصيبها ما أصابهم » هود : ٨١ ، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار .

وفي التعبير بقيل بالبناء للمفعول ، و إطلاق الداخلين إشارة إلى هوان أمرهما

وعدم كرامة لهما أصلاً فلم يبال بهما أين هلكتا .

قوله تعالى : « و ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » النخ الكلام في قوله : « للذين آمنوا » كالكلام في قوله : « للذين كفروا » .

وقوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » لخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه في حياتها وترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها وذلك أن الإيمان إذا كمل توطأ الظاهر والباطن و توافق القلب واللسان فلا يقول إلا ما يفعل ولا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريد كذاً بعمله .

و إذ حكى الله فيما يمثل به حالها و يشير إلى منزلتها الخاصة في العبودية دعاء دعت به دل ذلك على أنه عنوان جامع لعبوديتها و على ذلك كانت تسير مدى حياتها ، والذي تتضمنه مسألته أن يبنى الله لها عنده بيتاً في الجنة و ينجيها من فرعون و عمله و ينجيها من القوم الظالمين فقد اختارت جوار ربّه والقرب منه على أن تكون أنيسة فرعون و عشيقته و هي ملكة مصر و آثرت بيتاً يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه ممّا تشبهه الأنفس و تتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال فقد كانت عزفت نفسها ما هي فيه من زينة الحياة الدنيا و هي لها خاضعة و تعلقت بما عند ربّه من الكرامة والزلفى فأمنت بالغيب و استقامت على إيمانها حتى قضت .

وهذه القدم هي التي قدمتها إلى أن جعلها الله مثلاً للذين آمنوا و لخص حالها و ما كانت تبتغيه و تعمل له مدى حياتها في مسير العبودية في مسألة حكى عنها و ما معناها إلا أنها انتزعت من كل ما يلهوها عن ربها ولاذت بربها تريد القرب منه تعالى والإقامة في دار كرامته .

فقوله : « امرأة فرعون » اسمها على ما في الروايات آسية ، و قوله : « إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » الجمع بين كون البيت المبنى لها عند الله وفي الجنة لكون الجنة دار القرب من الله و جوار رب العالمين كما قال تعالى : « بل أحياء عند

ربهم يرزقون » آل عمران : ١٦٩ .

على أن الحضور عنده تعالى والقرب منه كرامة معنوية والاستقرار في الجنة كرامة صورية ، و سؤال الجمع بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين .
وقوله : « و نجني من فرعون و عمله » تبرئ منها و سؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ومن عمله الذي تدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة إلى الشركة فيه والتلبس به ، و قيل : المراد بالعمل الجماع .

وقوله : « و نجني من القوم الظالمين » و هم قوم فرعون وهو تبرئ آخر وسؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص .

قوله تعالى : « و مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » الخ عطف على امرأة فرعون والتقدير و ضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم الخ .
ضربها الله مثلاً باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع و ثلاثين موضعاً في عشرين سورة .
وقوله : « التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ثناء عليها على عفتها ، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك و لعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى : « وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » النساء : ١٥٦ و في سورة الأنبياء في مثل القصة : « و التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها » الأنبياء : ٩١ .

و قوله : « و صدقت بكلمات ربها » أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل و قيل : المراد بها وعده تعالى و وعيده و أمره و نهيه ؛ و فيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركا .

و قوله : « و كتبه » و هي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن و لعل المراد من تصديقها كلمات ربها و كتبه كونها صدقة كما في قوله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل و أممه صدقة » المائدة : ٧٥ .

و قوله : « و كانت من القاتنين » أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث .

و يؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعاً فيما حكى الله من نداء الملائكة لها « يا مريم اقنتي لربك و اسجدي و اركعي مع الراكعين » آل عمران : ٤٣ و قيل : يجوز أن يراد بالقاتنين رهطها و عشيرتها الذين كانت مريم منهم وكانوا أهل بيت صلاح و طاعة ، و هو بعيد لما تقدم .

على أن المناسب لكون المثل تعريضا لزوجي النبي ﷺ أن يراد بالقاتنين مطلق أهل الطاعة والخضوع لله تعالى .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير البرهان عن شرف الدين النجفي^٢ رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » الآية مثل ضربه الله لعائشة و حفصة أن تظاهرتا على رسول الله ﷺ و أفشتا سره .

و في المجمع : عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، و مريم بنت عمران ، و خديجة بنت خويلد ، و فاطمة بنت محمد ﷺ .

و في الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني^٣ والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد ﷺ و مريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرهما في القرآن « قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة » .

و فيه أخرج الطبراني^٤ عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران و امرأة فرعون و أخت موسى .

أقول : و امرأة فرعون على ما وردت به الروايات مقتولة قتلها زوجها فرعون

لمّا اطلع أنّها آمنت بالله وحده ، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتلها .
 ففى بعضها أنّه لمّا اطلع على إيمانها كلفها الرجوع إلى الكفر فأبت إلاّ الإيمان
 فأمر بها أن ترمى عليها بصخرة عظيمة حتّى ترضح تحتها ففعل بها ذلك .
 و في بعضها لمّا أُحضرت للعذاب دعت بما حكى الله عنها في كلامه من قولها :
 « ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة » الخ فاستجاب الله لها ورأت بيتها في الجنّة وانزعجت
 منها الروح وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح .
 و في بعضها أنّ فرعون وتدلّها أربعة أوتاد و أضجّعها على صدرها و جعل على
 صدرها رحيّ واستقبل بها عين الشمس . والله أعلم

تم والحمد لله

السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
سورة القمر ٨-١	كلام فيه اجمال القول في شق القمر	قرآني و عقلي وتاريخي	٦٧
٩ - ٤٢	كلام في سعادة الايام و نحوستها في فصول ١ - في سعادة الايام و نحوستها . ٢ - في سعادة الكواكب و نحوستها . ٣ - في التفاؤل والتطير .	قرآني و روائي وعقلي	٧٩
٤٣-٥٥ الجمعة	كلام في القدر	قرآني و روائي و عقلي	١٠١
١ - ٨ المنافقون	كلام في معنى تعليم الحكمة .	قرآني و عقلي	٣١١
٨ - ١	كلام حول النفاق في صدر الاسلام	قرآني و تاريخي	٣٣٣

الصفحة السطر	الخطأ	الصواب
٣ ٤	لما	لما
» ١٣	المراد	المراد به
٤ ١٧	أنه	إنه
» ٢٠	١٠٢	١٠٤
» ٢٤	٥	٦
٨ ٧	تفريعا	تقريعا
١١ ١٩	رهين عمله	زائد
١٢ ٣	متنعما تهم	تنعماتهم
١٤ ١٢	مات	قدمات
» ٢٢	البزاز	البزّار
١٨ ١٨	أن يكون	الأن يكون
٢٠ ١٢	يثبتون	فهم يثبتون
٢٥ ١٨	جميعا	جميعا ومن غرر الايات فيها قوله : « وان الى ربك المنتهى » وقوله : « وان ليس للانسان الا ما سعى » .
٣٨ ٨	ليسمون	ليسمون
٣٩ ١٥	حقيقته	حقيقته
٤١ ٢١	تعالى	تعالى له
٤٤ ١٩	عصموا	عصوا
٤٧ ٤	وازره	وازره
٤٨ ٢٠	والسوره مكّيّة	
	الى قوله : ما سعى	زائد
٥٥ ٦	٨	١٨

الصفحة السطر	الخطا	الصواب
٥٨ ٤	كفّوه	كفوه
د ١٣	السماء	أبكى السماء
٦١ ١٣	لانشاق	لانشقاق
د ٢٠	اشارة	اشارة الى
٥٤ ٥	الا أن تأتيهم الساعة	الا الساعة أن تأتيهم
٧٧ ٩	الظا ظاهر	الظاهر
د ٢٢	وتاره	وتارة
٧٨ ١٠	والعظمة	والعظة
٧٩ ٩	لم يكن	لم يكن لنا
٨٠ ٤	٤	٣
١٧ ١٧	فقى	ففى
٨٦ ٢٢	كنا به	كتابه
٩٥ ١٥	وجوهم	على وجوهم
١٠٢ ٧	١	٢
د ١٥	العمل	العلل
د ٢٢	اختيارية	اختيارية
١٠٦ ١٥	ولقد	لقد
١٠٧ ٧	لوضع	لوضع الكلام
١٠٩ ٨	٣	٣٠
١١٦ ١١	أما	اما
١٣٨ ١٢	اصحاب	واصحاب
د ١٣	للقرآن	بالقرآن
١٣٠ ٣٠	يختارون و	يختارون وبلحم

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٥٨	١٥	٣٢	١١
»	١٦	٦٠	٦١
١٦٠	٤	ينبثو	ينبىء
د	١٥	لما	انه لما
١٦١	١	روا	وا
١٦٤	١٩	٢٤	٤٤
د	٢٤	٢٠	٢١
١٧١	٢	مستخلفين	مستخلفين
١٧٣	٣	عن سابقه	سابقه
١٧٨	٢٢	٦٦	٣٦
١٨٢	٥	خولتهم	خولتم
١٨٦	٥	ولا تكونوا	ولا يكونوا
١٨٧	١٤	فريق	وفريق
»	٢٢	العقر	الفقر
١٨٩	١٥	سارعوا	وسارعوا
١٩٢	٨	فرجه	فرحه
٢٠٣	٦	فتحرير	فتحرير
٢٠٤	١	جميلا	وعداً حميلا
د	١٨	للمبصرات	بالمبصرات
٢١١	١٧	اياها	اياها
٢٢٩	١٠	ثبتت	ثبتت
٢٣٢	٦	ان يكونوا	ان لا يكونوا
٢٣٣	٢٢	حقه	حقه
٢٤٣	١٢	خالدين	خالدین

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٢٤٨	٥	فاتاه	فاتاه اهلها
٢٥٠	٢١	الى ذاته	الى ذاته وصفاته
٢٥١	١٢	قدّمت	قدّموها
٢٥٢	١٢	٦	٧
د	١٥	عمله	عملها
د	٢٠	بالطاعات	على الطاعات
٢٥٣	٥	فيها	فيها مع زوال مبدئه
٢٥٥	١٦	يهتدى	يهدي
٢٦٠	١١	وبدا	وَبَدَأَ
٢٦١	٦	تولوهم	تَوَلَّوْهُم
٢٦٢	٩	وهو	هو
٢٦٧	٣	قال	قالوا
٢٧٢	١٤	بصنعة	بصنعه
٢٧٤	١٧	ملازمة	ملاءمة
٢٨٨	٢	الزامي	التزامي
د	٦	الالزامي	الالتزامي
٢٩٨	٢٤	اهل	من اهل
٣٠٨	٢٢	٩٢	٩٣
٣١٢	١٦	ينتهى	تنتهى
٣١٣	١٧	به	بها
٣١٤	٤	والاسباب	والاسباب هي المولدة للحوادث
د	١٣	فان	ان
»	١٤	٦٢	٨

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٣١٧	٨	صلاه	صلاة
٣٢٣	١٢	بواحدانيته	بوحدا نيته
٣٢٥	٣	وطبع	ونطبع
٣٣١	٧	انفسكم	بانفسكم
٣٣٧	١٣	٢٦	٤٦
٣٣٨	١٩	فاذا	اذا
٣٣٩	١٣	مايشاء	مايشاء ويؤخر مايشاء
٣٤٠	١٠	قل	قل بلى
٣٤٥	٦	يطبع الله	نطبع
٣٤٧	١٥	معن	معنى
٣٤٨	٣١	فلينق	فلينفق
٣٧٤	١٢	بالنمسك	بالتمسك
٣٧٥	١٤	فانظر كيف كان عاقبة المكذبين	بماكانوا يكسبون
٣٧٩	١١	السماء	السموات
٣٨١	٩	يبد له	يُبد له
»	١٣	(٤)	(٦)
٣٨٨	١٤	الأمر	الأثر
٣٩٠	٣	المكن	الممكن